RABAI AL-MADHOUN



ربعي المدهون

السيّدة من تل أبيب

القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية - ٢٠١٠









السيّدة من تل أبيب

في أحد مستوياتها ، تُقرأ الرواية كممارسة عربيّة لنمط الرواية الفرنسيّة الجديدة في ستينات القرن الماضي ، ويذكّرنا اللعب ، الذي يمارسه ربعي المدهون بمفهوم الزمن، بالفرنسيّ ميشيل بوتور ، بينما تذكّرنا الأجواء الغريبة ، التي تتفاعل فيها الواقعي والمتخيّل، بأفضل أعمال آلان روب غرييه . بيد أن أسلوب الرواية ولعبها الدائم على ثيمتي الشتات والعودة يظهرانها بعيدة عن تلك البرودة التي اتّسمت بها الرواية الفرنسيّة، رواية مليئة بالطرف والمواقف المبكية ، وقراءتها ممتعة أيضاً .

◆ أمير طاهري، الشرق الأوسط

هذه الرواية خيط من حكايات شيّقة وجميلة .. سرد ممتع ولغة ساحرة وشفّافة وقريبة من القلب ، مغوية ومغرية وجذّابة في آن واحد ، وقد تكون هذه الرواية هي الأولى التي تتخلّى عن النظرة التقليديّة للوطن والمسقط الرأس وللأهل وحتّى للعدوّ . رواية عصريّة تخطّت النظرة التقليديّة للرواية الفلسطينيّة .

◆ موسى حوامدة ، الدستور

في روايته هذه ، استخدم المدهون تقنيات مختلفة ، ولم يغفل عن حقيقة أنّ الرواية عمل من أعمال الخيال ، حتّى وإن استعانت بالسيرة الذاتيّة ، فتحلت في نصّه أشكال مختلفة من اللعب والمراوغة وحتّى الاستسلام لغواية تحرير الشخصيات من سطوة المؤلّف .

◆ حسن خضر ، الحياة

أوّل ما شدّني إلى الكتاب هذه المتعة السرديّة التي ينجح المؤلّف في إدخالنا إلى حميميّتها . لكنّ ما أنحاز إليه هو عدم سقوط الكاتب في السهل والأفكار الجاهزة، أي عدم استعادته ذلك الخطاب الديماغوجيّ الذي جعل قسمًا من الرواية العربيّة يقع أسير أيديولوجيته .

◆ إسكندر حبش ، السفير

مكتبة مدبولي

العنوان : 6 ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : 5756421 - فاكس : 752854
البريد الإلكتروني :
www.madboulybooks.com



الطبعة الأولى ، 2010



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : 11-5460 ، العنوان البرقي : موكيالي ، بيروت
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501

ISBN 978-9953-36-298-X

حكاية وليد دهمان

غدا صباحا يصل وليد دهمان إلى قطاع غزة. لا تصدق أمه الخبر. تعتبره إشاعة، خرافة، مثل عودة الفلسطينيين إلى بلادهم.

تسأل كل صباح: «يا ترى رح يرجع ابني وأشوفه قبل ما أموت... واحكي له اللي خبّيته عنّه ويحكي لي اللي مَ اسمعتوش؟!».

ثمانية وثلاثون عاما وهي تسأل وتكرر السؤال. تنصت لهمس الريح يوشوشها صدى السؤال. تلملم حيرتها وتطويها مع الفراش. وفي المساء، تنام مع الحيرة وتستيقظ صباحا على السؤال. وحين هاتفها وليد وكانت تسمع صوته في أذنها: «أنا جاي ع غزة يمّه.. راجع ع بلادي»، لم تصدقه، وغنّت مخنوقة ترتعش بالفاجأة: «وإيش بدو يجيبك بعد هالغيبة الطويلة يمّه؟!».

يصل وليد قرابة الخامسة. لم تعد زيارته فكرة أو مجرد احتمال. فقد ابتاع تذكرة سفر إلى تل أبيب، واختار موعدا لوصوله ينتهي به عند أمه في هذا الوقت بالذات، كي يتناولا معا طعام إفطار، قال إنها تعدّه منذ ثمانية وثلاثين عاما وحان موعد تناوله.

حمل حقيبته الكبيرة. علّق على كتفه الأيسر حقيبة صغيرة. وضع جواز سفره البريطاني في جيب قميصه فوق القلب مباشرة. أغلق الباب خلفه ومضى.

يلتقي وليد أمه في شقة لم يدخلها من قبل ، يطلقون عليها «شقة العزّابي الأخيرة» . تتكوّن الشقة من غرفتين ، خصصت إحداهما المطلة على شارعين لإقامته . جهّزت الغرفة بسرير خشبي وكنبة عريضة ومكتب متواضع ، سوف يجلس إليه وليد كثيرا . يتصفح في الصباح مواقع الانترنت الإخبارية . يلقي نظرة على بريده الالكتروني ويرد على ما يتلقاه من رسائل . يتابع كتابة روايته الرابعة «موطن الظلال» ، التي لم تزل الكثير من تفاصيلها معلقة على رحلته .

لا يعرف وليد أنه سوف يستيقظ في الصباح على ضوء شمس مستعملة مرّت بمستوطنة «الوطيئة» اليهودية . تدريجيا ، سوف يستوعب القاهرة الغريبة ويفعل ما يفعله الآخرون : يغسل الشمس بالأماني ويخلّصها من خلال الاحتمالات ، فتبقى نظيفة النهار كله . لكنها ما إن تبتعد نحو المساء ، حتى يتلقفها مستوطنو «نسانيت» قبل أن يطويها الغيب . ويسمع وليد مثل الآخرين ، أصوات تكسّر أشعتها خلف أفق من أسلاك شائكة وثكنات عسكرية تعلوها أبراج مراقبة . وفي الصباح ، تشرق الشمس مستعملة .

تقع شقة «العزّابي الأخيرة» على الطابق الرابع ، في عمارة بنيت على خط وهمي يفصل بين مخيمي بيت لاهيا وجباليا ويجعلها تنتمي للمخيّمين.

تضم العمارة سبع شقق . تحتل مساحة من سقفها مزرعة صغيرة للدواجن . في المزرعة قفصان كبيران لعشرة أزواج من الحمام البلدي ، وأربعة أقفاص أخرى أكبر حجما ، لعشرين دجاجة لا أصل لها .

من بين أشياء أخرى لا يعرفها وليد ، أنّ من بنى العمارة هو ابن خاله نصر الدين نعمان . وأن ذلك تمّ في زمن الطفرة الاقتصادية في سبعينات القرن الماضي . آنذاك ، اشترت إسرائيل من شبان غزة ، ذوي السواعد

اللوّحة بشمس الظهيرة والمملّحة بهواء البحر ، سنوات من أعمارهم ، راحت تجري مثل نهر من عرق صاف ، رويت منه الزرع والضرع ، وخلطت به إسمنت المستوطنات ، وغسلت الشوارع ، وصنعت منه أفضل المشروبات ، وقيل إنها جعلت منه ماءا للشراب والطعام .

كان نصر الدين شابا يافعا ، طويل القامة ، ذا كتفين عريضتين مثل صدر جبل ، وساعدين بقوة رافعة ، وكفين غليظتين إذا فرك قطعة نقد معدنية بينهما استحال التعرف على قيمتها . وإذا دقّ بكعب يده حبة لوز جافة على حجر ، سمع سكان مخيمي بيت لاهيا وجباليا الشابين ألفا ، فتات قشورها يصرخ إذ يرتطم بحيطان الجيران .

كان نصر الدين يحمل تيس جدّه عباس (الذي ابتاعه لغرض تأجيره في مواسم تعشير الغنم . وكان تيسا أشقر ذا عينين عسليتين ولحية حمراء ناعمة تشبه لحية الجد كثيرا) ، فوق كتفيه كمن يحمل قطة صغيرة . وكان إلى ذلك ، وسيما ذا ملامح حسنة ، وبشرة خمرية غامقة ذات خشونة تعشقها النساء .

لم يقدّر نصر الدين ذلك أو يدرك أهميته . وظلّ يكره بشرته ويقول إنها لون الباذنجان البلدي . ولأجلها كره كل وجبة تستضيف الباذنجان ، وكل أغاني الغزل بذوي البشرة السمراء ، واعتبرها دعايات شعبية مجانية تافهة لتسويق سيئي الحظ من الرجال والنساء . وللسبب عينه ، حقد كثيرا على غريغور مندل ، ووصف أبا علم الوراثة النمساوي مرارا بالأحمق ، واتهمه بالكذب والتلفيق . قال ذات صباح ، في حضور مدرس مادة الأحياء في مدرسته الثانوية ، لو كانت قوانين مندل الوراثية صحيحة ، لما أورثته أمه ملامحها ، وربما كانت له ، مثل أبيه ، عينان يقطر من زرقتهما البحر ، وشعر أصفر تسند عليه رمال شاطئه ، وبشرة نحاسية كقشور الرمان .

ضحك المدرس ، وصفق لنصر الدين زملاؤه من ذوي البشرة الغامقة .

عمل نصر الدين في مهن كثيرة . ارتفعت على كتفيه حيطان شقق في مستوطنات يهودية . ألقت سديروت ورحوبوت ورمات غان وأشكلون ، ومستوطنات ومدن وبلدات اسرائيلية أخرى ، قاذوراتها في أكياس واظب على نقلها الى عرباتها بأناقة مبالغ فيها . نبتت على كتفيه أشجار التفاح وكروم العنب ، وعلى ظهره جهّزت مزارع الحمضيات ثمارها للتصدير .

كان يغيب في إسرائيل يومين أو أكثر ، وأحيانا أسبوعا كاملا . يبيع لرب العمل الإسرائيلي نهاره كله . وحين يهبط المساء ، يفترش نصر الدين تعب النهار ويتغطى بالعتمة . وخلال عشر سنوات من العمل ، تمكن من ادخار بضعة آلاف من الدولارات ، مكنته من بناء بيت لوالديه من طابق واحد . ارتفع عبر السنين بعرق أولاده الكبار الذين لم يجدوا سوقا محلية يبيعونه فيه . صار عمارة من أربعة طوابق ، استعارت من المصريين اسمهم ، وحسدتها عليه عمارات كثيرة لم تزل قائمة ، وأخرى هدمتها جرّافات الاحتلال وماتت بلا أسماء .

يعرف وليد أن لابن خاله نصر الدين سبعة أبناء . خمسة أولاد يحفظ أسماءهم مبعثرة على ملامح متخيلة ، وابنتان هما مجرد حروف لاسمين سمع بهما كثيرا . وكانت تلك نعمة جعلته يتخيل الجميع كما يشاء ، ويغيّر من ملامحهم ومواصفاتهم متى شاء : سمر مرة ، وشقر مرة ، وسمر خلاسيين مرات . وكانوا يدخلون ذاكرته أحيانا ، أو يخرجون منها بلا ملامح . وحين كان يملّ لعبته ، يجعلهم نسخا متطابقة من نصر الدين الشاب ، ويبعثر عليها أسماءهم .

لكن وليد يعرف أن عبد الفتاح هو أكبر أبناء نصر الدين . فهو الذي منح أباه لقبا يناديه به الناس باحترام تقليدي : «أبو العبد» . وأنه يحتفظ منذ مولده بموقعه في رأس قائمة إخوته وبصفة «الابن الكبير» ، التي

تكسبه مكانة خاصة لدى أبيه ويحترمه لأجلها الآخرون . ويعرف وليد أيضا ، أن فلاح احتل موقع أصغر أبناء نصر الدين ، وظل «آخر العنقود» ، إلى أن قتل في اشتباك مع وحدة مشاة إسرائيلية وقع عند أطراف بيت لاهيا قبل ثلاث سنوات . سقط فلاح من نهاية قائمة الإخوة السبعة ، ولم يعد للعنقود آخر . يوم ذاك ، تغيّر ترتيب قائمة أبناء نصر الدين ، وصار شفيق أصغر إخوته .

في صالون شقة شفيق ، العزّابي الأخير بين أولاد نصر الدين ، تقضي أم وليد معظم أوقاتها منقوعة بالقلق والتوتر . تتربع مثل تمثال لبوذا على فرشة قطنية صغيرة مدّت فوق حصيرة من القصب . قبضتها تحت ذقنها تماما ، (ليس مهمًا قبضة أي يد تكون ، فهي تستبدلها من وقت لآخر) ، تسند رأسا صغيرا يشبه بطيخ القرارة ، وتبقيه معلقا فوق عكاز من لحم وعظم ينتهي بكوعها مدفونا في ساقها . تبقى على هذا الحال بعض الوقت ، وحين تشعر بالتعب وبملل ذراعيها ، تريحهما على حجرها .

هكذا تواصل أم وليد تكومها على نفسها في تشكيلات تؤكد اختفاء تفاصيل قامتها . فقبل ست سنوات ، استوطن الروماتيزم ساقيها فتقاعدا . صارا مجرد امتداد أفقي لنصفها السفلي . أخلت قامتها تتكمش ، بينما اللحم والشحم ينيبان بصبر وطول بال ، تلّين حول ردفيها ، إلى أن صارت بلا قامة .

لكن أم وليد ، والحق يقال ، احتفظت بصدر واسع مثل بيدر قمح ، وذاكرة تسخر من النسيان ، بل وتحتقره أحيانا . تتذكّر ما قال لها وليد على الهاتف ذات صباح خلط حساباتها : «أني جاي أزوركم ف غزة يمه» . وتتذكر ما قالته له من بين شكوكها : «بتتمسخر على أمك يا وليد . رح ترجع بعد ثمانية وثلاثين سنة يمّه؟!» . ثم تتذكر ما تذكرته وتستغربه . تندهش له ولا تصدقه ، فتتذكره من جديد : «يه خلاص . . أني جاي

أزوركم في غزة».

«إلى شي جاي بِدّاه ، تقول ، وتستسلم للانتظار .

منذ جاؤوا بأم وليد إلى عمارتهم ، قبل أربعة شهور تقريبا ، وباتت ليلتها الأولى في شقة ولدهم كما تقتضي التقاليد ، وأبناء نصر الدين يتنافسون على استضافة عمّة أبيهم . احتوها عمّة لهم وجدة لصغارهم ، منذ غابت جداتهم لأمهاتهم وابتلعهن الإغلاق ، ومنع التجول ، والحواجز الإسرائيلية ، وقصف الطائرات ، والاجتياح المتكرر ، وفوضى السلطة الفلسطينية والميليشيات المسلحة . ولم يعد يأذن للزيارات العائلية إلا في المناسبات الاجتماعية المهمّة من صحن التقاليد .

أما زهدية ، أم نصر الدين ، جدة أبنائهم ، (التي كانت تغسل بيديها ملابس عائلة من تسعة أفراد) ، فقد سقطت مطلوحة يوم مقتل حفيدها فلاح . وهي تقضي الآن ما تبقى لها من عمر ، على سرير في ركن جانبي في شقة ابنها ، تنتظر حبة من يغسل حلماتها ويصلي عليه .

وهكذا ، لم يبق للصغار سوى جداتهم رقيّة ، زوجة نصر الدين ، التي لم يعد نصيب الأطفال من حضنها يكفي الجميع ، بعد أن بلغ عددهم أربعة عشر بين صبي وبنت ، أكبرهم لم يبلغ السادسة وأصغرهم لم يطلق صرخته الأولى بعد .

لكن أم وليد ، (التي جاءت بصدر عريض دافئ يتسع لأطفال الجميع) ، تحركت ، منذ تقاعد ساقيها ، إلى إذاعة بصعب التحكم في إرسالها . صارت تمشي بلسان وشفتين ، تعوّض بالكلام ما فقدته قدماها من مسافات .

ذات يوم ، وقد مضى على إقامتها في عمارة النصريين قرابة الشهرين ، (وخبر الجميع برامج البث الإذاعي من كثرة ما استمعوا إليه) ، اقترح عمّاد ، (الابن الثاني لنصر الدين) ، على النصريين الشباب

وزوجاتهم وأولادهم وبناتهم ، زرع شريحة إلكترونية رقيقة ، داخل شق صغير في فم العمّة أم وليد ، قريبا جدا من الغدة تحت اللسانية . وادعى عماد ، أن الشريحة ستساعد على تنظيم البث والتحكم به عن بعد ، وتمكّن من إسكات العمة بطريقة حضارية ، وتوقف فيض الكلام عند اللزوم ، أو عند الحاجة إلى التغيير والاستمتاع بأصوات رصاص إسرائيلي انطلق فجأة مستهدفا أي مواطن عزاوي عديم الحظ مثلا ، أو حتى محظوظا يجد في الموت رحمة ، أو برصاص وطني لعلع في اشتباك بين منظمتين مسلحتين ، تتنافسان على ترسيخ الأمن وإحلال الهدوء ، أو ثالث زغرد مباركا لعروسين ليلة زفاف ناجحة مثل الفتوحات التاريخية الكبرى .

طمأن عماد الجميع (الذين خافوا على عمتهم وعمة أطفالهم من إجراء عملية جراحية غير مضمونة تقلق (الإذاعة إلى الأبد) ، قائلا بصوت واثق أنيق أناقة طبيب في مئزره الأبيض : «الطب عنّا اتقدّم كثير يا جماعة .. والناس اللي بموتو في بلادنا من فوضى انتشار السلاح والميليشيات ، أكثر بكثييير م اللي بموتو تحت العمليات .. وشريحة عمتي أم وليد ، إلكترونية أصلية صناعة كورية محترمة . ورح ناخدها مجانا وما ندفع لا شيقل ولا دولار ، ورح نزرعها ، إنشاء الله ، في مستشفى الشفا في غزة برقسو مجانا . ولعلم الجميع ، رح أكون شخصيا حاضر العملية» .

رحّب الموجودون بالاقتراح بعاصفة من الضحك . وصفّقوا طويلا لعمتهم التي ستكون أول امرأة في قطاع غزة ، تعمل بجهاز للتحكم عن بعد .

رغم ارتياحها لترحيبهم ، ظلّت أم وليد أسيرة إحساسها بالغربة والتشرد . تهمس لنفسها على مراحل ، (لأنها لا تحسن الهمس التواصل الذي يفقدها متعة الكلام) ، «اللي يبعد عن داره بيقل مقداره» . ومع أنها

تعرف أن تشرّدها من النوع المحترم ، وغربتها مثل غربة أهل عكا لا تتجاوز طرف المدينة ، (إذ تمّ كلاهما وفقا لبروتوكولات عائلية معمول بها منذ مئات السنين ولا يحتاجان الى تبرير) ، لم تتوقف يوما عن استحضار ما تسميه حكاية بيتها ، كي تطرد بها ذلك الإحساس اللعين .

كان بيت أم وليد وما يزال ، هو كل ما تبقى لها من دنيا توشك على طي زمانها . لا زوج ولا أبناء حولها أو بنات . بيتها هو الكيان الوحيد الذي يقيم معها . تعشقه وتمارس غيرتها عليه . تحاوره كلما انفردا وحيدين . تمد أصابعها الى أقرب حيطانه وتتلمس فيها ملامح شخص عزيز . تستلقي على ظهرها في صالة الجلوس الصغيرة ، أحيانا ، (الوضع الوحيد الذي تستعيد فيه قامتها) ، وتتجول بعينيها على السقف المتعرج المصنوع من ألواح الاسبست السميكة ، كما يتجول زورقان فوق موج البحر . تهمس لبيتها بالدعاء : «يحميك الله ويصونك زي ما انت حاميني» . تنقلب على أحد جانبيها (ليس مهما أي جانب يكون) . تلصق أذنها بالأرض . تنصت لأنفاس البيت تتردد مثل همس ريح خفيفة قادمة إليها بحكايات من خلف الشلال ، ولدقات قلبه تنبض في صدرها . تحدثه وتستمع اليه . تشكو له وتتقبل شكواه . تحلم كل ليلة بتبليط أرضيته ودهن أبوابه بزرقة البحر ، وجدرانه بالجير الكلسي الأبيض ، لكي يضيء الحارة في الليالي التي يُفتقد فيها القمر . وفي الليلة التالية ، يستيقظ حلمها وتتفرج عليه .

حين حقق النصريون الشباب للعمة حلمها ، وبلّطوا أرضية بيتها ودهنوا حيطانه وبابه الخشبي الصغير كما في الحلم تماما وصار مثل فستان فرح ، ألبسه صاروخ إسرائيلي ثوب الحداد . تفتّت سقفه وتناثر شظايا ، وتهدّم بعض جدرانه ، واحترق أغلب محتوياته على قلّته .

تركت أم وليد بيتها في هجرة داخلية هي الرابعة ، أعادت خلالها تجميع الحكايات القديمة ، وصنعت منها حكاية واحدة : «دارنا الأولانية

اللي ربيت فيها وليد جرفتها دبابات شارون سنة السبعين . يومتها اليهود وسّعو الشوارع عشان يلاحقو الفدائية بالسيارات العسكرية والمصفحات . ودارنا الثانية سقطت عليها قذيفة مدفعية اسرائيلية في عهد شارون . نظّفتها من لحجار والشظايا وفتافيت الخشب المحروق ، وعمّرتها وطرشتها بالشيد الأبيض . وقبل سِتْشهُر ، إجاها صاروخ رمته طيارة اباتشي وِقع ع كيس الطحين . انكسّر عفش بيتي كله ، وتمقّطت السما وغيمت طحين . والله وكيلك قْعَدت من غير سقف ومن غير فراش . وعمرّلي اباها ولاد ابن اخويَ ، عبد الفتاح وعماد وشفيق . بلّطوها ودهنوها وزيّنوها ، ورجعت وقعدت فيها . وقبل أربع تشهر ، كنت قاعدة ع عتبة باب الدار ، واللا هالاباتشي بتحوم وترعد رعد . قلت استر يا رب أبْصَر وين رح ترمي . وما شفت إلا شباب اثنين من حماس ، واحد حامل بيده بارودة والثاني إشي زي ماسورة الميّة ، اتخبّو تتبناتهم قدامي في الزقاق . صرّخت عليهم : يا شباب ، يعني ما لقيتوش تحشرو حالكم الا بين لبيوت عشان الطيّارة تقصفنا . . الله أكبر عليكم . وما كمّلت تكبيرتي ، إلا والصاروخ نازل . . شلاخ بقققققف . وما شفت حالي إلا محدوفة مترين ابعيد عن باب الدار . ومن رحمة الله إنو الصاروخ إجا جوّه في البيت والا كنت متت أني والشباب لثنين . وهاذي رابع مرة بينهدّ فيها بيتي ع ايدين شارون . . يقطَع شارون وسيرته ، إمفكِّر بيتي قاعدة عسكرية واللا مركز تدريب ، واللا محسبني من قيادات حماس لاحقني من دار لدار ، كل ما أبني دار يقصفها الله يقصف عمره؟!» .

في شقة العازب الأخير ، تقضي أم وليد الليل وحيدة . تتقلب الساعات وتتقلب معها . قبيل منتصف الليل ، استوقف صوتها عماد عند عتبة الباب ، وكان آخر الساهرين : «ابو نسرين . . أمانة الله لما الجيبو وليد بكره الصبح من معبر ايرز اتدشّرونا لحالنا شوية . قلبي مليان حسرة ع

ثيابه . ويغني أهل قلبي يا أبني م الوجع ، أخليه يوجّ ويضوّي زي ثيابه اللي غسلت له إياها آخر يوم قبل السفر» .

أغلق عماد باب الشقة خلفه ، تاركا أمه امتثالا مضمونا لرغبتها ، وأغلقت هي عينين مثقلتين بذكريات طفت على سطحها طوال ذلك اليوم الأخير .

أصل الحكاية

١

كانت أمه قد انتهت من غسل ثيابه التي سيأخذها معه صباحا الى القاهرة ، وتستعد لنشرها على حبل الغسيل ، حين استوقفه سؤالها : «وين رايح ع الصّبح يا وليد؟» .

توتّر ، وداهمه قلق مستعجل أوقفه قرب عتبة الباب : «يا فتّاح يا عليم . ايش بدّها منّي ع الصبح؟!» . وانتظر أن تكشف بنفسها ، كعادتها ، عما تخفيه خلف السؤال ، كأن تقول له : «خوذ يمّه جوز أرانب وبيعه في السوق» .

كان يكره البيع والشراء وذبح الأرانب وأكل لحمها حتى بملوخية المصريين . ويكره هذا السؤال بالذات : «وين رايح ع الصبح يا وليد؟» . وما زال يذكر تلك اليوم غير البعيد ، حين فاجأته أمه بالسؤال نفسه ، وكان يقترب من عتبة الباب نفسها ، وإن اختلف الوقت في تلك النهار : «وين رايح ع المسا يا وليد؟» . انتظر كما ينتظر الآن . سارعت تطلب إليه أن يرافقها إلى بيت قريبهم المتوفى أمين دهمان ، لتقديم العزاء الى أبنائه وأحفاده الكثيرين ، (مع أنهم لم يكونوا بحاجة الى عزاء ، فقد توفي كبيرهم أمين ، عن عمر تخطى المئة عام بشهور) .

ذهب وليد الى مجلس عزاء الرجال ، وانتحت أمه بين النساء

الوحدات بالسواد في مجلسهن . استمع وليد إلى ما قيل من قبل مئات المرات في عزاء آخرين : «كان رحمه الله وكان وكان . . » ، ولم يكن في أمين شيء مما قيل . فقد كان بخيلا ، لئيما ، وحقودا حتى النزع الأخير . وكان في حياته أكذب من أي زعيم عربي يصرّ على تحرير فلسطين ، حتى أن أحدا لم يترحّم عليه عند وفاته ، وقال الجميع «الله يجْحَمه» . ومع ذلك ذهبوا افرادا وجماعات لتقديم العزاء في وفاته . غيروا جميعا أقوالهم في الطريق ، وتهامسوا قائلين ، إنه الفقيد الذي ينبغي على الجميع الترحّم عليه ، وطلبوا له الغفران .

قدّمت أم وليد العزاء لذوي الفقيد : حفنة من بكاء تساقط في بحيرة من دموع ذرفتها نساء أخريات حزنا على موتى آخرين .

أخذ وليد ، يومها ، عهدا على نفسه ألا يحضر حتى مأتم أبيه يوم وفاته . وأن يكتفي بتقديم العزاء لنفسه بنفسه وتلقّيه منها وشكرها عليه ، لكي لا يسمع ما يقال عن أبيه مما ليس فيه . لكنه حين توفي أبوه فعلا ، ولم يكن ذلك ليخطر له على بال ، أنكر وليد عهده وتخلّى عنه ، وظل يستمع خاشعا ثلاثة أيام متتالية لكل كلمة طيبة قيلت عن أبيه .

استدار نحو أمه وأجاب : «لا رايح ولا جاي» .

ابتسمت بطرف عينها ، مطمئنة إلى أنه لن يغادر البيت قبل أن يستمع الى ما ستمليه عليه .

انحنت على طست الغسيل . تناولت منشفة قطنية كبيرة وعصرتها بين يديها . تصاعدت في البيت سحابة من روائح مسحوق زهرة الغسيل الزرقاء . أخرجت من كيس قماشي ملقطين خشبيين . وضعت واحدا في فمها وألقت بالمنشفة على حبل الغسيل . وضعت الثاني على طرف المنشفة ، وقالت بلسان مربوط خلف أسنانها : «امبارح لفت ابوك في الفيْم . . » .

أضحكه لسانها الأعرج يتعكّز بالكلام على ملقط . سارعت تخرج الملقط من فمها ، وتضعه على الطرف الأخر للمنشفة : « امبارح شفت أبوك في الحلم وسألني عليك . . اللهم اجعله خير» .

«الحمد لله أبويَ مش ناسيني» . همس لنفسه .

«ثلاث مرات سألني عليك . وحياة الله ثلاث مرّات» .

حاول أن يأخذها بعيدا عن حلم حلمته خصيصا له ، فقال مازحا : «أخبّرتيه يُمّه إنّي صِرت آخر سنة في الجامعة ورح اتخرّج؟» .

أعادته إلى حلمها مفسّرا : «روح احكي له بلسانك . زوره واقرا الفاتحة ع روحه بيتوبك ثواب» .

فكّر في تحديها بنزق صبياني لا يكلفه سوى كلمتين : «بدّيش أروح» ، ويغرب عن وجهها . تردّد إذ تذكّر قاموسها التقليدي الذي تستعير منه شتائمها ، كأن تقول له «بنْه أتبِلْك» . وهو لا يعرف البلْة التي ستبله ، ولا كيف ستفعل ذلك ولماذا ، وإن كان سيشعر بجسده يخور وبأطرافه تتخلى عنه .

خاف من البلْة . عدل عن استعارة نزق صبياني ، وقرر الوقوف في منتصف الاحتمالات : «الدنيا الصبح يُمّه . . بْروحْ بعد الظهر . . أو بعد شوي لما ارجع» .

«وبتهون عليك روح ابوك؟»

«يُمّه ابوي مات الله يرحمه ، بدّي اروح اشتري غراض السفر من السوق» .

«إن ما رُحتِش هالقيت رح يروح النهار وتسافر من غير ما تزور قبر ابوك» .

انحنت على الطست ثانية . تناولت قميصا وألقت به على الحبل بعصبية : «بتروح دُغري وبتزوره» .

«طيب . . حاضر» .

«ما دام ابوي سأل عليّ لازم أسأل عليه» . همس لنفسه ساخرا واجتاز العتبة إلى الخارج .

أغلق وليد الباب خلفه ، ومضى وفي نيته أن يذهب إلى أي مكان ، وأن يفعل أي شيء ، ما عدا أن يبدأ يومه بلقاء صباحي مع موتى المدينة . وما إن ابتعد عن البيت قليلا ، حتى لحق به صوت أمه محذرا : «ما تنساش كلام امك يا وليد . . .» .

٢

فكر وليد في الذهاب الى السوق . أزاح فكرته طيف أليف حمل إليه الحلاق سعيد دهمان ، بشعره اللولبي السافر في الفضاء ، وقامته الطويلة النحيلة مثل عامود الكهرباء . تأمله يشطف المصطبة الاسمنتية الممتدة أمام صالون الحلاقة ، بماء معطر بورق الليمون ، ويعيد ترتيب كراسي القش الصغيرة عليها . يتشبّع الهواء بنكهة الربيع ، ويتحوّل المكان الى منتجع سياحي صغير . يجلس سعيد ويشعل سيجارة ، ويترك المنتجع يلم له الزبائن من الشارع العام .

أغرى المشهد وليدا . أدرك كم سيفتقد سعيد بعد السفر . قرر أن يذهب إلى صالون الحلاقة . سيرحب به صديقه وقريبه كثيرا : «صباحك فلّ ورزق الجميع ع الكريم» ، ويسمعه حكاية جديدة ممتعة يتفتح لها قلبه كما تتفتح زهرة قرنفل على حافة الفجر . ويطمئنه ، كالعادة ، إلى أنه لم يرو الحكاية لأحد من قبل . لكنه سيشترط عليه أن يبقيها سرًا ، فقد يحتاجها في لحظة تخلت فيها عنه الحكايات .

كان وليد يطلق عليه «حكواتي القيم» ، وكان سعيد يطرب لإيقاع التسمية المشحون بالثرثرة . كان يلمّ حكايات القيم عن ألسنة زبائنه وعن شفاه الناس . يغسلها مما علق بها من انفعالات ، ويحتفظ لنفسه برحيق الكلام . ثم يضيف إليه خلطة سرية من بهارات المزاح . وحين تصبح الحكاية حكاية ، يرويها لزبائنه على أنها جديدة ، ويحلف ألف يمين بالله أنها لم ترو من قبل .

وإذ تذكر وليد أنه سيلتقي سعيد مساء ، وأنه وعده بذلك فعلا . وأن صديقهما المشترك فوزي عاشور ، سوف ينضم إلى اللقاء . وأنهما حتما سوف يستمعان من سعيد إلى حكاية جديدة ، او حتى مغسولة ومكوّية على طريقته على الأقل ، تراجع عن قراره . لم يكن ممكنا حقا ، الاستمتاع بحلقة من ثرثرة سعيد مرتين في يوم واحد ، حتى لو غسلها بتوابل السخرية والأكاذيب الملونة التي لا يدفع ثمنها أحد . قال لنفسه ، وارتاح لما قال وأثنى عليه .

توقف عن السير . التفت الى زقاق على يمينه . أدرك أنه قريب جدا من بيت محمد خديجة . فكّر في زيارته . قال إنها ستكون فرصة لقضاء بعض الوقت معه قبل الوداع .

قلّبَ خياره مرتين فقط ، لأن صوت أمه تدخل وأوقفه : «ما تنساش كلام امك يا وليد . .» . خشي إن تجاهل طلبها ، أن تقلب الدنيا على رأسه في يومه الأخير .

خطر له أن يتحايل على الأمر . أن يكلب على أمه بمزاح غير تقليدي ، كأن يقول لها مثلا : «زرت ابويّ يمّة وقريت الفاتحة ع روحه . كانت صحته منيحة ، وكان لابس بدلته الكحلي المقلّمة بخطوط رمادية رفيعة . ومد ايده في جيب جاكيتّه ، وطلّع مصاري وأعطاني مصروفي . . وبيسلم عليكي يمّه كثير» .

وماذا لو صدقته وألحت عليه بالمزيد : «ما تخبّيش على امّك يا وليد . ايش وصّاك ابوك؟» .

سيقول لها ما يفقدها ما تبقى من عقلها بعد وفاة أبيه : «سألني والشرر طالع من عينيه . . إمك اتجوّزت بعدي يا وليد؟» .

عندها ، لن تتردد أمه في استخدام مخزون لعناتها الخاصة ، التي لا تستخدمها إلا في موقف كهذا : «جيزة اتجز رقبتك والجيز جنازتك انشا

الله . اتريّحني منّك وتالحقك عند ابوك» .

أضحكته مخيلته : «إمي هذي عجيبة والأعجب منها قاموسها . إن قلت لها جيزة ، ردّت عليّ ، جيزة اتجز رقبتك . وإن قلت لها طالع ، بترد : تطلع روحك . وإن قلت نازل ، بتجاوبني ، تنزل الميّة من زورك . وإذا قلت لها نايم ، بترد نامت عليك حيطة . وإن قلت انا ماشي يمّه ، بتجيب اجلي وبتقول : نمشي في جنازتك .

لكن أمي يوم ما تكون راضية عليّ ، بتقلب القاموس الأسود أبيض : الجيزة بتصير تفرح في جيزتك . وطالع ، بترد عليها يطلع لك السعد . ونازل ، بتصير نازل خفيف ع قلبك . ونايم بترد عليها نوم الهنا يمّه . وان قلت الها ماشي بتقول لي تمشي وتزغرد في زفتك وانت عريس انشا الله» .

«طيب . . ولو سألتك إمك يا وليد ، مين شفت في المقبرة من الزوّار أو المقرئين؟» . رح تحتاج كذبة أو كذبتين على الأقل . وان ما زبطت يا ويلك من قاموس أمك» .

صمت وليد ، فكرّ وقرر : «بلاها يا وليد روح زور ابوك واخلص من لسان امك . .» .

واصل سيره بخطوات عسكرية ثابتة (كثيرا ما قلدها الآخرون سخرية أو إعجابا) ، حتى بلغ دكان حبّوب عند بداية الشارع العام . وهناك استقر رأيه (الذي لم يكن رأيه) ، على تنفيذ رغبة أمه .

توقف عند الركن الغربي للدكان . أسند ظهره إليه . أشعل سيجارة «روثمانز» ، وأخذ يراقب المشهد أمامه عبر سحابات الدخان .

همّ بمواصلة طريقه . استوقفه ظهور متى الفاجن ، (كان اسمه عبد الحميد عواد . وكان مثلما انكرت عليه المدينة ومخيماتها صفة الذكورة فأنّثته) . كان يحمل على كتفه اليسرى بطارية راديو سوداء من النوع

القديم ، في طريقه ، لتعادته ، إلى محطة بنزين الدوار ، لإعادة شحنها حيث يتوفر دينامو شحن البطاريات الوحيد .

ارتعش جسد وليد ، ويلته ذاكرته بطر من خجل قديم . تلفّت حوله خشية أن يُضبط متلبساً انفعالاته : «ايش اللي جاب مني هالقيت؟ ايش معسّر هالشيك على جرح كراستي . . هيّ مرة وحدة حصلت بالغلط . . ايش بدو مني . .؟» .

سحبَ نفساً عميقاً من سيجارة ترتعش بين أصابعه ، ونفثه مثل شحنة ندم عميق : «ليش سخّمته يا وليد؟ كنت تكره لولاد اللي بيحكوا الكلام الرزيل ، وما ترضاش تلعب معهم . اخترت محمد خديجة من بين كل أولاد الحارة وحطّيته أعز صديق ، لأنه ثيابه صافية ولسانه نظيف مثل الحليب . ياما صرّخ عليك ابوك من ورا حيط غرفته وانت بتلعب في الحارة : ما تلعبش مع لولاد السفلة يا وليد . كان كلام ابوك مقدّس ، وكان لا يكرر صرخته . ايش رح تقول لبوك لو قام من قبره وسمع اللي ما بيِنْسمع ولا بينعاد؟! بدَّك تموّت ابوك كمان مرة يا وليد؟!» .

كانت ليلة خريفية عاصفة ، كنست ريحها الشوارع والأزقة والحارات من المارة والمتسكعين ، ونظّفتها من الدجاج والقطط والكلاب . وحين اطمأن وليد إلى أن أحداً لن يراه ، حث الخطا يجمع بكفيه طرفي كنزته الصوفية المفتوحة كلما عصفت به الريح . وراح يتعقبُ مني من مسافة غير بعيدة من دون أن يرفع عينيه عنه . يتأمله وهو يمشي بدلاله أنثى تحمل على رأسها جرة ماء فخارية . رتفاه يتمايلان على وقع خطاه ، وعيناه تستغفلان تتقيه وتسرقان نظرة إلى الوراء . طمأنتان إلى تعلق الطريدة بالشباك ، والطريدة وليد يرتعش بالتردد . فكّر غير مرة في التراجع ، فانحلت رغبته الفرار نيابة عنه ، وشدته إلى آخر حدود المقامرة . وحين

أصبحا على مقربة من عبّارة مفرق بيارات القرّا ، فقد وليد قدرته على التريث ، واستسلم كلياً لقوته نفسه نحو الفاه . وهناك ، داخل العبارة التي يبلغ قطرها المتر تقريباً ، تحت خط سكة الحديد ، على بعد خمسمائة متر من محطة قطارات خان يونس ، ضاع أنهات وليد اللاهث في صفير الريح ، وذابت رعشة جسده في عتمة العبّارة .

دمعت عيناه . اعتذر لأبيه .

٣

ألقى وليد بعقب سيجارته واستأنف طريقه الى المقبرة . وخلال دقائق ، كان يعلن بصمت استسلامه لسطوة الموت أمام قبر أبيه .

القائمة . . .

هذا ضريح أحمد تمر دهمان

. . . .

«هذا والدي ، نسخة منّي مكبرة ، ترقد تحت جبل من الاسمنت المدهون بالجير الأبيض : طوله المتوسط ، نحافته ، لون بشرته ، حتى نظراته الحالمة العميقة (التي يقال إن لي مثلها ولا أصدّق) ، وبعض عصبيته التي تشبه ريحا متوترة ، ومشيته التي تشبه خطو ضابط في استعراض عسكري مهيب ، ورثته كله عنه . كنت أبي في مراحل شبابه الأولى إذن . كل من رآني أول مرة ، وعرف أبي قبل وفاته ، حدس ثم أكّد حدسه : هذا ابن أحمد دهمان . أما أمي فكانت تقول : كل شي فيك أبوك . . الخالق الناطق أبوك . شعرك ، عينيك ، منخارك . . حتى ذقنك المحزوقة من النص زي القرش الفلسطيني . . الخالق الناطق أبوك . . ولما بتعصّب ووجهك بيحمر ، بيضيق خُلقَك وبتصير تسب وتبربر وما حدا بيفهم عليك ايش بتقول . . بس بصراحة . . ضيقة الخلق أخدتها من أمك . . بتعرف يا وليد لو يوم غِبت عنّي ورِجعت وانت في عمر أبوك الله يرحمه . . رح أقول هذا أحمد مش وليد» .

«الله يرحمه» .

كان أحمد تمر دهمان ، موظفا في مركز توزيع التموين التابع لوكالة غوث اللاجئين «أونروا» . كان شاباً وسيماً ، متعلماً وودوداً ، تركض خلفه محبة الناس أينما حطّت خطاه .

وذات يوم تموزي ، لم يُطق فيه الناس الكلام ، اتهمه زملاء له في العمل بسرقة بقجة ملابس من مركز توزيع التموين وتهريبها عبر معارف له من بين العاملين . بلغ الأمر مدير المركز ، خميس السوافيري (هكذا قيل) . غضّ المدير النظر قائلا إن ما ضاع لا يعدو كونه بقجة واحدة لا تستحق المراجعة أو التدقيق . لكن السرقة تكررت ، وأخذت بقج التموين تنقص واحدة كل يوم ، فيولد معها اتهام جديد .

في نهاية أسبوع لم تتوقف فيه السرقات واتهامات الموظفين ، قرر المدير وضع حد لغضب موظفيه . وجّه رسالة خطية الى أحمد دهمان يحمّله فيها المسؤولية عن السرقات ، ويطلب إليه التوقف عن العمل ، وعدم العودة إلى أن ينتهي من تحري الأمر .

تقدم أبو وليد بشكاوى عدة إلى رئاسة الأونروا في غزة ، أحيلت كلها إلى مديره في العمل للتدقيق . وخلال أسبوعين فقط ، احتضنت البطالة أبو وليد ورحب به الرزق المقطوع . وتحولت عائلة أحمد دهمان على ألسنة كثيرة في المخيم تشبه مبارد الحديد ، من «بيت أبو وليد المحترم» ، إلى «بيت سرّاق بقج التموين» .

لم يمض على توقيفه عن العمل أكثر من شهر ، عاش أبو وليد خلاله «غير محترم» أبدا ، حتى وقع ما لم يكن في الحسبان . تبعه ذات صباح ، شبح موت مستعجل إلى مقهى منصور وسط المدينة ، كأن على جدول

أعماله العديد من المرشحين . لم يأته في بيته ولم ينتظره حتى يعود ، أو ينتهي حتى من شرب كأس من الشاي بالنعناع طلبه فور وصوله ، بل جاءه في هيئة نوبة قلبية جارفة مثل إعصار . انتفض الرجل مثل ذبيحة ، وصرخ قابضا على ذراعه اليسرى بيمناه ، قبل أن يسقط عن كرسيه الخيزران ، وسط عدد من رواد المقهى الذين للمتهم صرخته . أطلق أحمد دعمان شهقة واحدة ومات . تصاعد بخار الشاي في فضاء المقهى ، حاملا رائحة نعناع وروحا ذهبت بعيدا ولن تعود .

بعد وفاته ، صارت أم وليد كثيرة التوتر عميقة الشرود . تغيب عما يدور حولها أحيانا . تقعد أمام عتبة غرفتها صامتة لساعات . تستدعي أحيانا دجاجاتها من أقنانها : «تعتعتعتعتعتعتع» . تنثر على الأرض ملء قبضة يدها من الشعير ، فتركض الدجاجات لالتقاطه . تتأملها تنظف بمناقيرها الأرض من الحبوب ، وتتطلع إليها طالبة المزيد . تتحدث إليها كمن تتحدث إلى جارات تضع أسرارها في قلوبهن : «**قتلوه . . . الحرامية اولاد الحرام قتلوه . . كانوا يسرقوا بقج التموين ويقسموها على بعضهم . . وأبو وليد واقف الهم في الطريق ، يهدّدهم بالفضيحة ، لحتى زاحوه من الطريق ومن الدنيا كلها . . الله ينتقم من ولاد الحرام . . الله ينتقم . . .**» .

كان قد مضى على وفاة أحمد دعمان أكثر من ثلاثة شهور ، حين طلب الجد تمر من حفيده وليد ، أن يرافقه الى السوق لابتياع بعض التبغ الجاف من المزارعين الصغار . قال إنهم يعرضون كميات متنوّعة ، يبيعونها بنصف أسعارها في الدكاكين . وقال أيضا ، إن من عادته خلط أصناف عدة بطريقة تعجز عنها مصانع سجائر «روثمانز» و«كِنت» و«فراقين – إيه» . وأكد بفخر بدا على ملامحه ، أن خلطته أكثر جودة من سجائر

سيالم الحلية ، وأصرّ على ذلك .

هبطا الشارع الرئيسي معا ، وسارا باتجاه وسط المدينة . أنصت وليد لكلمات جده المشبعة بروائح جميع أنواع السجاير المتوفرة والدخان ، من دون أن يقوى على إشعال واحدة من سجائره في حضرة الجد مراعاة للتقاليد .

«إبتعرف يا وليد يا جدي مدير مركز تموين الإغاثة خميس السوافيري . . خميس هو اللي رتّب سرقة بقج التموين . اسمعت إنو اختلف مع أبوك ، رحمة الله عليه ، على مرة يافاوية اسمها سوسن الغندور . بيقولو إنها آية في الجمال . خميس كان حاطط عينه على المره . فيه ناس بتقول – والله أعلم – إنها كانت حاطّه عينها على أبوك . صار خميس يهرّب بقج التموين وواحد من موظّفينه يتّهم ابوك ، لحتى طرّده خميس من الشغل وربى له علّة في صدره ومات . بس أني يا جدي ما صدّقتش أبدا إنو يكون للمرحوم ابني أي علاقة لا مع سوسن ولا مع غيرها . أني أبوه وبعرفه منيح» .

قال الجد .

عقب وليد الذي فاجأه الحديث : «لو كنت عارف يا جدي لقتلته» .

«لأ يا ابني يا وليد . . الله بيجازي الظالمين» .

رفع وليد عينيه الى القبر الإسمنتي . أخذ يراقب ظلال أوراق شجرة أكاسيا تدلّت بعض فروعها ، تحركها فوق القبر نسمات مشبعة بروائح عفن وأزهار جافة انتشرت في المكان .

هبّت ريح مفاجئة . مست أوراق غصن صغير في الشجرة جبين وليد . رفع رأسه الى أعلى يعاتبها . فوجئ بمناديل شفافة مطرزة بألوان الحب معلقة على الأغصان ، ترفرف بخجل قديم . نسي عتابه للريح وأنصت لهواجسه : هل كانت أمه تعلّق منديلا على غصن في الشجرة

كلما زارت قبر أبيه؟ لم كانت سوسن هي من ترتّب الشجرة فوق رأسه «بالشاديل؟».

عاد يتأمل القبر وقد جرحته الشكوك : «هل فعلها أبي حقا؟ هل أحب سوسن القندور وأحبته؟ . وأمي نوّارة بنات معمان ، كما كان يقول عنها ، أمي التي قطّعت روحها يوم ما مات ووزعتها على المزيّن ، مش حرام يحب مرة ثانية غيرها؟ صحيح أمي عصبية وقاموس لسانها يهد جبال ، بس حلوة وقلبها طيب ، وما بطّلت تحلف بحياته كأنه أبدا ما مات».

تصاعد من حوله همس الريح مثل نواح قادم من بعيد ، وسمع من يقول ويعيد : «دير بالك ع إمّك يا وليد . . . . .» ، أدرك أنه صوت أبيه .

قرأ الفاتحة على روحه وغادر المقبرة على عجل .

4

في طريق عودته ، مرّ وليد بدكان حافظ البطة للسفريات ، ابتاع عدداً من أقلام الحبر الجاف والشامبو ومعجون الأسنان والجوارب ، وكل ما يلزمه مما لا تتوفر أصنافه الجيدة في القاهرة . وضع كل ما ابتاعه في البيت وخرج ليودع أصدقائه بادئا بالمحاميد الثلاثة ، كما اعتاد أن يطلق عليهم : محمد خديجة ومحمد القصرية ومحمد سمورة .

يقع بيت محمد خديجة خلف بيت وليد مباشرة ، في مجمع يضمهما وبيوت تسكنها عائلات هاجرت من قرية بيت دراس ، ولا يحتاج الوصول إليه سوى استدارة حول زاوية الجمع الغربية .

طرق الباب بيده ثلاث مرات . دعاه صوت خديجة من الداخل : «تفضل يا وليد . . انت مش غريب» .

دفع وليد الباب بكفه . أنّت مفاصله الصدئة وسمع الأنين . اجتاز العتبة . ألقى تحية تقاطعت مع ترحيب محمد به : «أهلا . أهلا . تفضّل يا وليد» .

استدارت أم محمد ومضت إلى مطبخها واختفت في الداخل تعدّ الشاي للصديقين .

كان محمد في مثل سن وليد ، حين قدمتهما لبعضهما ألعاب الطفولة . كان يعاني من ضعف في بصره مثل أبيه حسونة زيال ، الذي لم يكن يصلح إلا للبطالة . كانت خديجة عينا أمه جميلة الواسعتان ، وغمامتا

عيني أبيه الرماديتين الصغيرتين . ولم يكن يفصله عن العمى الكامل ، حينذاك ، سوى ثقبين صغيرين ، يطلان على عالم صغير .

لم يلتحق محمد بمدرسة ، وبقي أميا تحجبه عن التعليم سحابتان غامضتان لعينتان ، تلقفان بفظاظة على أبواب كل المدارس التي طرقتها والدته ولم تسمح لابنه بالدخول .

مرّت سنوات كثيرة وعينا محمد تضيقان يوما بعد يوم ، إلى أن اختنق بصره ، ولفظت عيناه آخر بصيص نور عبرهما . صار يرى الأشياء بأصابع كفيه ، وتعرّفه على الناس أصواتهم . ولم يكن يخطئ وليد حتى لو اقترب منه صامتا ، فقد كان يستشعر وجوده بحس غريب ، ويشم رائحته من بعيد .

قالت خديجة تمازح ابنها ذات مرة وقد دخل عليهما وليد : «محمد من يوم ما فقد بصره . . صار له منخار كلب . صار يشم ريحتك يا وليد» .

رد عليها محمد ، وهو يمدّ كفيه ليحتضنهما وليد ويشد عليهما ، (كانا يتبادلان السلام كفين بكفين كأنهما أربعة أشخاص) : «ريحة الناس الطيبة هي اللي بتفوح بُه من ابعيد» .

تناول كل من الصديقين كوبا من الشاي بالنعناع . ارتشفاهما على عجل كأنهما على موعد تأخر . ثم استأذنا خديجة وخرجا إلى الحارة .

انطلق الصديقان يتسكعان في الأزقة كمن يقيسان مساحة الحارة . وأخذ وليد يملأ المسافات بحكايات من تجاربه في القاهرة . حدث صديقه عن بناتها الحنطيّات والبرقوقيات ، عاريات السيقان والملفوفات بملايات مثل قرطاس الترمس . وكان محمد ينصت عميقا ويرسم بنفسه ملامح من حروف الكلام .

حدثه وليد عن دراسته ، وعن فشله في الالتحاق بقسم الآثار في

جامعة القاهرة ، واختياره مجبرا قسم التاريخ .

منذ صغره ، كان وليد مولعا بالآثار ، يعشق غموضها الذي يدفن تاريخا مليئا بالأسرار . كان يزور مسجد الإمام الشافعي في غزة . يصلّي فور دخوله في كل مرّة ركعتين . ثم يجلس مثل ناسك يتأمل المسجد من الداخل ، ويحاول التقاط بصمات التاريخ من زخارف السقف وعن سطوح الأعمدة والحيطان .

كان يحكي ومحمد ينصت ، يهلل دهشة حينا ، ويكبر إعجابا أحيانا .

حدثه عن أهرام الجيزة وعن أبي الهول . عن زيارته الأولى للهرم الأكبر ، هرم خوفو . وكيف اضطر الى الصعود خاشعا محني الظهر (عبر ممر مربع قليل الارتفاع ، تضيئه مصابيح كهربائية خافتة ثبتت على جانبيه) ، تلهث قدماه فوق درجات خشبية مشدودة الى حبال .

كان يطلق كلاما يلهث بين شفتيه . وكان محمد يلهث صاعدا خلفه . يشد وليد بيديه الحبال ، ويتلمّسها محمد بمشاعره بينما قدماه تتحسّسان السلالم تحتهما ، إلى أن بلغا نهاية الممر الطويل .

وفي حضرة الفرعون العظيم ، الذي سرق اللصوص عمره المحنط ، فرد الصديقان قامتيهما بشموخ . تأملا التابوت المصنوع من الغرانيت طويلا . قرأ معا بعيني وليد تضاريس النقوش ، وأخذا يترجمان بمشاعرهما النصوص .

حدثه وليد عن لغة الفراعنة ، عن مفردات ما يزال المصريون يستخدمون العديد منها حتى اليوم . يقول ويردّد محمد خلفه القول : مَخْ ، دَح ، امبو ، كَع ، كُخ ، بَح ، مَمّ ، تَنّ ، تي ، تي . . تي . . تي . . نف ره ره ، نف ره تي تي ، نفرة تيتي نفره تيتي .

«مين نفره تيتي يا وليد؟» .

«نفره تيتي يا صديقي ، كانت ملكة . . زوجة الفرعون اخناتون . واسمها معناه الحلوة اللي جاية» .

«يعني فرعونة حلوة؟»

«تقريبا» .

وأخذ وليد يصف لصديقه «الحلوة اللي جاية» . يرسم له بحروف الكلام تفاصيل بارزة لملامحها . وكان محمد يتشرب التفاصيل ويختزنها في ذاكرته . وحين انتهى وليد من حكاية الملكة الجميلة ، أمال محمد رأسه الى الخلف وإلى اليسار قليلا ، كما لو كان يبحث عنها في عتمة عينيه . ثم فتح شفتين تتمكزان على ابتسامة مائلة وهتف : «يا الـllllllllله . . قدّيش الفرعونة حلوة» .

حرك أصابعه في الهواء في مساحات محسوبة . تشكلت أمام وليد هيئة الملكة مثل ظل من وهم أبيض أبدعته أنامل نحات كفيف . امتشقت قامة الملكة في الفضاء ، ولمت تفاصيل جسدها الرخامي . وما إن انتهى محمد من نحت جسدها بدهان من ذاكرته ، حتى راحت الملكة الجميلة تتمشى عارية أمام الصديقين . تستعرض جسدها العاجي وتقدم ملامحها النوبية ، كما كانت تفعل أمام فراش الملك الشاب قبل آلاف السنين .

فجأة توقف وليد . تسمّرت قدماه في الأرض . صرخ : «أنت نحات مدهش يا محمد . .كأنها هيّ بالزّبط . . لوعْدَك لمّا ارجع من مصر ، أجيب لك تمثال كبير لنفره تيتي ، وتشوف مين أحسن ، اللي رح أجيبه والا تمثالك» .

وضحك الصديقان معا ، مستمتعين بلعبة نحت في الهواء الطلق .

٥

ودّع وليد صديقه وتابع طريقه الى الحارة المقابلة في الجهة الأخرى من الزقاق . عند الزاوية التقى بماسح الأحذية المصاب بالصرع ، محمد ابن فتحيّة المصرية وعدنان البدرساوي ، أشهر لص دجاج في الحارة . ما إن تختفي دجاجة ولا تعود مساء إلى قنها ، حتى يظهر ريشها صبيحة اليوم التالي أمام باب بيت عدنان ، وقد ألقت به زوجته ، معلنة عن وجبة غداء من لحم دجاج مسروق .

اعتاد محمد أن يجلس في مثل هذا الوقت ، على كرسيه القش الصغير خلف صندوق دهان الأحذية ، يراقب أقدام المارة ويتأمل أحذيتهم ، لاعنا كل من وضع صندلا في قدميه ، أو فكّر في أن يفعل ذلك في أي يوم آخر ، حتى لو كان قيظ الصيف يذيب لحم أصابعه .

كان معجبا بحذاء صبحي التبريصي (زميل دراسة قديم لوليد) ، حتى كاد يقع في غرامه أكثر من مرة . كان يقول : «كندرة صبحي صغيرة ومكتّكتة وحتى بريئة زي كندرة ولد صغير» . وكان يحقد ، بالمقابل ، على شاب يدعى فتحي السنوار ، ويلعن اليوم الذي يأتيه فيه طالبا تنظيف حذائه وتلميعه بالدهان . لم يكن فتحي يضع على صندوق محمد فردتي حذاء فقط ، بل زورقين طويلين لكل منهما بطن منتفخ على جانبيه .

ترك محمد المدرسة حين بلغ التاسعة من عمره ، ولم يكن قد أنهى صفه الثالث الابتدائي . ومنذ ذلك الحين ، وهو يعمل ماسحا للأحذية

ليضيف قروشا إلى ما كان يحصل عليه والده من عمله الموسمي في الفلاحة .

حين كانت تداهمه نوبة صرع ، كان محمد يغيب في رعشات جسده . وكان فمه يقذف أمواجا صغيرة من زبد يتجمع حول شفتيه . يسرع الى المكان «خبراء الصرع» من المارة ويتحلقون حوله . يتقدم أحدهم ويغرس سكينا في الأرض قرب رأس محمد . يسمع الجمع صراخ الشياطين التي تتلبسه ، ويراقبون ظلال موتها التدريجي على ملامحه ، وأرواحها وهي تندفع متسلقة الزبد الذي يغطي شفتيه . وحين تزول النوبة ساحبة معها أعراضها ، يزول خبراء الصرع ساحبين معهم شعائرهم وطقوسهم . يستعيد محمد وعيا قلقا شديد الالتباس ، ولا يعود قادرا على تفسير ما علق بشفتيه من رذاذ رطب ، ولا مصدر التراب الذي علق بملابسه ، ولا حتى سبب وجود كرسيه الصغير ملقى بعيدا عنه .

وقف وليد قبالة محمد وقد سبقته فردة حذائه اليمنى إلى الصندوق . رفع محمد نظره عن الحذاء . تأمل صاحبه قليلا وقال بأسف لا يخلو من اعتبار : «مسافر يا صاحبي؟ عارف .. بدّي ألمّع لك كندرتك واخلّيها زي المراية .. بس تلبس بدلتك الخضرا الفاقعة زي مذيعين التلفزيون المصري ، رح تلحقك كل بنات القاهرة .. مد رجلك يا استاذ وليد .. هذي المرّة هدية مني بمناسبة السفر ورجوعك ع الجامعة» .

تركه وليد يفعل . وحين انتهى من تلميع الحذاء ، نهض محمد مودعا . عانقه وليد بحرارة ، وترك له فوق الصندوق قطعة نقود فضية من فئة الخمسة قروش ، وابتعد عازما على لقاء آخر الأصدقاء في قائمة الغاميد الثلاثة .

٦

كان محمد سمورة ، الترزي الكسول ، الذي انتهى شرطيا يركض خلف لصوص المخيم ، عائدا من عمله حين التقاه وليد عند عتبة المساء .

كان يعرف أن محمد لن يفوّت جلسة ثرثرة سريعة بعد العمل أمام دكان جابر ريان الصغير . هناك يفرغ بعض قصص بطولته في ملاحقة اللصوص والقبض على الخطرين منهم ، حيث يستمع اليه جمع من الشبان الكسالى ، الذين يمضون عطلة نصف السنة الدراسية في تقليب حكاياتهم ومغامراتهم العاطفية الفاشلة على امتداد النهار وقسم من الليل .

حين لمح وليد قادما ، استأذن محمد الجمع ومضى يستقبله . تصافح الشابان وسارا معا بضع خطوات ، تبادلا خلالها كلمات قليلة . كان محمد كمن أنهى ما في جعبته من حكايات . وكان وليد بدوره ، راغبا في العودة الى البيت ، لترتيب ملابسه التي غسلتها أمه في الصباح ، ووضعها مع ما ابتاعه من السوق في حقيبة السفر .

ودع وليد محمد الذي واصل طريقه نحو المخيم الفوقاني خلف مدرسة مصطفى حافظ الابتدائية ، وعاد سريعا الى البيت .

كان محمد سمورة ، الوحيد من بين الأصدقاء القدامى الذي عرف وليد ، في السنوات الأخيرة فقط ، شيئا عن حياته . قيل إنه لم يعد الشرطي الذي عرفه قبل أكثر من أربعين عاما . فقد بدأ يتلقى الترقيات

بشكل ثابت . يعلق الشريط الأبيض الى جانب الشريط على ذراعه اليمنى تحت الكتف مباشرة ، ويتبختر في الشوارع مزهوا ، يطوّح بقوة ذراعا زينتها الأشرطة . وفي السنة الأولى من قيام السلطة الفلسطينية التي ترأسها ياسر عرفات في عام ١٩٩٤ ، التحق محمد بجهاز الأمن الوقائي ونال رتبة ملازم ثان . تسلم زيّ ضابط عسكري . علق على كتفيه نجمتين نحاسيتين ، وكافأ نفسه بزوجة ثانية احتفاء بالرتبة .

وما قيل أيضا ، إن زوجته الجديدة ، هي التي كانت تنظف حذاءه وتلمعه قبل أن يستيقظ في الصباح . ثم تفرك النجمتين بقشر الليمون كي تتلألأ على كتفي زوجها النهار كله .

بعد عامين آخرين من عمر السلطة ، قفز محمد الى رتبة عقيد . وقام الرئيس عرفات بنفسه بوضع شارات الرتبة الجديدة على كتفيه ، وقلّده وسام الشرف من الدرجة الأولى . فقد قتل محمد بمسدسه الشخصي ، ثلاثة عملاء متعاونين مع إسرائيل في عملية جريئة كادت تودي بحياته . ليس هذا وحسب ، بل وقام أيضا ، باعتقال مئة عنصر ينتمون إلى منظمات إسلامية معارضة ، أودعهم سجن غزة المركزي ، وقدم للرئيس كشفا بأسمائهم . وكان أول ما فكّر به العقيد في طريق عودته الى البيت ، بعد انتهاء مراسم الترقية ، هو الزواج من امرأتين أخريين دفعة واحدة ، كما كان يفعل السلاطين الأوائل . زواج قال عنه إنه يليق برتبته الجديدة وينسجم مع أحكام الشريعة . لكن زوجتيه اللتين لم تعرف علاقتهما سوى الحسد والغيرة والتنافس والنكد مثل أي منظمتين فلسطينيتين ، اتحدتا فجأة وتآمرتا عليه . تقدمتا سرا ، بشكوى رسمية موحدة ، تطالب السلطة أن توقف العقيد الجديد ، «أبو عينين زايغه» ، (كما ورد حرفيا في الشكوى) ، عند حده .

استدعى عرفات العقيد ووبّخه علنا في حضور عدد من كبار

المسؤولين والضباط والقادة العسكريين من مختلف الأجهزة الأمنية ، صارخا في وجهه : «إيه يا محمد... أنا رئيس السلطة والقائد العام ، اللي بعد ثلاثين سنه من زواج الثورة ، واحدة ما فيش غيرها ، كلكو عارفينها ، وانت عايز اربعة!! إنت بتزايد عليّ وعلى رفاقك يا سيادة العقيد؟!».

ثم أصدر قرارا يمنع زواج العسكريين من أكثر من امرأة الا بمرسوم رئاسي . يخضع للقرار ضباط قوات الشرطة والأمن ، الوقائي منه والرئاسي ، وبقية التشكيلات العسكرية الأخرى مجهولة العدد . يسري مفعول القرار في جميع أراضي السلطة الفلسطينية الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة .

أما العقيد المزواج ، فلم يثنه ذلك عن انتقاد الرئيس . وصار يعلق في كل اجتماع أو سهرة أو لقاء يحضره أو يدعى اليه ، «أن عرفات يحسده على زوجاته» ، ولا يتردد في القول : «إنما الرئيس مش قادر يتجوز غير ستهم هو هم ... أنا ما بيكفينيش لا مرة ولا اتنين!» . وكان يحلف من دون أن يطالبه أحد بذلك : «والله لو صح لعرفات لتجوز عشر نسوان ، لكل واحدة منهن مقر في منظمة فلسطينية ، وأعلن على الملأ أن تبنيه السياسي المريض فرضه لتوحيد السلطة ومنظمة التحرير» .

٧

وقف وليد عند زاوية بيتهم المطلّة على وسط الحارة . أخذ يراقب الشمس تنحدر بعيدا ، ساحبة معها لحظات نهاره الأخير ، الى أن توارت خلف التلال الرملية الصفراء . تخيّلها هناك قد أسندت رأسها على حافة الأفق ، قبل أن تغطس في عمق البحر نائمة ، بينما تذوب ملامح المخيم والمدينة في الظلام الزاحف على الجميع . اليوم لم يعد ممكنا حتى تخيل ذلك ، لأن اليهود في مستوطنات قطيف ، يخطفون الشمس بفستانها البرتقالي الذي تلبسه لحظة احتضار النهار ، كأنها تستعد لسهرة ما في جهة أخرى من العالم . يجرها المستوطنون من خيوط أشعتها كما تُجرّ عين من رموشها ، ويأخذونها لتبيت عندهم . وعندما ينتشر الظلام ، ينزلون قوارب الصيد الى الماء ويقطفون ثمار البحر . وعند الفجر ، يتركون الشمس تشرق على خان يونس ضعيفة تغطي وجهها هالة خجل من اغتصاب يومي لا تستطيع ردّه عن نفسها .

أنيرت الأضواء في شوارع المدينة ، فبدت وكأنها استيقظت للتو من قيلولة تأخرت حتى المساء ، ومعها استيقظت ظلال الأماكن والأشياء التي نبتت في ضوء المصابيح الكهربائية .

مشى وليد حتى بلغ زاوية الشارع المقابلة لدكان جابر ريان ، ووقف هناك تحت عمود الكهرباء ينتظر سعيد حسب موعدهما .

أخذ يتأمل الكواكب والنجوم باندهاش . وهناك في السماء البعيدة ، رأى نورا فضيا يفترش الساحة بين نجمات كوكبة الدب الأصغر ، تسبح

فيه ملامح وجه أبيه . قال إن أباه أدرك براءته . تذكر يوم أعلنت أمه ذلك .

كانت والدته تنظّف ساحة البيت من الغبار ، بمكنسة من جريد النخيل ، حين دخل البيت جده أبو ، وزف اليها خبر براءة أبيه . وأخبرها أن الشرطة احتجزت مدير مركز التموين ، خميس السوافيري ، ووجهت له تهمة سرقة بقج الملابس . «اعترف خميس بالتهمة وما قدرش ينكر . وأكثر من هيك ، اتهموه إنه بيهرب اكياس طحين في شاحنات ، بالاتفاق مع بعض الموظفين وبيبيعها بالجملة بالسّر في السوق لتجار بيعرفهم في غزة» .

أطلقت أم وليد زغرودة فتحت ثغر السماء . وسمع وليد (وكان وسط أصدقاء له في الحارة) زغرودة أمه ، وكان لها رنين يختلف عن كل الزغاريد . كانت أمه الوحيدة بين نساء المخيم التي تقسّم زغرودتها على أربع وجبات ، ولم يسبق لها أن أطلقتها دفعة واحدة : لولولولولييييي . . لولولولولييييي . . لولولولولييييي . . لولولولولييي .

ترك وليد أصدقاءه وتبع وقع الزغاريد فقادته إلى البيت . حين وصل ، وجد والدته واقفة أمام باب البيت ، ظهرها يستند إليه ، ذراعاها مرفوعان بالدعاء ، صدرها مفتوح يلم تهاني المارة من الجيران ، ويجمع كلماتهم الطيبة .

ألقى وليد بنفسه على صدر أمه ، وأخذ يشدها اليه بقوة ، ويقبل رأسها وكتفيها ويديها . وشدّته هي إلى صدرها وأغرقت وجهه بدموع فرحتها .

«مرحبا وليد . . ع الموعد بالتمام» .

أعاد صوت سعيد المفاجئ وليدا الى حقيقة انتظاره ، ولم يكد ينتهي من رد تحيته ، حتى كان فوزي عاشور ، قد أضاف تحيته الى صديقيه الآخرين .

٨

كان فوزي قصيرا ، ممتلئ الجسد قليلا ، ذا ملامح دقيقة ووجه مستدير مثل برتقالة بلنسيّة ، وبشرة تفاحية اللون .

كان يعمل على نول للنسيج اليدوي ، وكانت أحلامه كثيرا ما تأخذه في سفر بعيد إلى ما وراء صوت النول بكثير . كان يحلم بكبرياء ، أن يخلف مارلون براندو في عرشه السينمائي ذات يوم . يحلف أيمانا غلاظا ، أنه لو أسندت إليه بطولة فيلم «يوليوس قيصر» ، لأدى الدور ببراعة لا تقل عن براندو .

لكن فوزي كان يهبط ، أحيانا ، من بيفرلي هلز إلى استوديوهات السينما في القاهرة ، ويتواضع الى حد القبول بمكانة شكري سرحان في السينما المصرية . كان عاشقا مجنونا للسينما . وكان إذا قلّد مشهدا أداه سرحان ، حضر سعيد مهران من «اللص والكلاب» ، وغاب فوزي عاشور في ملامحه . حين كان يفعل ذلك في حضور صديقيه ، (وكثيرا ما كان يفعل) ، كان سعيد يقفز من مكانه ، ويهدّده بيده التي تشبه بندقية ايطالية قديمة صارخا : «سعيد مهران . . سلّم نفسك» .

سهر الأصدقاء الثلاثة يدخنون على وقع حكايات سعيد المملّحة والمبهرة بأكاذيب ملونة . حدّثهم عن سميرة دوغان ، وكيف كانت تترك نافذة غرفتها مفتوحة كل مساء لكي يتسلل إبراهيم حرب ، (كان مدرسا للغة العربية في مدرسة مصطفى حافظ الإعدادية للبنين) ، إلى زقاق بيتهم ، ويسقط لها عبر النافذة رسالة غرامية . وذكّرهم بالوردة الجورية

الحمراء التي ألقاها إبراهيم من النافذة ذات مساء ، ودار همس كثير حولها . وقال إنها ظلت معلقة بشعر سميرة مدة شهر كامل محتفظة بنضارتها» .

قال فوزي مزايدا : «عليّ الطلاق بالثلاثة إنّي كل ما أمر من ورا بيت دوغام بشم ريحة الوردة» . وأخذ يستنشق هواء كاذبا من منخرين لا يشمان لرائحة وردة .

وقبل أن ينتهي سعيد من سرد حكاية سميرة ، اتفق الأصدقاء الثلاثة على أن والدها ، الحاج عمر دوغان ، كان سيذبحها بسكين صدئة لو عرف حكايتها التي يعرفها نصف المخيم على الأقل . وقد يفعل بها ما فعله محمود أبو حية بشقيقته مروة .

وتدخل وليد قائلا إن قصة محمود أبو حية مختلفة كثيرا . وإن محمود ذبح مروة أمام أنظار الجميع غسلا للعار . وإن سميرة لا تستحق الذبح ، بل يكفي ضربها كفين على وجهها وعشر عصي على قفاها حتى تتوب وتتراجع عن فعلتها .

مرّ الشيخ مؤمن عبد العال ، قاضي المحكمة الشرعية ، يرفل في جبّته الواسعة كلمة تاجر . وكان عائدا من جامع المخيم القريب بعد صلاة العشاء . أطلق سعيد وفوزي ضحكات خافتة . تنحنح الشيخ ، لافتا أنظار الشبان الثلاثة إلى تحيته التي ألقاها بوقار تقليدي . رد ثلاثتهم بأحسن منها . وما إن ابتعد الشيخ قليلا ، حتى انفجر سعيد في ضحك علني استمر لحظات ، وانتهى بكلمات ساخرة : «قال قاضي وشيخ قال . . وأزهري كمان . . عيني يا عيني . . يا هيك المشيخة يا بلاش» .

«ع إيش مستخسخ م الضحك يا سعيد؟» .

سأل وليد معاتبا .

«أصلك ما بتعرفش قصة الشيخ ، طول عمرك طيّب وعلى نياتك» .

أجابه فوزي ، وأضاف بخبث : «اسمع .. خللي سعيد يحكي لك إياها .. القصة صارت وانت في مصر ، وأكيد معكيش خبرها» .

وروى سعيد ما قيل إنها قصة الشيخ . فقال إن صبحة القرآن نامت مع علي وافي في بيت ذويه الواقع في حـارة العـقـاد ، وإن عليّ فضّ بكارتها . وإنها تسللت خارج البيت بعد فعلتها على عجل وقد نسيت لباسها الداخلي . وحين فكّرت في العودة لإحضاره ، خافت من انكشاف سرها وانتشار الفضيحة .

اعترض فوزي كلام سعيد مناكفا بمزاح : «أصلا صبحة كانت من غير لباس . . . هاهاها . .» .

أثار ذلك غضب وليد «أصلا انتو لاثنين قليلين حيا . .نازلين تقطيع في سيرة الناس» .

تجاهل سعيد ملاحظة وليد ، والتفت إلى فوزي يسأله : «وأنت يا حبيبي إيش عرّفك إنها من غير لباس ها . . جاوبني! شلّحتها ثيابها حضرة جنابك؟» .

وضع فوزي على شفتيه الرفيعتين ، ابتسامة لئيمة علقت بهما بصعوبة لبرهة ، قال بعدها بلهجة الواثق : «التعلق يا بو السعود . . التعلق لا يعلى عليه . . صبحة من عيلة فقيرة وأبوها ع الحديدة ، ولو مانت ما بيشتري لها لباس ولا حتى لإمها اللي بينام معها كل يوم . . عيلة القرآن عيلة من غير الباسات . . ها ها ها» .

تابع سعيد روايته ، غير عابئ لغضب وليد أو لاعتراض فوزي وطروحاته وضحكاته الساخرة ، فقال إن صبحة هربت من بيت ذويها بعد الواقعة بأيام . فالحتها والدتها بنيتها ووالدها عقد قرانها على ابن عمها ياسر . رفضت صبحة الزواج خشية أن يكتشف ياسر الحقيقة . وتعللت بأنها ترغب في إنهاء دراستها الثانوية وكانت في سنتها قبل الأخيرة . ولّا

أصر والدها على المضي في ترتيبات الزواج ، بل وأبلغها والدها أنه اتفق مع شقيقه والد العريس على كل التفاصيل ، هربت الى بيت القاضي الشيخ مؤمن عبد العال في حارة الأغا . أطنبت عليه قائلة برجاء ، «في عرضك يا شيخ حارس . . أهلي بدهم يجوزوني ابن عمي بالقوة وأني ما بديش . . وخايفة ليذبحوني» . وقال سعيد أيضا ، إن الشيخ ، (الذي دعا له ، كذبا ، بالرزق وطول العمر ، ومدح موقفه النبيل والشريف) ، أخذ صبحة في حضنه كما يأخذ الأب ابنته ، (مع أنه لم يرزق ببنات أصلا) . وأقنع والديها ببقائها في بيته بين أفراد عائلته لفترة تمكنه من إقناعها بالعدول عن رأيها .

طالت فترة اللجوء ، وامتدت لأكثر من ثلاثة شهور ، ظهرت بعدها أعراض الحمل على صبحة ، ولم يتمكن أحد من معرفة ما إذا كان ما تحمله في بطنها ، من صلب علي الذي فض بكارتها ، أم من ظهر الشيخ الأزهري الذي وسع الطريق من بعده .

لم يصدّق الناس نهر الكلام الذي جرى في أزقة المخيم وحارات المدينة وفاض بالقيل والقال ، عن علاقة للشيخ مؤمن بصبحة ، إلا بعدما أعلن الشيخ مؤمن بنفسه ، بعد أربعة شهور على لجوئها إليه في بيته ، عن زواجه منها شرعا ، واضعا الجميع ، عائلته ووالديها وأقاربها وسكان المدينة ومخيماتها ، أمام حقيقة أن صبحة صارت زوجته على سنة الله ورسوله . وقال ، على حد قول سعيد ، إن في ذلك حلا عمليا وواقعيا لمشكلة صبحة . وإنه حل شرعي محمود . ولم يجرؤ والدها على الاعتراض على الزواج .

غيّر الناس ، الذين شبعوا من سيرة صبحة وعلي ، مواقفهم ، وصاروا يدعون للشيخ ، (الذي عمل بالستر الذي أمرت به العقيدة) ، وأخذوا يؤكدون كلما أتى أحد على سيرته ، أن له أجرا عظيما عند الله .

أطفئت أضواء المدينة من دون أن تنطفئ ثرثرة سعيد ، إلا بعد أن بادر وليد الى تذكير صديقيه بأنه مسافر في الصباح ، وأن عليه أن يستيقظ باكرا .

كان الليل قد انتصف ، وذابت ملامح المدينة والمخيمات والشوارع والأزقة في العتمة التي لونت ليلهم ، حين ودّع الأصدقاء الثلاثة بعضهم عناقا ، ثم تسلل كل منهم ينبش بعينيه الظلام بحثا عن طريق آمن الى بيته .

٩

في الصباح ، تناول وليد على عجل ، فطورا أعدته أمه بعد أن انتهت من أداء صلاة الفجر . قبل شقيقته رجاء ، البالغة من العمر تسع سنوات وودعها . حمل حقيبته الجلدية وخرج ترافقه أمه الى حيث كانت تنتظره سيارة أجرة . وضع الحقيبة في صندوق السيارة ، ثم استدار نحو أمه وعانقها مودعا ، ومضت به السيارة مبتعدة ، ولم تزل عيناه معلقتين بوجه أمه الذي ظل يتأرجح عبر زجاج السيارة الخلفي ، بينما طرف شالها معلق بين أصابعها مثل راية فراق ترفرف قبل أن تتلاشى صورتها في البعيد ، ولا يظل منها سوى كلمات أخيرة ترن في أذنيه : «تروح وترجع النا بالسلامة يمه» .

وأخذ القطار وليد دهمان الى القاهرة عبر صحراء سيناء ، في رحلة على الدرجة الثالثة استغرقت تسع ساعات عله ، ست منها معفرة بتراب الصحراء .

وكانت تلك رحلته الأخيرة ، ولم يعد .

غدا يعود .



ربعي المدهون

السيّدة من تلّ أبيب

דאנה אהובה



هذا النص مهدى إلى زوجتي سناء
وإلى شخصياته : وليد نعمان ووالدته آمنة ، ودانا آموفا ، وعادل البشيتي ، وبوريس ابراموفيتش ، ونور الدين ، الذين عاشوا معنا ثلاث سنوات كاملة .

الفصل الأول

هـــو

ألقي بحقيبة الكتف الصغيرة على الرف . آتخذ مكاني على المقعد B في الصف رقم ١٩ ، في طائرة الخطوط الجوية البريطانية ، في الرحلة رقم ١٥٣ الى مطار تل - أبيب . من المتوقع أن تهبط الطائرة في السابعة صباحا بالتوقيت المحلي .

لم يعد يشغلني قلق أمي وشكها في حقيقة عودتي . فكلاهما بدأ يتحول الى انتظار تذوب ساعاته في الليل الأخذ في الابتعاد في ليله . ولا بد أنها تستسلم ، الآن ، لنوم متقلب مثل مشاعرها .

الساعة تقارب الحادية عشرة والربع ، أي الواحدة والربع بتوقيت فلسطين . سأكون عند أمي في الصباح . سأقول لها وأنا أستعيد طفولتي على صدرها : «صدّقت به . . هذني اجيت» . ونجلس إلى طبلية الطعام . ثمانية وثلاثون عاما ونحن نحلم ، منفردين ، أن نجلس ونتناول فطورنا معا .

يمرّ ركاب بمحاذاتي ويتخذون أماكنهم تباعا . يواصل آخرون البحث عن مقاعدهم ، في الممر الثاني في الجهة الأخرى من الطائرة .

أتفحص بعيني الركاب واحدا تلو الآخر . يقلقني صمت من سيحتل المقعد المجاور لي لصق الشباك؟ . أتفحص بين وجوه تتقلب أمامي مثل مقامات كتاب خطّت بلغات مختلفة ، من جاري المنتظر، جاري الذي سيكون ، في أغلب الأحوال ، يهوديا . أتمنى لو أن احتلت مكاني ، وكتبي

أول الداخلين الى الطائرة ، والكلام المسموع والهامس ، وربما المفكر به أيضا ، يؤكد ذلك الاحتمال .

بإمكاني أن أتجاهل السؤال ومعه جاري المتوقع أيضا . أسند ظهري إلى المقعد وأستسلم ليقظة على حافة النوم . بإمكاني مشاهدة ما سيعرض من أفلام حال استقرار الطائرة على خط سيرها الوهمي . وبإمكاني أيضا ، القراءة ، وقد يكون ذلك أفضل الخيارات فعلا . حقا ، لدي ما يستحق القراءة فعلا : رواية الفرنسي يان كيفيليك ، «العرس الوحشي» التي أحضرتها معي . انتهيت أمس من قراءة مائة صفحة منها . إنها تنتظرني ، الآن ، حيث وضعتها الى جانب لشال نفره تيتي في الحقيبة الصغيرة على الرف . رافقني التمثال طوال غربتي ثمانية وثلاثين عاما وعايش مراحلها . اليوم يعود معي باحثا عن ماضيه مثلي . كنت اشتريته من بائع تحف أثرية وهدايا تذكارية في سوق خان الخليلي في القاهرة . ولم أتوقف طيلة عشرات السنين عن استحضاره ، كلما زارني طيف محمد خديجة ، والتحدث إليه .

ستكون متابعة تطور شخصية لودفيك الصغير وتقلباتها الجنونية متعة . لودو الذي قلقته إلى عالم أمه ، الفرنسية الصغيرة نيكول ، رشقات وحشية من ظهر أحد ثلاثة بحارة أميركيين ، أطلقوا دفقات سائلة هلامية ، من رشاشاتهم الخليفة في فرجها الصغير . وجعلوا من اغتصابها انتصارا أميركيا احتفلوا به . وجاء لودو «نحيلا ، طويل الأطراف ، ضامر الوجه ، مهدل الكتفين ، بارز عضلات الذراعين» ، ورأت أمه فيه ملامح الخطيئة . نبذته نيكول كأنه ابن امرأة أخرى لم تلتق بها من قبل .

لم أتفقد لشال نفره تيتي ولم أتناول الرواية من الحقيبة . لكني قد أفعل لاحقا ، إن لم يجلس إلى جانبي جار فضولي ، أو جارة ثرثارة تطلب ثرثرة مقابلة . يحدث هذا أحيانا ، وإن حدث فعلا ، فسوف أعتذر من لودو

حتى انتهاء الثرثرة . لكني لن أكون قادرا على الاعتذار من جار قد يطرح عليّ السؤال الأصعب ، «من أين أنت؟» ، وأنا لم افكر ، حتى اللحظة على الأقل ، كيف أرد على السؤال .

يعاودني قلق أصعب من القلق : «حقا من أين أنا؟» .

لم يسبق لي أن وضعت في ظرف كهذا . فهذه هي رحلتي الأولى إلى اسرائيل . ولم يسبق لي أن قمت برحلة في طائرة كان ركابها ، أو أغلبهم على الأقل ، من اليهود . غير أن يهوديا طرح علي السؤال ذات يوم في أحد قطارات الأنفاق ، خلال رحلة صباحية عادية إلى عملي في وسط لندن .

صعد إلى عربة القطار من محطة «أكتون» ، على خط «بيكاديللي» ، الذي يقطع المدينة من مطار هيثرو غربا حتى محطة «كوك فوستر» شمالا ، رجل يقارب السبعين من عمره . تتدلى أمام أذنيه جديلتان مفتولتان مثل شرائح معكرونة لولبية . على رأسه قبعة سوداء تبدو ملتصقة به منذ الولادة . كان يلبس قميصا أبيض وبنطالا أسود ، ويلفّ جسده النحيل بمعطف أسود أيضا . فبدا مثل طائر بطريق في يوم بارد ، وكان الوقت صيفا .

ابتسم الرجل من دون أن يخصّ أحدا من الركاب بابتسامته ، لكنه خصّني بجبيرة مؤقتة إلى يساري . وما ان غادر القطار المحطة ، حتى بدأ جاري ، يقرأ على نحو مفاجئ ، بصوت مسموع من كتاب فتحه بين يديه . ويطلق همهمات وانتمات ، مطوحا جذعه إلى الأمام وإلى الخلف ، بخلاف من يتلون القرآن ويطوحون جذوعهم إلى الجانبين .

لم أُعره اهتماما في البداية . ولم أقرأ في وجوه الركاب المشغلين بأنفسهم ، تعبيرا واحدا عن ضيق صامت . ولم يطلق أي منهم احتجاجا علنيا على ما يفعله الرجل ، غير أن خبطة قوية مفاجئة هزّت سطح عربة

القطار تحت أقدامنا ، تبعتها أخرى فتخلى الجميع عن لامبالاته ، وتبادلوا نظرات ملؤها الدهشة ، وشيئا فشيئا استفسارات صامتة بلهاء ساخرة .

التفتُ إلى جاري بدافع فضولي الشخصي . كانت قدمه تواصل خبط أرض العربة بحنق في مسافات زمنية متساوية تقريبا ، بينما يواصل هو القراءة ، ويطوّح جذعه مثل عصفور ساعة حائط قديمة ينقر الزمن عند منتصف الليل .

فجأة ، توقف الرجل عن القراءة . توقف خبط قدمه . تلفّت حوله كمن يبحث في ملامحنا عن سر دهشتنا . استقر نظره عليّ . حملق فيّ بدهشة بدت لي غير ضرورية ، وسألني : «السفاليتي؟»

حركت رأسي في الاتجاهين نافيا .

ابتسم من دون أن يتخلى عن دهشته ، وعاد يسأل : «يهودي؟» . ولم ينتظر إجابتي ، بل وضع سبابة يده اليمنى على سطر في الصفحة اليسرى من الكتاب ، وبدأ يقرأ ما يقع تحت إصبعه الزاحفة على السطور .

استوقفته ممسكا بمعصمه برفق : «معذرة يا سيدي ، أنا لا أتكلم العبرية جيدا» .

أيقظت كلماتي في الرجل فضولا إضافيا ، وبدا له اعتذاري كاذبا ، إذ قلته بعبرية سليمة : «سليحا أدوني .. أني لو مدابير عفريت طوف» . هكذا نحن دائما ، نعتذر عن عدم معرفتنا بلغة ما ، بكلمات صحيحة ننطقها بلكنة يحسدنا عليها أهلها

شجع ذلك جاري على متابعة أسئلته : «مصري؟» .

نفيت بهزة رأسي أخرى أن أكون مصريا . وخمّنت أن يكون الرجل قد افترض أن اتفاقات كامب ديفيد التي وقعت بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٧ ، علمت المصريين بعض العبرية حتى فتني منهم .

استدار بجسده النحيل كله نحوي : «ولكن من أين أنت؟» .

قررت أن أنهي حيرته : «أني فلسطيني» .

هتف ببراءة طفل وابتهال حكيم : «آه!!! ... أنا فلسطيني ، فلسطيني!»

وانطلق يحدثني بالعبرية ، التي فهمت منها بصعوبة ، ما يفيد بأنه ذاهب إلى بيت ابن له ، يصطحبه ويذهبان معا للصلاة في كنيس ، وأنه سيصلي من أجلي وأجله ، وأنه يحب الفلسطينيين ويكره الحرب .

توقف القطار عند محطة «فرين بارك» . طوى عابر الطريق الكتاب ونهض بحيوية واقترب من الباب . وقبل أن يهبط ، التفت إليّ ولم تزل ابتسامة أكبر من حجم شفتيه عالقة بينهما ، وهتف : «شلوم» .

وهتفت : «سلام»

يتقدم عبر ردهة الطائرة ، رجل متوسط القامة نحيل الجسد ، ذو لحية مصبوغة حمراء تشبه لحية التيس الذي رباه جدي ذات يوم . يتجاوزني الرجل ويمضي . الرسينة في مقتبل العمر ، تلبس بنطالا من الجينز وبلوزة سماوية ، تركت اثنين من أزرارها العلوية مفتوحين يكشفان عن منحدر بين نهدين نامت في واديهما نجمة سداسية ، وتبتعد .

فجأة يظهر شاب في العشرينات من عمره . أخمّن أن يكون فلاشيا ، هاجرت أسرته من إثيوبيا إلى إسرائيل ، عبر السودان ، في إطار الصفقة السرية التي تمت في عهد الرئيس جعفر نميري ، وتدفقت على مرحلتين عامي ١٩٨٤ ، و١٩٩١ . أتمنى ألا يجلس الشاب إلى جانبي حتى لا أعيش الساعات الخمس التالية في قلق ، فحيرة كهذه سوف تفتح أسئلة الصراع كله ، وليس لديّ رغبة من أيّ نوع في طرح مشكلة الشرق الأوسط على متن طائرة مع فلاشي . يتجاوزني الشاب . ينتصر الشكّ على التوقعات وأرتاح .

تأخذ مكانه في الطابور الزاحف نحو المقاعد الخلفية سيدة عجوز .

«أن تكون هذه المرأة جارتي ، ليس أمرا مسليا على الإطلاق ، لكنه قد لا يكون مزعجا . . . » .

يقطع همسي صراخ طفلة ينطلق من بين مقاعد الممر الآخر في الطائرة ، تطلب من أمها الجلوس في مقعد معيّن : «روتسيه يشيفوت يو إما» . تحاول المرأة ، التي لا أستطيع أن أتبينها هي أو ابنتها من مقعدي ، إفهام الصغيرة بأن ما تطلبه ليس المقعد المخصص لها : «زي لو هكيسه شيلاخ» . تواصل الطفلة احتجاجها مكررة طلبها : «أريد الجلوس هنا» . وأسمع دق قبضتين صغيرتين على مسندي مقعد لا أراه ، بينما الصوت يتواصل متقطعا : «روتسيه يشيفوت يو» .

أترك الخلاف الدائر على المقاعد لمضيفة حضرت لحله ، وأعود إلى الركاب الذين يواصلون المرور من تحت تأملاتي . أتمنى هذا ولا أتمنى ذاك ، كأنني من سيحدد الجار وشكله وحتى أفكاره ، المحتمل منها وما لا يمكن احتماله .

تتقدم سيدة في العقد السادس من عمرها وتتجاوزني . ثم شاب ذو ملامح عربية افريقية ، يقرأ الأرقام فوق رأسي . تقلقني قراءته . يواصل تقدمه مفسحا الممر أمام آخر ضخم يبدو في العقد الخامس من عمره . يتقدم الآخر لاهثا كما لو كان يجر جسدا لغيره . يتأبط كتابا ذا غلاف أسود . يضع نظارتين سميكتين على عينيه . أراقبه بفضول ، يأخذ مكانه في المقعد الأول في مجموعة مقاعد الوسط ، في الصف الذي يليني مباشرة . أهمس مازحا نفسي ، وقد خمّنت أن [illegible] كتاب [illegible] : «انشا الله ما يحرق أرض [illegible] وهوّ يقرا مثل [illegible]» .

تقترب مني سيدة تقارب السبعين ، تتوقف إلى جانبي [illegible] ولا تنظر إلى أرقام المقاعد فوق رأسي . من خلفها تظهر فجأة ، امرأة [illegible] تبدو في الثلاثينات من عمرها . [illegible] ظهورها بالكفّ عن [illegible]

وإرجاء جميع حساباتي السابقة مؤقتا .

أتمنى أن تجلس الجميلة في المقعد المجاور لي . أكرر التمني مرات مثل دعاء ، غير مكترث لما قد تلقيه عليّ من أسئلة ، ولا لمخاوفي وتحفظاتي التي أصبحتُ مستعدا لأن أبعث بها في رحلة سعيدة إلى الجحيم .

تبدي الجميلة ، وقد تجمّدت نظراتي في الطريق إليها ، لهفة في العثور على مقعدها ، حتى قبل أن تخلي لها العجوز الممر أمامها . كأن الطائرة ستقلع من دونها قبل أن تتمكن من الجلوس ، أو أن أحدا سيستولي على مقعدها . إذ تسألني من فوق كتفي العجوز الضيقين بلهفة عاشقة تأخرت عن موعدها : «من فضلك ، هل هذا السطح غشم ١٩؟» .

«نعم يا سيدتي ، ورقم المقعد المجاور هو ٨ هل هو ما تبحثين عنه؟» .

تتقدم العجوز ، ويخلو الممر الى جانبي ، كاشفا عن امرأة نصفها السفلي لا يطيق القماش ، ونصفها العلوي استغنى عنه في أماكن كثيرة .

تستأذنني المرأة بالمرور الى المقعد المجاور لي . «مقعدها إذن . . زَبَطت يا وليد!» .

أنهض مفسحا لها في المجال ، غير مصدق أن هذه الجميلة ستكون رفيقة رحلة ستمتد أكثر من خمس ساعات في أعماق الليل . تغفو إلى جانبي وأوقظها عند الفجر لتصبّح عليه معا ، ولن يزعجني أن نتبادل تحيته بالعبرية : بوكير طوف أدونا . . بوكير طوف أدون .

لكن ما سرّ لهفة هذه المرأة على الجلوس سريعا؟ وأي مصادفة ألقت بها الى جانبي؟ هل يعقل أن يكون ذلك قد تم بترتيب ما؟

أرعبتني تساؤلاتي . عندما تقدمتُ لإنهاء معاملات السفر وتسلم بطاقة الصعود الى الطائرة ، استوقفتني المضيفة الأرضية . وضعت جواز سفري جانبا ، وقالت بارتباك ظاهر : «معذرة يا سيدي . .لقد وقع خطأ في حجز التذاكر ، وتبيّن لنا أن عدد المسافرين يزيد ثلاثة على عدد

المقاعد في الطائرة» .

«وما ذنبي أنا . . لقد حجزت تذكرتي قبل ثلاثة أسابيع» .

قلت . وكنت راغبـا في أن أضـيف الى قـولي ، إنني أنتظر هذه الرحلة منذ ثمانية وثلاثين عاما أيضا . لم تمنحني الفرصة . سارعت لجدد اعتذارها مؤكدة أن الشركة تتحمل المسؤولية . وأنها ستعمل على إيجاد حل سريع للمشكلة . وأن عليّ أن أطمئن ، فإن لم يجدوا لي مقعدا فسوف يضمنون لي مكانا على أول طائرة أخرى تقلع إلى تل أبيب .

«ومتى يكون ذلك؟» .

«أنا آسفة . . أبلغك حالما تردني معلومات» .

قالت ذلك ، وتركت مقعدها وأمامه جواز سفري وبطاقتي واختفت .

أخذ مكانها مضيف آخر شاب . قلّب جواز سفري بين يديه ، ثم أعاده الى مكانه وتابع عمله مع مسافرين آخرين ، وكأن الخطأ مرتبط بي وحدي .

عادت المضيفة وهمست ببضع كلمات في أذن زميلها فضحك ، ثم راحت تساعده في مهمته .

ما الذي جرى في تلك الأثناء ، وتحديدا في الدقائق القليلة التي غابت فيها المضيفة؟ هل رتّب رجال الموساد جلوس هذه الإسرائيلية بالذات في المقعد المجاور لي ، أم أوكلوا ذلك للمضيفة فأنهت كل شيء قبل أن تعود؟ .

أرعبتني هواجسي . وأنا لا يرعبني شيء مثلما ترعبني هواجسي ، فهي من النوع غير المطمئن الذي يصعب التآلف معه .

هذه الجيرة ستكون مصيدة لي . سوف أخضع للمراقبة طيلة

ساعات السفر . ولابد أن جارتي تدربت جيدا على نمط خاص من المراقبة ووسائل استدراج الضحايا . وبعد هبوط الطائرة في مطار بن – غوريون ، سيتولى عنها المهمة عملاء آخرون .

هراء . . بل سذاجة لم أتعوّد عليها . لماذا يفعلون ذلك؟ لست شخصية مهمة تستدعي ملاحقة الموساد . ولست نجيب محفوظ حتى يغيظهم فوزي بجائزة نوبل . ولا أنا بقائد فلسطيني من دعاة انتحار الآخرين ، أو حتى شخصية سياسية تزعجهم هجماته السلمية . بل إنني لا أنتمي الى أي تنظيم فلسطيني أصلا . بل أنا صحافي مثل كثيرين ، وهذا أمر لا يثير القلق الى هذا الحد .

وماذا لو وقع خطأ أحمق كالذي أودى بحياة المغربي أحمد بوشيكي في يوليو ١٩٧٣؟ .

كان بوشيكي ، البالغ من العمر ثلاثين عاما ، يعمل نادلا في مطعم في أوسلو ، عندما اغتالته مجموعة من الموساد ظنًا منها أنه القائد الفلسطيني علي حسن سلامة ، الشهير بـ «أبو حسن» . قُتل بوشيكي في لحظة التباس . أبدا . . لن يكون هناك التباس من أي نوع كان ، فأنا مسافر على مقعد في طائرة ، سوف أمضي فور هبوطها إلى أمن المطار على قدمين واثقتين . هناك سيكونون عاجزين حتى عن التعامل مع التباس محتمل . جنسيتي حقيقية وأقصى ما يستطيعونه هو اعتقالي .

يريحني ذلك لثوان . تلتفت إليّ ساقا جارتي الطويلتان الرمريتان ، وتتبادلان الاحتكاك بنظراتي أثناء مرورها الخاطف إلى مقعدها . يداعبني قلق عادي مقبول ، كأن تكون الميول السياسية لجارتي شارونية ، أو أكثر تطرفا من ميول شارون بقليل .

تلقي جارتي بحقيبة كتف صغيرة بين قدميها ، ثم يجسدها على مقعدها لصق الشباك . تنحني وتتناول من الحقيبة كنزة صوفية رقيقة

زيتونية اللون وبنطالا من مخمل بني فاتح .

تدخل رأسها في الكنزة وتخرجه من فتحة الرقبة ، ثم تشد طرفيها الى أسفل قليلا فوق الكتفين . تدير لي ظهرها وتدفع بذراعيها خلفه بالمقلوب . تفك أزرار بلوزتها من الخلف . تنزل طرفيها عن كتفيها تباعا . تلقي بالبلوزة على الأرض ، وتتركني حائرا أقلب نظراتي بين الدهشة وبعض جسدها الذي يلتمع تحت ضوء المصابيح .

تدخل ذراعها الأيمن ثم الأيسر في كمي كنزتها ، ثم تشد أطرافها إلى أسفل ، إلى أن تستقر حول خصرها . تمد ذراعيها بالمقلوب خلف ظهرها ، وتفك مشبك الحمالتين . تسحب بيدها اليمنى حمالتي صدرها ، وتضع على السند الفاصل بين مقعدينا ، فتشرتي تدبين بحجم برتقالتين يافاويتين .

تنتهي حركة الركاب في الممر ، ولا تنتهي جارتي من مشاهد عرضها السخي . تستبدل تنورتها القصيرة بالبنطال . تدس بلوزتها والتنورة وحمالتي ثدييها في الحقيبة الصغيرة . تمشط شعرها بأصابعها بحركات عفوية ، ثم تلقي بظهرها الى الخلف وترتاح .

أحاول اختبار جارتي بهمس معلن : «كان علي أن أحضر جاكيتة ولو خفيفة ، أو كنزة ماء» .

لا تكترث جارتي لما همست به . ولا أنتبه بدوري ، إلى أنني قد أكون أيقظت لديها شكوكا نائمة حول مراقبتي لها . خمّنت أن تكون ردت عليّ بعبارات غير معلنة ، كأن تقول مثلا متطفّل ، غير مهذب ، أو فضولي ، مع أنني لم أقصد قط أن أبدو من تنطبق عليه أي من تلك الصفات ، بل هي المفاجأة التي قدمت لي تفاصيل لم أعمد إلى قراءتها .

أساءني مجرد التفكير في ذلك ، ووددت لو أجد طريقة لإبعاد اية شكوك عابرة لمشهد عابر .

الفصل الثاني

هـــي

ينتهي بي الأمر كتلة من قلق تجمعت فوق مقعد بلاستيكي في قاعة في المطار ، أنتظر مثل آخرين ، الإعلان عن فتح بوابة الدخول الى الطائرة التي ستقلنا الى تل-أبيب .

أخرج من حقيبتي الصغيرة لوحا كبيرا من الشوكولاته . أنزع بأصابع راجفة طرف غلافه الخارجي الملون ثم الداخلي الرقيق ، وأقتطع مربعا صغيرا عند الزاوية أضعه على لساني ، وأتركه يذوب في فمي مثل حلم بعيد .

لكنني لم أكن أحلم قط ، حين ذهبت للقاء نور الدين في شقة على الطابق السادس ، في عمارة من سبع طوابق في حي «سويس كوتيج» في لندن . تلقيت ، أول من أمس ، وكنت أتابع زيارتي لكاليفورنيا ، رسالة نصيّة على هاتفي الجوال ، تطلب إليّ الحضور الى لندن ، وتحدد لي موعد اللقاء ومكانه . كان اللقاء بالنسبة لي أكثر من مهم . ولو لم أتلق تلك الرسالة ، لسعيت بنفسي إلى ترتيب موعد مع نور الدين بأية طريقة . كنت بحاجة الى رؤيته وإطلاعه على سرّ كبير .

وصلت الى الشقة قرابة الثامنة والنصف . كان المساء دافئا مثل ومضات الأمل التي لم تتخل عنّي طيلة الوقت . وكان ضوء ما تبقى من النهار ينتشر باهتا في الخارج ، وكان القليل الذي تسرّب منه إلى داخل العمارة ، يكفي للاستغناء عن مصابيح السلالم .

ضغطت زر الجرس الكهربائي مرات عدة متتالية ، استعجله احضار من يفتح الباب لي وانتظرت . «يقف نور الدين هناك وسط الصالة ، وربما يختبئ الآن خلف الباب ، يستمع سرا لأنفاسي المتلاحقة مثل لهفتي على اللقاء . سوف أندفع نحوه . وسيقفز هو فاردا ذراعيه مثل شراعي سفينة . ونبحر معا في قبلة طويلة تنتهي به يزف إليّ الخبر الذي انتظرته طويلا : سنتزوج قريبا يا حبيبتي . أغلق فمي بكفي على لحظة اندهاش عميقة وأحتفظ بها في صدري . وقبل أن أبعد كفي وأحرر دهشتي ، سيقول لي نور الدين إنه طلب مني الحضور على عجل كي يطلعني على التفاصيل . أهجم عليه بقوة ، غير مهتمة لسماع التفاصيل التي سنوزعها على الليل كله . يتلقفني بذراعيه الفولاذيتين . ألفّ ساقيّ حوله ، وأعصر خاصرته بين فخذيّ ، وأدق ظهره بكعبي قدمي فرحا . يدور بي في الشقة ويشبعني قبلا فلا أشبع . وحين ننتهي الى الفراش ، سآخذ كفه بين يديّ ، وأضمها على بطني العاري ، وأهمس في أذنه : أنا حامل» .

تبدّد رنين الجرس داخل الشقة حتى رعشته الأخيرة . وظل الباب مغلقا لا يسمع خلفه وقع أقدام أو حركة تدل على أن أحدا ما سوف يفتحه في أية لحظة . ضغطت زر الجرس ثانية وانتظرت ، وقد بدأ القلق يتسرب إلى نفسي . وحين ضغطته للمرة الثالثة ، أيقظني الصمت الذي أعقب صمته على حقيقة مرعبة : الشقة خاوية وموعدي صار فقاعة صابون .

بدأ قلبي يلهث وكفايّ تعرقان ودمعت عيناي بحرقة . أخذت نفساً عميقا . لملمت نفسي المشتتة على عجل ، واستدرت راكضة نحو السلالم متجنبة المصعد كي لا يراني أحد . ومضيت أحمل خيبتي الثقيلة وأجرها مع خطاي هابطة السلالم نحو باب العمارة .

أوقفت سيارة أجرة ، وطلبت من سائقها أن يأخذني إلى فندق «دورشستر» في حي «بارك لين» وسط لندن ، حيث نزلت ليلة أمس . وانطلقت السيارة وفي مقعدها الخلفي ، تجلس امرأة أخرى غير التي جاءت تبحث عن موعدها قبل قليل .

تذكرت لقاءنا الأخير في روما قبل أكثر من شهر . حين وعدني نور الدين بأن يبتّ في أمر علاقتنا التي كبرت في العتمة خلال أكثر من ثلاث سنوات . وقال إنه سيخرجها إلى العلن كي يشرع كل منا في اتخاذ الترتيبات الضرورية لأمر غير عادي نقدم عليه . وقال ايضا ، إن تصريحا للصحافة من بضع كلمات على لسانه ، يمكنه أن يزلزل الشرق الأوسط ، ويضيف إلى حروبه الخمس حربا سادسة من طراز جديد ، يتنافس فيها العشاق ، ويصبح تاريخ اندلاعها الناعم فالانتاين سنويا يحتفلون به .

يومها ، خِفت على نور الدين من فرحته ، وعليّ من فرحتي لي وله . نصحته بالتريث ، والتفكير في طريقة ما لتسريب تفاصيل الحكاية بالتقسيط . قلت له إن الأمر قد يستنفر رجال الأمن في بلدينا . ويعرّضنا للملاحقة كنا معا أو منفصلين . وقلت له أيضا ، إنه سيواجه اتهامات بالعمالة لإسرائيل . وإنني سأتعرض لاتهامات عائلة . سيقال إنني خنت إسرائيليتي ، وربما يهوديتي أيضا . وأوضحت له بأن ارتباطنا علنا يحتاج إلى خطوة سياسية تسبقه وتمهد له الطريق . وإن عليه هو بالذات كابن زعيم عربي كبير - وكان دائم الحديث عن التغيير في بلاده ، وعن رغبته في إحلال الديمقراطية فيها والسلام في المنطقة - أن يساهم في التعجيل بهذه الخطوة . وسألته قبل أن أغادر شقته السرية في روما ، إن كانت لدى والده جرأة السادات لكي يهبط في مطار تل افيف كما فعل الرئيس المصري عام ١٩٧٧ ، أو ينوب هو عن والده ويقوم بالمهمة ، ونبدأ معا أولى رقصات العاشقين؟ .

قبل رسالته الأخيرة التي جاءت بي إلى هنا ، بعث إليّ نور الدين بنص هاتفي من خمس كلمات فقط : «في الأفق مفاجأة كبرى يا عزيزتي» . حقا ، أي مفاجأة أكبر من اختفاء نور الدين نفسه ، وهروبه غير المتوقع مني ومنه ومن كل التفاصيل التي يعرفها ، والتي كنت عازمة على مفاجأته بها؟!! . هل يعقل أن يكون قد تعمّد ذلك ليتخلص مني؟ . هل كان يكذب عليّ كل تلك السنين؟ هل كنت بالنسبة له مجرد عشيقة يُغني جسدها عتمة عابرة في فراشه؟ . أم يكون هو نفسه قد تعرّض لضغوط معينة لإنهاء علاقته بي بهذه الطريقة الفاجعة الصادمة؟ .

«نور الدين لا يفعل ذلك» . لكنه فعل ، وحوّل وعده لي إلى خيبة أكبر منها ، وجعل من اللقاء الذي لم يتم فصلا أول في علاقة شرعية تربطنا ، فصلاً أخيرا شديد الغموض . حقا كنت بلهاء حين صدقت أن علاقتنا يمكن أن ترى النور ذات يوم . كنت بلهاء أكثر حين نمت معه بدل المرة مرات ، وها أنا أحمل في بطني جنينا ، عمره أسابيع أفترض أنه أبوه . «الوهي أيكون ابن ايهود؟» . لم أسأل نفسي من قبل . كنت واثقة وما زلت ، أن ما في بطني هو ابن نور الدين . نمت مع ايهود مرة واحدة في شقته في الشكلوف . كانت الأولى والأخيرة ، وما كان لها أن تحصل أصلاً بين صديقين . تبادلنا وقتها عتابا قاسيا . قال لي إيهود محاولاً التخفيف من ورطتي : «لا تتعجلي الأمور .. فقد لا تحملين .. وإن حصل تستطيعين إسقاط الجنين في أسابيعه الأولى» .

في تلك اللحظة ، تذكّرت في نور الدين الذي ارتكبت معه الحماقة نفسها قبل ذلك بأيام فقط . وكانت حماقتي نكتة سوداء .

غادرت غرفتي في فيلتوك روما قرابة الحادية عشرة ليلا . سلّمت مفاتيحها لموظف في مكتب الاستقبال ، وانطلقت على عجل . كان مرافق نور الدين وحارسه الشخصي السائق وسائقه الهاشمي ، ينتظرانني داخل

سيارة «بي إم دبليو» فضية اللون ، أوقفاها على بعد أمتار قليلة من المدخل الرئيسي للفندق .

ركضت بسرعة نحو السيارة . تلقفني الرجلان الأنيقان حين وصلت . ألقيا بي في المقعد الخلفي كما لو كانا ينفذان عملية اختطاف حقيقية . وانطلقت بنا السيارة تلتهم شوارع روما بجنون .

في الطريق ، اكتشفت أنني نسيت حقيبة يدي في غرفتي بالفندق ، وبها علبة واقي الحمل الذي لا أتخلى عنه في العادة . كان الطلب من الرجلين إعادتي إلى الفندق لإحضار الحقيبة مستحيلا . وكان استنطاقهما بالتجول في روما في تلك الساعة المتأخرة من الليل بحثا عن واقٍ مستحيلا ، سمجا ، ومضحكا أيضا .

واصلت السيارة جنونها الذي لم يهدأ إلا عند أطراف المدينة ، حين توقفت مباشرة ، خلف سيارة أخرى من نوع «الأتد روفر» سوداء . هبط السائق وفتح الباب على عجل ، واتجهنا معا مسرعين إلى السيارة الثانية التي انطلق بنا سائقها الذي لم أره من قبل ، نحو شقة سرية تقع خارج روما ، حيث كان نور الدين بانتظاري .

قررت تلك الليلة أن أنسى نفسي من الحمل بنفسي . أن أهجر الفراش وأمنحه إجازة ، وأكتفي من الحب برقائق من همس نور الدين الساحر ورائحته التي تغنني عن كل أنواع العطور . ولم يكن ذلك سوى وهم يشبه سحر اللقاء فلم أصمد طويلاً . أسكرني كلام الحب وأفقدتني رائحته الوعي كله . انهرت مستسلمة بين ذراعي نور الدين . وغاب جسدانا في بحر من لذة سبحنا فيه ما تبقى من الليل ، ولم نخرج إلى شواطئه إلا قرابة الفجر .

الآن ، عليّ أن أتخذ قرارات صعبة . الاتصال بنور الدين بدا لي مستحيلا لاعتبارات أمنية . الاعتبارات نفسها التي فرضت عليه أن يحمل

من النايف أو الهاشمي ، حلقة الوصل الوحيدة بيننا . والاعتبارات نفسها حالت دوني والحصول على رقم هاتف أي منهما . وما كان ذلك ليفيدني بشيء على أية حال ، فكلاهما يغير هاتفه من وقت لآخر بأوامر من نور الدين غير قابلة للمساومة أو التأجيل .

انتابني شعور بأن نور الدين تركني وحيدة في تقاطع طرق بلا إشارات . ولم يبق أمامي من خيار سوى العودة إلى إسرائيل حزينة مكسورة الخاطر . لا أحمل معي سوى جنينا لم أقرر إن كنت سأحتفظ به أم لا ، وظلال أحلام تركت بين روما وكاليفورنيا ولندن .

أتأمل الشوارع عبر نافذة السيارة علّني ألمح نور الدين ، فلا أرى غير أوهامي تتمشى بين عشاق آخرين يلتفون حول أجسادهم تحت الأضواء المتقاطعة ، في مساء يشعرون بدفئه وحدهم . افتقدت نور الدين وخفت عليه . افتقدت حضنه الدافئ ومزاحه الخفيف والثقيل . افتقدت وقفته التي تشبه فرسان روما القديمة ، وكلامه الذي يغني عن كل ما سمعت من غزل العاشقين . افتقدت فيه رعشات صوته حين يناديني داناتيلو حبيبي ، فألقي بنفسي بين ذراعيه ، ويغنّي لي بصوت يفزع قطط الكون كله ، أغنية قديمة لداليدا :

I found my love in Portofino

وجدت حبّي في بورتوفينو

في كل مرة تحضرني

يدقّ قارع الأجراس عاليا

يبثّ اغنيات زواجنا

عبر السحاب

آه . . يا بورتوفينو

وجدت فيك الأحباب

ويحملني بين ذراعيه ويدور بي في أرجاء الشقة ولم يزل يردد : «آه يا داناتيلو . . .

يوقظني مكبر الصوت في قاعة الانتظار ، معلنا عن اقتراب موعد إقلاع طائرة الخطوط الجوية البريطانية ، الرحلة رقم ١٥٣ ، الى مطار بن - غوريون ، وصوت مضيفة تسألني إن كنت مسافرة إلى تل - أفيف .

أقفز فزعة . ومن دون أن أرد على سؤالها ، أدسّ ما تبقى من لوح الشوكولاته في حقيبتي الصغيرة وأعلقها على كتفي . تلتقط المضيفة من يدي بطاقة الصعود الى الطائرة ، ونركض معا نحو بوابة الدخول التي خلت من الركاب تماما ، وقد توقفت عندها مضيفة أخرى ، أخذت تستعجلنا بإشارات من يديها . تختطف البطاقة من يد زميلتها ، وتقطع طرفها ثم تعيد إليّ بقيتها ، وترافقني المضيفة الأولى عبر الممر المفضي إلى باب الطائرة .

أجتاز بأنفاس متقطعة ، مضيف ومضيفة يستقبلان الركاب عند الباب من الداخل ، وأمر سريعا من بين مقاعد الدرجة الأولى وفي ظنّي أنني آخر الركاب الصاعدين الى الطائرة ، وأنها توشك على الإقلاع فعلا .

يفاجئني الممر الأيمن بين مقاعد الدرجة السياحية ، مغلقا بصف طويل من ركاب ينتظرون الجلوس في أماكنهم . ألتحق أنا وأنفاسي المتقطعة بالطابور ، ونقف خلف سيدة مسنة ربما تجاوزت السبعين بقليل ، تتقدّم ببطء شديد مثل الآخرين . أستعيد هدوئي تدريجيا ، وأزحف تدريجيا أيضا مع الزاحفين ، لكن برأس مليء بهواجس وهموم أحس بها وحدي ، وأقلق بها وحدي ، وأحملها معي إلى تل - أفيف وحدي .

تمر خمس دقائق أخرى على الأقل ، قبل أن أقترب من الصف الذي

يقع فيه مقعدي ، ولا يعود يفصلني عنه سوى العجوز . إلى يمينها مباشرة ، ثمة رجل يجلس في المقعد المحاذي للممر بعيدا عن الشباك ، بجوار ما يفترض أنه مقعدي . أنظر اليه من فوق كتفي العجوز . يرفع الرجل رأسه فجأة وأتبين بعض تفاصيل ملامحه : في منتصف العمر أو تجاوزه بقليل ، حنطي اللون ، شرق أوسطي الملامح ، شيء ما فيه ذكرني بنور الدين .

تهزني المفاجأة ، وتسري في جسدي كله رعشة غريبة باردة . أنا التي تقف أمام الكاميرا تتعرى بمرح صبية تكتشف جسدها على عتبة البلوغ ، يرعشني الجلوس الى جوار رجل بعض ما فيه يشبه نور الدين . أسأله بشيء من الارتباك ، من دون ان تكف عيناي عن تسلق كتفي العجوز والنظر إليه ، بينما يتطلع إليّ بشيء من الدهشة :

Excuse me Sigh, Is this ghow numbegh19?

«نعم يا سيدتي ، والمقعد المجاور حرف A ، هل هو ما تبحثين عنه؟» .

يجيبني بأدب وبلكنة أعشقها حد الموت . وينهض بقامة متوسطة الطول ، تضاف إلى متوسطياته كلها : عمره ، لون بشرته ، وجاذبيته .

يتخلى رجل المتوسطيات عن مقعده ويفسح لي في المجال . أشكره وأمر إلى مقعدي .

ألقي بحقيبة الكتف الصغيرة على أرض الطائرة بين قدميّ ، ثم بجسدي كله على المقعد ، وأبدأ فورا في استبدال ملابسي تحسبا لبرد محتمل .

أتذكر أمي حين كانت تستعيد في ساقي ما كان لها قبل ثلاثين عاما أو أكثر . وكنت أستطيب حسرتها وهي تستعيد فيّ ما فقدته عبر السنين : «إلوهي دانا . . كأنك أمك في صباها حبيبتي . سوف تجرين شباب تل - أفيف خلفك . . أخشى أن تأخذيهم بعيدا عن الخدمة في جيش الدفاع أعوفاتي» .

وأرد عليها : « أليس ذلك أرحم من الذهاب الى الحرب إما (أمي)؟ المشكلة هي أن جيش الدفاع هو الذي يجر الجميع خلفه» .

«لن تتغيري أبدا . . وسيظل لسانك طويلا مثل ساقيك» .

ثم تحمد الله ، باروخ هَشِمْ ، وتضيف : «لولا جيش الدفاع ما كنا بقينا في هذه البلاد» .

أنتهي من تغيير ملابسي ، وألقي بظهري إلى الخلف أستجدي قسطا من الراحة ، يقطعه صوت جاري يتمتم بكلمات أفهم منها أنه نادم على عدم إحضاره ملابس ثقيلة يتدثر بها . «يستطيع أن يستخدم الحرام الصوفي الذي تركوه له مثل بقية الركاب إن شاء» .

أهمس لنفسي . أربط حزام الأمان ، وأغمض عيني بانتظار إقلاع الطائرة .

الفصل الثالث

هـــو

تقلع الطائرة . ينطلق العد العكسي لعودتي على إيقاع زمجرتها الرعدية وارتعاشاتها الصاخبة ، وصمت الركاب الذي لا يتبدد إلا حين يعلن قبطان الطائرة ، عن استقرارها على الارتفاع المحدد لها ويقارب الثلاثين ألف قدم .

تضاء إشارات فك أحزمة الأمان . يتلون الجو بطقطقات فك الأحزمة ، وبأنفاس الركاب تتأوه ارتياحا . يرحب مضيف عبر السماعات الداخلية بالركاب باسم قبطان الطائرة .

لا أنشغل أنا بالترحيب الذي لا يختلف عن تسجيلات قطار لندني يعلن عن انطلاقته ، ويعدد المحطات التي يتوقف عندها ووجهته الأخيرة ، إذ تعود إليّ أمي التي تنام الآن ولا تنام ، والصبح يزحف نحوها بطيئا ، فتنام ولا تنام .

قالت لها عمتي صفية بعد سنة من رحيل أبي : «اسمعي يا أم وليد يا بنتي . . جوزك الله يرحمه صار له سنة متوفي . . وأنت شابة صغيرة وحلوة . .»

«ما تكمليش يا بنت عم . . يحرّم عليّ الزواج من بعد أبو وليد» .

بلعت عمتي ما تبقى من كلمات لم تقلها ، ولم تأت بعدها على سيرة الزواج أمام أمي .

كانت أمي شابة لم تتخط الثلاثين من عمرها حين توفي أبي. طويلة، رشيقة القوام، بيضاء، بوجنتين تفاحيتين، وأنف لم يكبر منذ ولادتها، وشفتين صغيرتين مستديرتين. وكان شعرها الأسود (الذي تتمرد خصلات منه على منديل رأسها وتتسلل خارجة)، يزيد وجهها تألقا.

مثل عمتي، لم يحتمل جدي فكرة بقاء أمي الجميلة أرملة. كلاهما كان يتوجس من كلام يقوله الناس، ولم تكن أمي لتتخلى عن ارتباطها بأبي حتى بعد وفاته. قال لها ذات مساء: «اسمعي يا بنتي... أحمد إبني وفلذة كبدي... كان عزيز عليّ زي ما هو عزيز عليك وأكثر... لكن هذا قضاء الله وقدره، اللهم لا اعتراض على حكمتك... وأنت بعدك صغيرة...».

قاطعت أمي حماها بحدة لم تعود على مخاطبته بها: «ما انكبرتش يا عمي... لا صغيرة ولا كبيرة». وتابعت معلقة، للمرة الثانية، ملقا يجرح فتحه كراستها: «أني عندي شاب صار رجلة وبنت صغيرة يتّم أبيهم... قلتها لما توفي أحمد... وقلتها بعد وفاته بسنة، ويرجع يقولها قدامك... يحرم عليّ الرجال بعدك يا بو وليدة».

ولم تتزوج أمي قط وعاشت من أجلنا.

وفي مارس (آذار) عام ١٩٦٧، عدت أنا إلى دراستي الجامعية، على أمل العودة في نهاية الدراسة بالشهادة التي كانت أمي تخشى أن تأخذني إحدى بنات القاهرة منها، وأعود إليها بشهادة مأذون. لكن الحرب اندلعت بعد وصولي إلى القاهرة بثلاثة شهور، بعد أيام فقط من انتهاء الامتحانات. احتلت اسرائيل شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والجولان، ولم أعد.

بعد سنوات من ذلك، تزوجت شقيقتي رجاء من قريب لنا يعمل

في إحدى شركات القطاع الخاص في قطر وعاشت هناك. وصارت أمي وحيدة تنتظر زيارة رجاء وزوجها لغزة في نهاية كل عام. وكانت تجد في ذلك بعض العزاء.

توفيت رجاء العام الماضي في قطر مريضة بسرطان الرحم. وحكم على أمي بالعيش وحيدة إلى الأبد. أو هكذا ظنت.

ألتفت حولي. بعض الركاب انشغل بقراءة كتاب، وآخرون بمشاهدة التلفزيون. والبعض أطفأ مصباح الضوء الصغير فوق رأسه وغفا، أو تظاهر بالنوم، بينما محركات الطائرة تواصل هديرها في إيقاع منتظم رتيب يشجع على التثاؤب.

فجأة ينطلق صوت يعلن بقسوة عن نوم قلق:
كخخخخخخخخخخخخخخخخخخخخ..

ألتفتّ خلفي، وأدرك أن مصدر الشخير هو الرجل ذو الجسد الضخم الجالس في المقعد الأول في مقاعد الوسط، في الصف الذي يلي مقعدي مباشرة. كان الرجل غافيا بعمق، وقد تدلى رأسه على صدره مائلا جهة كتفه اليسرى، وانفتح فمه بقوة الشخير، بينما تظل شفته السفلى ترتعش بإيقاعه.

تخرجُ جارتي، التي أيقظها الشخير من إغفاءة خفيفة، من غفلتها، إذ تلتفت إليّ فجأة تسألني بعصبية كما لو كنت الشخير، أو أنها حاسبتني بذلك: «ما هذا؟».

«كما تسمعين.. شخير صادر من شخص يجلس خلفنا». أرد.

«مقرف». تعقب.

لا أعلق. إذ أدرك أنني «ضعت في الترجمة»، فقد قلت لها sneezing (يعطس) بدلا من snoring (يشخر).

أشعر بكلماتي تمحني خجلا وتتخطني معها، فأهرب إلى حال

يونس وقد توقف الشخير وعادت جارتي إلى غفوتها .

«أبو حاتم . . اسمعني يا ابن عم . . إنّي مصرّة انزل عند ولاد خالي في جباليا ، وخبّرتني إنهم رتبو لي غرفة في شقة شفيق . قالت شفيق بعده عزّابي ، والشقة فاضية ما عدا غرفته اللي جهّزها عشان يتجوّز . تعال التّ ع معبر بيت حانون (ايريز) ، ومن هناك بنروح ع بيت نصر الدين وولاده لأنه عمارتهم قريبة من المعبر زي ما قالت . بتشوفك وبعد يومين أو ثلاثة بروح معك ع خان يونس ، وبيات عندكم ليلتين واللا ثلاثة قبل ما ارجع ع جباليا ، وهيك بنكون ارضينا الوالدة والجميع» .

«لا تشغل بالك يا بن عم . أنا حكيت مع مرت عمي وراضيتها وما بيصير الا اللي بدها اياه . . احنا بدناش انزعّلها . خلاص . . خير ما انفلتو . بتنزل عند ابن خالك واولاده . . وانا باجي المسا بعد الظهر . بسلم عليك وبقعد شوية وبروّح . . وبرجع لك يوم الخميس الساعة خمسة . . وباخذك لعنّا ع خان يونس . . والجمعة الصبح بندبح خروف ع شرفك وبكون الغدا انشاء الله بعد صلاة الجمعة على طول» .

أعود من خان يونس على صوت مضيفة تضع على طاولتي الصغيرة وجبة العشاء : طبق من عجة البيض والخضار ، وقطعة جبن بيضاء ، وأربع حبات من الزيتون الأسود ، وحبة بندورة ، ومُحلّيات .

تلتفت جارتي إليّ وتسألني بشهية مفتوحة على طبقي : «اووم . . هل سيقدمون لي مثله؟» .

«اذا كنت نباتية مثلي . .

أقطع العجة الى نصفين ، وأتابع من دون أن أنتظر تعليقها : « . . يمكنك مشاركتي . . الطبق كبير ولست جائعا على أية حال» .

تبتسم ، وتشكرني قبل أن تضيف : «لا تشغل بالك سأتناول وجبة عادية . . . . انا آكل اي شي» .

لا أكرر دعوتي ، بل أنشغل بالتهام طعامي ، وتنشغل هي بطعامها الذي حضر .

أنتهي من تناول وجبتي ، وتجمع مضيفة صينيات الطعام ، تضعها على عربة تدفعها أمامها وتمضي . أعيد الطاولة الصغيرة المتحركة إلى ظهر الكرسي أمامي ، وكذا تفعل جارتي التي انتهت بدورها من تناول طعامها بعدي بقليل . ألقي بظهري الى الخلف وأغمض عينيّ .

توقظني فجأة ، أنات واهنة . ألتفت إلى جارتي ، فأجدها وقد احتضنت رأسها بين كفيها ، غارقة في بكاء خجول متردد ، سرعان ما يغادر خجله وينتهي تردده معلنا عن حزن عميق .

أستدير بجسدي نحوها . أشد إليها بعفوية أصابع كفي اليمنى . يتحنى تصفي الأعلى كله بالتجاهها كأنني أحاول احتواء حزنها . «لماذا أحتوي حزن هذه السيدة التي ظننت قبل قليل ، أنها عضو في الوساد الإسرائيلي؟ لا أدري!» .

أربت على كتفها القريبة مني بلطف :

Are you ok Miss? Could I help in any way?

أفكر في تلك العبارة التي يمسح بها الناس أحزان الناس أحيانا ، أو يهدئ بها شخص ما زميلة له في العمل ، أو حتى غريبة جلست إلى جانبه في قطار ، يحتضنها أو يربّت على ظهرها . نحتاج إلى تلك اللمسة أحيانا حتى من غريب . جارتي تحتاجها الآن . لكنني لست زميلا لها في عمل ، ولا غريبا وحسب ، بل أنا الآخر . أنا الذات التي تقلق وجودها ، وهي الوجود الذي يقلق ذاتي . لسنا بعضنا لكي نهدئ بعضنا . بل نحن نحنان ، نحن نحتل نحناً ، وهي من نحن(هم) لا من نحن(نا) . هي إسرائيلية كما تؤكد لهجتها . ولابد أن تكون قد أدت خدمتها في الجيش . وربما أمضتها في الأراضي الفلسطينية ، فأطلقت النار على

فلسطيني ما ، أو شاركت في قتل فلاح ابن نصر الدين ابن خالي . وقد تكون قد وقفت على حاجز تتلقف القادمين ، تنشّف ريق عجوز فلسطينية ، أو تعرقل مرور أخرى حامل في طريقها إلى مستشفى للولادة ، وتتسبّب في وضعها وليدها عند الحاجز ، تعيقها بدل أن تكون قابلتها وهي امرأة مثلها . قد تكون جارتي كل هذا أو بعضه ، لكنها قد تكون خارج هذه التوقعات أيضا .

أهجس ، أتوجس ، أقلق . لكن أصابعي لا تبتعد عن كتفها كأنها تعرفها منذ وقت طويل .

تمسح جارتي دمعا بظاهر كفها اليمنى . أسارع وأقدم لها ورقة كلينيكس . ترفضها بشكل مهذب : «شكرا» .

«طز» .

أسخرُ من اعتباري رفضها مهذبا ، فما فائدة تهذيب كهذا؟ لقد رفضتها وانتهى الأمر .

فجأة ، تنفرج شفتاها عن ابتسامة تبدد خيبتي الكلينيكسية . يريحني ذلك . «لماذا يريحني؟!» . أسحب أصابعي بهدوء بعيدا عنها . أعتدل في جلستي . ألقي بظهري الى الخلف مجددا . تعتدل جارتي في جلستها . تنحني وتتناول شيئا ما من حقيبتها الصغيرة الملقاة بين قدميها .

«هل ترغب في بعضه؟» .

تسألني وهي تمد إليّ نصف لوح كبير من مربعات الشوكولاته .

أطلب منها أن تقطع لي واحدا فتقدم لي اثنين . أشكرها وألتهمهما على دفعتين هامسا ، «Oooom very nice» ، ولتلتهم هي على مراحل ، نصف لوح الشوكولاته المعلق بين أصابعها .

لا بد أنها تنتشي الآن . ثمة نساء ينتشين بلوح من الشوكولاته ، يتناولنه في أي وقت ، يأخذهن الى جنائن أثيرية معلقة في سماء اللذة .

وبعضهن يتناولنه حين يرغبن في الاستغناء عن رجل ، أو لا تجد إحداهن رجلا في لحظة بدأ فيها الجسد يطلق نداء استغاثة . قد تكون جارتي افتقدت الحب فعلا منذ فترة مثلا ، أو افتقدت الرجل الذي أشبعها حبا وأبكاها غيابه ، فاستحقت أحزانها نصف لوح من الشوكولاته . لعلها تمسح أحزانها الآن . أحزان ما لا تقوى على إشراك غريب بها . غريب مثلي عابر في رحلة عابرة . حقا يبدو عليها الآن ارتياح لم ألحظه منذ أن اتخذت مكانها الى جانبي .

«ممكن ورقة كلينيكس من فضلك؟» .

تسألني وهي التي رفضت عرضا بريئا قبل قليل ، حين كان دمعها يحتاج الى ورقة كلينكس . أقدم لها الورقة التي رفضتها بالذات ، وأمحو بذلك رفضها وأرتاح .

تمسح شفتيها بلطف مما علق بهما من شوكولاته ومن حزن يبدو طارئا . تبعد الورقة عن فمها وتدسّها في سلّة المقعد البلاستيكية .

«أتدري . . لقد أعجبتني لكنتك الانجليزية» .

تنظر إليّ بطرف عينها ، قبل أن تدير وجهها نحوي ، قاطعة عليّ تعقيبا لم يزل يتشكل .

أضحك ساخرا من لكنتي وأنظر في عينيها مباشرة ، وقد أخذتا تتلألآن ببريق غامض ، وأعقب بدهشة : «لكنتي أنا؟!» . «ها ها ها! عشرون هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها . . . . . هل أعجبتها لكنتي الهجينة التي لا تمت إلى أي لكنة إنجليزية بصلة ، أم انها تحاول الكشف عن هويتي؟!»

«اممممم . . لا أدري! طريقتك في إلقاء الكلمات ، الحروف تخرج بنبرة . . لا عليك ، المهم أنها أعجبتني كثيرا» .

«طريقتي في إلقاء الكلمات ، الحروف ، النبرة . . هل استمعت

جارتي للكنتي من شخص ما في مكان ما مثلا؟! هل فتحت كلماتي جراحا مغلقة في قلبها فبكت؟ اللعنة على لكنتي التي فتحت جراح هذه الجميلة . لو تصارحني فقط بسر إعجابها بلكنتي التي لم أصادف معجبين بها من قبل!» .

«هل أعجبتك إلى هذا الحد؟» .

«هم هم . .» .

تهمهم ، بينما عيناها ترشان في عينيّ بريقا مترددا ، يشجعني على شق الغموض من وسطه ، ونقل الحوار بعيدا عني ، عن مساحة أخشى أن تقترب منها ، إلى دائرتها هي : «أتعرفين . .!» .

تنصت بهمهمة أنيقة دافئة :

«هم هم هم هةْ» .

«عندما سألتني عن رقم المقعد ، تمنّيت أن يكون مقعدك . قلت لنفسي ، أكون سعيدا جدا لو جلست هذه الشقراء الفاتنة الى جانبي» .

«اوممممم . شكرا لك . هذه مجاملة رقيقة منك . . وماذا أيضا؟» .

«فاتنة لكنها طماعة» . «قلت أيضا ، إما أن تكون هذه الجميلة عارضة أزياء أو ممثلة» .

«إلوهي . . أنا فعلا ممثلة . . .

تهتف بفرح .

وتفتح كلماتي أبواب جنتها ، إذ تستدير بجسدها كله نحوي ، رافعة إليّ عينين تتراقصان بفرح يضيء المسافة بيننا . لكنه فرح قلق ، فرح امرأة تبحث عن شخص ما في تفاصيل ملامحي . «الذي الآن فرصة للقفز إلى عالمها وسؤالها عمّن تبحث عنه فيّ» . أفكّر ، وأتردد إذ أستدرك بأنني أدفع بنفسي إلى دائرة الأسئلة التي أحاول منذ بداية الرحلة الهرب منها . يجتاحني ندم بارد . ألتني لو تتوقف عند عبارتها الأخيرة : «أنا فعلا

ممثلة» ، وتسحب تعبيراتها الجسدية وهمهمتها الناعسة ، وتأخذ معها غموضها كله بعيدا عنّي .

لكنها لا تفعل ، وترفض الخروج من جنة رفعتها الى سماواتها الأثيرية بنفسي . إذ تتابع بكثير من الاعتزاز : « . . . وقد شاركت في ثلاثة مسلسلات ناجحة ، كان لها صدى شعبياً كبيراً في اسرائيل ، قمت ببطولة اثنين منها هما (شقة في رامات غان) ، و(عذراء تزوجت مرتين) ، والأخير مسلسل كوميدي ساخر ، قدمت من خلاله أفضل أدواري ، كما قال نقاد كثيرون . أما المسلسل الثالث ، فهو(السيدة ريبيكا) ، وقد انتهى بث حلقاته على القناة الأولى في التلفزيون الإسرائيلي قبل شهرين فقط . بعد وصولي إلى تل - أفيف ، سأرتاح بضعة أيام أتابع بعدها نشاطي الفني ، في حال تلقيت عرضا جديدا مقنعا» .

أرتاح إذ تفتح لي بنفسها بابا في عالمها ، كان مغلقا طيلة الوقت ، فأسألها معقبا مستفسرا : «تقيمين في تل أبيب على ما يبدو؟» .

«نعم ووالديّ كذلك» .

أهمس لنفسي بالعبرية : أز هَغفيرت م تل افيف! . . «السيدة من تل أبيب إذن» . وأسألها : «عفوا . . هل تقيمين مع والديك؟» .

«طبعا لا . . مستحيل» .

تقول ضاحكة وتضيف : «ولكننا نقيم في الحي نفسه وشقتي لا تبعد كثيرا عن بيت والدي» .

«أه لوحدك إذن؟» .

«لي صديق التقيه من حين لآخر» .

تصمت لحظة ، تقول بعدها كمن تهمس لي ولها : «لا بد أن ايهود ينتظرني الآن» .

«ايهود؟!» .

«هم هم . . إيهود صديقي . . أفضل لاعبي كرة السلة في إسرائيل ، وهو يلعب حاليا مع فريق اليستور أشكلون» .

«يعني يلعب مع فريق المجدل عسقلان» .

«عفوا . . هل سألتني شيئا؟» .

«لا لا . . قلت بالعربية ما معناه إن إيهود محظوظ . . وأنت أيضا» .

وأضفت سريعا : «أنت مثل زوجة أحد لاعبي كرة القدم في مسلسل Footballers wives ، الذي يعرض عندنا هذه الأيام» .

«لا لا لا . . أنا فقط Basketballer's freind»

تعلق ضاحكة ، وتوسع دائرتها التي فتحتها . تحكي عن لقاءات أجرتها مع مخرجين عالميين في هوليوود ، خلال رحلة قامت بها أخيرا إلى الولايات المتحدة الامريكية قبل مجيئها الى لندن .

أتركها تحكي ، وأرحل بعيدا إلى عسقلان ، حيث يلعب صديقها إيهود لصالح فريق اليستور اشكلون ، المجدل عسقلان التي ينحدر منها عادل البشيتي ، بطل روايتي الجديدة وعائلته . لو سمع عادل ما قالته جارتي لهتف ساخرا : لو كان الصراع بيننا يدور في الملاعب والضربات تسدد في الشباك لا في أجساد البشر ، لكنا أقمنا دولة كروية ديمقراطية من النهر إلى البحر ، يعيش على أرضها جميع اللاعبين» .

أسخر من فرضية عادل . يفلت مني ضحك مسموع ، فاضحا استبعادي حتى التعايش الكروي بين الطرفين في زمن قريب . إذ ستفعل الكرة بالإسرائيليين والفلسطينيين ما فعلته بشعبي السلفادور وهندوراس عام ١٩٦٩ ، حين التقى فريقا البلدين لتحديد من سيشارك منهما في نهائيات كأس العالم . فقد تمكن روبرتو كوردونا ، لاعب هندوراس ، من وضع كرته في مرمى فريق السلفادور في الدقيقة الأخيرة للمباراة . اندلعت صدامات بين المشاهدين سقط فيها قتلى وجرحى . جنّ السلفادوريون ،

وقرر قادتهم العسكريون حسم المباراة بالطائرات وقوات الجيش . ونشبت حرب طاحنة بين البلدين الجارين ، استمرت أربعة أيام ، خلّفت وراءها آلاف القتلى والجرحى .

تنتبه جارتي لضحكي الفالت وتسأل بدهشة خفيفة : «ألا تصدقني؟!» .

«طبعا أصدقك» . أرد . وآخذها بعيدا عن هلوساتي من دون أن تدري : «أضحكني مشهد تذكرته حين سمعتك تكررين عبارة شهيرة لروبرت دي نيرو ، وأظن أنه رددها في فيلم سائق التاكسي . لعلّك تتذكرينه مثلي . يقف دي نيرو أمام المرآة . يتخيّل مواجهة حادة مع شخص آخر ، تدفعه إلى سحب سلاحه ، ويقول مستهجنا : «هل تتحدّث إليّ؟ . . هل تتحدث إليّ؟ بحق جهنّم لمن تتحدث إذن؟ . . حسن . . أنا الوحيد الموجود هنا . . فمع من تظن نفسك تتحدث يا منيوك؟»» .

«معكَ حق . . أنا مثلك أموت في تلك العبارة : You talkin too me?»

«No, yoooou talkin' to me?»

نتبادل تساؤلات دي نيرو ضاحكين . ومن وسط الضحك أقول : «أربعة عمالقة لا يغيبون عن بالي . . مارلون براندو ، انتوني كوين ، روبرت دي نيرو ، وآل باتشينو» .

«أنت متذوق كبير للسينما» .

«ليس مثل فنانة محترفة كجارتي» .

«بطبيعة الحال ، أنا شاركت في نشاطات فنية كثيرة ، وفي مؤتمرات وعروض أفلام ، وأتلقى الكثير من الدعوات . . آه ، تذكّرت مهرجان إيلات السينمائي الذي افتتح في أواخر شهر مارس عام ٢٠٠٣ . اسمع اسمع . . سأحكي لك بعض ما جرى . فقد حضرت المهرجان ضمن نخبة من

الشاهير : موشيه دايان ، وهاني فوشبيرج ، وبنينا روزنبلوم ، ودودو توباز ، وساندرا رينغلر ، والعروض ... معظم مشاهير إسرائيل كانوا هناك» .

تصمت قليلاً ، ولا أحاول قطع صمتها ، فتقطعه هي بتنهد عميق بينما تضع ساقها اليسرى بصعوبة فوق اليمنى متابعة قولها : «كانت المشاركة في المهرجان مغامرة كبيرة . لقد افتتح في ظل أخبار الحرب في العراق . حتى إن الناس في إيلات فوجئوا بحضورنا ، وسخروا من المهرجان . كان الحاضرون مرعوبين من احتمال أن يقصف صدام حسين تل-أبيب بالصواريخ ، حتى إن بعض سكان إيلات ، اعتقد أننا هاربون من هناك لنحتمي عندهم بحجة المهرجان» .

وتواصل جارتي حديثها كأننا من دولة وحدتها المخاوف ومشاهير الطرفين . تسبح في التفاصيل وأغرق أنا في مشاهد الحرب المتلفزة ، تنقل صورا حية للقاذفات الأميركية تزرع الديمقراطية بآلاف أطنان القنابل في كل أنحاء العراق ، تحرق النظام الدكتاتوري القديم ، وتحفر الأرض عميقا تحت أقدام القادمين الجدد .

تصمت جارتي فجأة وتتخلى عن ثرثرتها . تلتفت إليّ بحدة وتسألني كما لو أدركت فجأة أنها ذهبت بعيدا في الألفة وأكثرت من التفاصيل ، وكنت أظن أنها هي من سيستدرجني :

«عفوا ، لم تقل لي من أين أنت؟» .

الفصل الرابع

هـــي

تضاء إشارات فك أحزمة الأمان . آخذ نفسا عميقا ، بينما يأخذني صوت مضيف يرحب بنا بطريقة تقليدية ملت سماعها في رحلاتي الكثيرة ، إلى حقيقة أنني غادرت لندن فعلا ، من دون أن ألتقي نور الدين ، ومن دون أن أعرف ما حدث ، ولماذا تخلّى عن موعد حدده هو ، وما إذا كنا سنلتقي قريبا .

أغلق عينيّ على عشرات الأسئلة التي تزاحمت في ذاكرتي . أقلب جميع الاحتمالات علّني أعثر على تفسير لما جرى ، فيقطع محاولتي صوت مزعج ينطلق فجأة من مكان قريب مثل أحتجاج، وقع على محاولاتي . يثور في داخلي غضب مفاجئ لا أعرف كيف أكبحه . كانت لي جاري فأجده على عكسي تماما ، صامتا ، غير مكترث لما يدور حولنا ، أسأله بدهشة واستهجان وقد أدهشتني لامبالاته الغريبة : «ما هذا؟» .

«كما تسمعين ، شخص ما يعطس» .

يردّ من دون أن يلتفت إليّ وقد أخطأ التعبير . إذ لعله يشخّر . لا تضحكني المفارقة ، بل أعقب : «مقرف» .

لا يعلّق جاري ، وأدير أنا وجهي إلى الجهة الأخرى . أغمض عينيّ على توتري وأحاول أن أغفو .

أستيقظ قرابة منتصف الليل ، على صوت مضيفة تتحدث إلى

جاري . أعتدل في جلستي ، وأراقبها وهي تضع صينية طعام على طاولته الصغيرة . يفتح طبقه شهيتي فأتلصص عليه . لا يبدي اهتماما لتلصصي . يغيظني تصرفه . أحاول استدراجه لفهمه . أسأله إن كانوا سيقدمون لي طبقا مثله . يرد علي بكلمات قليلة وبتهذيب يفاجئني ، مثلما تفاجئني لباقته وتثير لدي فضولا يأخذني مسافات أبعد من حدود فضول طارئ : «اذا كنت نباتية مثلي» . «هل أسأت الظن به حقا؟ ، ترى من يكون جاري؟ ملامحه ، لكنته ، كلماته التي تفوح منها رائحة قهوة . . . هل يكون أحد رجال نور الدين السريين ، وقد قرر متابعتي لأمر أجهله؟ مستحيل ، فأنا التي اخترت مقعدي بنفسي من دون أن أعرف من حجز المقعد المجاور . أيكون عربيا يزور إسرائيل؟ لو كان العرب يستطيعون ذلك ، لاستقبلت نور الدين في بيتي في تل – أفيف ، وتبادلنا قبلات دافئة على شرفة شقتي تحت أنظار البحر ، وأخطنا موجا يتلصص علينا من بعيد . ولما اضطررت مرارا إلى الذهاب سرا إلى روما للقائه . أتسلل في طرقاتها مثل لص مطارد لكي اختطف ساعة عشق محرمة معه . وكنت خلعت أسراري مثل ملابسي وجلست باسمة على أغلفة المجلات . ونشرت على حبال الصحف الإسرائيلية والعربية والدولية ، قصة عشق يرتعش خلف أبواب الصراع كله : دانا اهوفا تلتقي سرا ابن مسؤول عربي كبير . هل يكون جاري فلسطينيا من إسرائيل؟ لماذا لم يحدثني بالعبرية التي يتحدثون بها مثلنا إذن؟ . هل يكون من المناطق؟ لا ، لا . . هؤلاء لا يمرون ، حسب علمي عبر مطار تل افيف . . من هو جاري إذن» .

تقلقني تساؤلاتي ، ويحرّضني فضولي على التخلص منها دفعة واحدة ، ومع ذلك أخشى سؤال جاري مباشرة ، وكأنني راغبة في استمرار غموض خلقته أنا بنفسي .

ينتهي كل منا من تناول طعامه . ألقي بظهري الى الخلف وأغمض عيني مستسلمة لعجزي عن اختراق حواجز جاري بسؤال عادي بسيط : «عفوا . . هل لي أن أسألك يا سيدي من أين أنت . . إن لم يزعجك ذلك؟» . مندهشة من رغبتي الشديدة في طرحه عليه . ومندهشة أكثر من عدم جرأتي على طرحه أيضا .

وراء عينين مغمضتين ، يتراءى لي دانيال مثل حلم مرّ في ليلة عاصفة قبل سنوات . كان داني حبي الأول الذي انقصف عمره في منتصف الطريق ، مثل علاقتي بنور الدين . أستعيد انطباعي الأول عن جاري لحظة تعرّفت عيناي عليه . حقا ، إن كان هو رجل المتوسطيات كما وصفته لنفسي ، فأنا امرأة منتصفات الطرق . كل غرامياتي تتوقف قبل أن تكمل مشاويرها . حتى علاقتي بإيهود ، لم تزل معلّقة بين نهايات الصداقة وحافة العشق . كأنها نصف علاقة تخاف نصفها الآخر وتهرب منه . كأنني بنصف قلب ، مع أنني كنت أسلمه في كل مرّة ، بكامل نبضاته الصادقة . كيف حدث ذلك كله؟ بل لماذا حدث أصلا؟ .

انتهت علاقتي بداني فجأة ، كأنها دورة تدريب على العشق تخرّجت منها بدرجة راسبة . انفصلنا ، وترك داني إسرائيل .

قبيل مغادرته ، ودعته كأنني أعيده اليه . إلى الشاب الأوكراني بوريس ابراموفيتش الذي تعرّفت إليه في لندن ، وأعطيته اسمي ، كي أناديه داني .

كنت توقفت ذات مساء في بيت صديقتي سارة ، في طريقي إلى تل – أفيف ، عائدة من زيارة قصيرة لبيت جدي في نيويورك . في تلك الليلة ، أقامت سارة حفلا راقصا دعت إليه عددا من الأصدقاء والصديقات . وألحّت عليّ أن أفتتح الرقص ، بعد أن شربنا من النبيذ الأحمر ما يكفي لعملية افتتاح ناجحة . واختارت لمرافقتي شابا وسيما يصعب رفض منحه

شرف الرقصة الأولى والتعرف إليه على الأقل .

قدمتني سارة للشاب بعبارة بدت معدّة سلفا : «دانا أهوفا . . أجمل صديقاتي وأحلى نجمة صاعدة في إسرائيل» .

انحنى الشاب بطريقة مهذبة أنيقة . ثم التقط كفّي اليمنى وترك لي قبلة دافئة عليها ، وقال يضع كلمات بلغة لا أفهمها ، لكنها أبقت شفتيه مفتوحتين على ابتسامة لا تقاوم أنهى بها ما قال . شهقت ، وأغلقت فمي بباطن كفي اليسرى ، فأردف سريعا ، يعيد ما قاله بالإنجليزية :

«Nice to meet you Miss Ahuva»

انفجرنا سارة وأنا ضاحكتين ، فصار وجه الشاب بلون حبات طماطم المستوطنات . وسارعت سارة تفسر ضحكنا قبل أن ينزف وجه الشاب إحراجا : «أهوفا بالعبرية تعني محبوبة يا بوريس ، هذا ما يطلقه عشاق دانا على نجمتهم» .

عقب بلباقة وقد تخلت بشرته عن حمرتها الطماطمية : «حسنا . . لم أبتعد كثيرا إذن . . دانا المحبوبة أو الآنسة محبوبة . . ولتكوني سيدتي الجميلة أيضا» .

وتدخلت سارة ثانية ، ولكن لتقدم لي الشاب الذي سحرتني ابتسامته ، بعبارة ذات مغزى : «بوريس ابراموفيتش ، يهودي أوكراني وصل حديثا إلى هنا . . اختار لندن بدلا من تل- افيف» .

وانسحبت وقد علقت بطرف عينها اليسرى بقايا غمز دافئ ، وأمامي شاب لا أعرف كيف تخلّت عنه سارة ولم تحتفظ به لنفسها .

منذ لحظة التعارف تلك ، لم يترك أحدنا الآخر : نتحرك معا ، ونأكل معا ، ونجلس معا ، ونبتسم معا ، كأننا فالس لا يؤديه أحد بمفرده .

في تلك المساء الجميل ، لم تتوقف عينا سارة عن بث غمز ساخن . ولم تتوقف شفتاها عن همس كان يذيبني : «سنراك كثيرا في لندن يا

حبيبتي» . ولم نتوقف نحن عن تناول النبيذ المدهش الذي تجيد سارة اختيار أصنافه ، أو عن الرقص ، إلى أن انتهيت مستسلمة لبوريس قرابة الفجر في شقته في هامر سميث .

عشقته منذ تلك الليلة التي تذوقت فيها طعما للحب تذهب معه الروح إلى نهايات لا ترغب في العودة منها ، بينما الجسد يرتعش في انتظار عودتها كي يتعرف على نفسه من جديد .

لم نتوقف بعدها عن تبادل الرسائل عبر الانترنيت . أقمنا بيننا جسرا من التعارف نقلنا عبره جميع التفاصيل ، وكان الطريق الذي عبره بوريس إلى إسرائيل .

ذات مساء ، كانت أمي تقلب طبخها على النار بملعقة ، وكنت إلى جانبها أسند ظهري إلى واجهة الثلاجة ، نتبادل ثرثرة متقطعة مثل متحاورين يفتقران الى الكلام ، حين وضعت الملعقة جانبا والتفتت إليّ تقول بطريقة فاجأتني : «الأوكراني بوريس ، ليس سوى وهم بتبنّي دانا . . وهم عابر في سهرة عابرة» .

لم أصدقها .

«بوريس يحبني كثيرا يا أمي» .

استدارت وأطفأت شعلة الغاز ، ثم عادت إليّ لتقول : «بوريس ليس يهوديا مخلصا» .

لم أكترث لكلامها كثيرا ، إذ لم يكن إخلاص بوريس ليهوديته هو ما يعنيني بل مقدار حبه لي . لو طرحت عليّ تحديا كالذي طرحه عليّ أبي ، لكنت قبلته على الأقل ، لكنها اكتفت ببث شكوك تخصّها هي وحدها . أما أبي فلم يعترض مطلقا على علاقتي ببوريس ، لكنه تحداني أن أنجح في حمله على الهجرة الى إسرائيل . قال ساخرا ذات مساء ، وقد جلسنا إلى مائدة عشاء في بيته : «لو كان صاحبك راغبا في الهجرة لحمل

حقائبه ولحق بك إلى هناء.

لكنني خيبت ظن أمي وأحبطت تحدي أبي ، ونجحت بعد ستة أشهر فقط من علاقتي ببوريس في إقناعه بالهجرة إلى إسرائيل .

كنت سافرت إلى لندن كأنني في مهمة خاصة ، محمولة على قبلات سارة وهمساتها : «ستراك كثيرا في لندن اهوفالي» . وعدت إليها ، لكنني لم أعد زائرة هذه المرّة ، بل لأرى بوريس . لقد صدق حدس سارة ، ونجحت خطتها التي حبكتها بخطوات الرقصة الأولى .

أمضيت بصحبة بوريس عطلة صيفية رائعة في لندن استمرت عشرة أيام . عشرة أيام سبقت هجرته بوقت قصير ، سأظل مدينة فيها لسارة ولندن التي عشقتها لأجله إلى الأبد . شاهدنا معا أفلاما كثيرة ، تركنا بصمات مؤخراتنا على مقاعد باراتها ومطاعمها وحدائقها الجميلة ، أطعمنا حمامها في «ترافالغار سكوير» ، وبطها وبجعها في بحيرة هايد بارك ، وسقينا ورودها بأنفاسنا . تنقلنا بين متاحفها ومسارحها ، شاهدنا مسرحية «البؤساء» التي لم تزل تعرض منذ عشرات السنين وأدهشتنا . حقا ، على كل من يريد أن يتعلم الفنون المسرحية ، أن يتمشى على خشب مسارح لندن بقدمين حافيتين من كل ما تعلمه

دعاني بوريس إلى عشاء في مطعم «الدار» اللبناني في «إدجوار رود» . قال إن زميلا له من أصل عربي ، تعرّف إليه في كلية «هامر سميث» ، خلال دورة لتعليم اللغة الإنجليزية ، دعاه إلى المطعم ذات مساء ، وأدهشته الأطباق اللبنانية .

حين انتهينا ، همس لي بالإنجليزية ، وقد أحاطني بذراعه وأخذ يشدني إليه : «أنتم الإسرائيليون مثل العرب ، تولون في الحمص والفلافل» .

سحبت شحمة أذنه اليسرى بطرف أسناني الأمامية ودغدغتها مرات

عدة ، وهمست : «سأشبعك حمصا وفلافل في تل - أبيب» . وأضفت بالإنجليزية والعبرية وأنا أسند رأسي إلى كتفه : «أي لف يو . . أني أوهيفت» . فرد بالروسية : «يا لوبلو تيبيا» . طلبت منه أن يكررها فحمل ، وحفظتها : «يا لوبلو تيبيا» . صرنا نعشق بثلاث لغات .

مرت شهور . ابتلعت أمي نصائحها وتخلّت عن شكوكها . وقبلت بالوهم الذي صار حقيقة عليها أن تتعايش معها . واعترف أبي بخسارته أمام حلمي الكبير ، ولم يعد قادرا على الدفاع عن رهانه القديم .

قال في أول سهرة جمعتنا معا في بيته مازحا : «كان يجب أن تعملي في وكالة الهجرة اليهودية لا في المسلسلات التلفزيونية يا بنتي» .

لكن الأيام أثبتت أن أبي وأمي كانا على حق بطريقة ما ، وأنني فشلت في مهمتي تماما ، حين لم أتمكن من الاحتفاظ لنفسي بالمهاجر الذي أتيت به من لندن ، ووقفت إلى جانبه مرارا في أحلك أزماته ، بل أنا من ساعدته على الخروج من أسفبها خلال فترة إقامته في إسرائيل ، حين وجد نفسه يركض بلا هداه في جهنم الانتفاضة المشتعلة في مناطق الفلسطينيين . ولن أنسى قط ما حدث في مسائنا الأخير . .

«كل ما حذرتني منه وليد كان صحيحا» .

«وليد؟ . . وليد من يا دانى؟» .

«الفلسطيني الذي تعرّفت عليه في لندن . ألا تذكرين يوم دعوتك إلى العشاء في مطعم الدار؟» .

«آه . . زميلك في دورة اللغة الإنجليزية . لم تقل لي إنه فلسطيني؟» .

«بعد ذلك العشاء ، صرنا أكثر من زميلين ، يمكنك القول مشروع صديقين . اعترفت له برغبتي في الهجرة إلى إسرائيل . سألته عما يدور هناك ، وعن رأيه هو بالذات في ذلك . كنت غبيا ، حين لم أدرك

مدى تأثير ذلك عليه ، ولم تخطر ببالي حساسية الموضوع بالنسبة له . تجاوز الرجل ما في السؤال من حرج ، وحدثني بكثير من التفصيل . قال كلاما أرعبني في حينه ولم أصدقه : كفلسطيني لا أشجعك على الهجرة إلى إسرائيل ولن أفعل . بل يستحيل أن أقدم على عمل كهذا . لكني لا أستطيع أن أمنعك إن كانت تلك رغبتك . لست أول يهودي يهاجر إليها ولن تكون الأخير . كل ما أقدر عليه ، هو أن أبيّن لك بعض الحقائق التي أتمنى أن تختبرها ، على الأقل ، إن هاجرت فعلا . .

«اسمع يا صديقي ، ستحصل على الجنسية الإسرائيلية بلا متاعب ، بل ستجدها في انتظارك ، فأنت بالنسبة لإسرائيل (عوليه حداش) . قالها بالعبرية (عوليه حداش) وترجمها لي (مهاجر جديد) . تابع من دون توقف : رقم إضافي في سجلات المهاجرين اليهود . لكنك ستكون مواطنا من الدرجة الثانية مهما بلغت من شأن . سوف تمنح منزلا بتسهيلات لم تحلم بها ، لكنه غالبا ما يكون في مستوطنة بنيت على أرض الفلسطينيين . وسوف تؤدي الخدمة العسكرية ولا تخرج منها إلا مقتولا أو مشوها أو معوقا . وإن لم تمت تظل جندي احتياط إلى الأبد تنتظر تلبية نداء الحرب التالية . سوف يلقى بك في صراع لست طرفا فيه ، حتى الآن على الأقل . وربما تصبح قاتلا أو سجانا ، وربما ترفض الخدمة إن بقي لديك ضمير مثل كثيرين . الهجرة إلى إسرائيل يا صديقي بوريس ، صفقة متكاملة غير خاضعة للمساومة أو التجزئة ، ولا تتم بالتقسيط . .

«ليتني سمعت كلامه . . صحيح أن ما حدث لي يختلف بعض الشيء عما قاله ، لكن جوهره لم يتبدل كثيرا . . ليتني سمعت كلام وليد» .

«وما شأني أنا بوليد . . ماذا عنّي يا داني . . ماذا عن علاقتنا؟» .

«آسف يا دانا . . آسف أعوفاتي . . علاقتنا كانت صفقة غير عادلة . أخذتني أنت إلى تل - أفيف مهاجرا عاشقا ، وأخذتك أنا ومعك إسرائيل . . لقد قررت إلغاء الصفقة ، وداعا يا حبيبتي» .

ثم انحنى وسحب حقيبة سفره من تحت السرير ، فتحها وأخرج مغلفا سميكا وقدمه لي قائلا : «هذه نسخة مصورة فيها بعض يومياتي ، وبعض تفاصيل خدمتي في المناطق ، أشياء لم أبح بها لأحد ، وفيها شهادات رفاق مجندين ومجندات آخرين . تستطيعين الاطلاع عليها متى شئت . احتفظي بها يا دانا فهي قطعة من دانيال» .

وبكينا معا . بكينا حتى بللنا الليل كله بالدموع ، ونمنا ليلتنا الأخيرة على فراش من أحزاننا .

أنفجر باكية وأخفي دمعي بكفيّ . أبكي من دون داني أو نور الدين يجفف أحدهما دموعي بشفتيه . خمس ساعات سفر لن أحمل معي فيها سوى حزني المرير على لقاء لم يتم في لندن ، وبقايا ذكريات قديمة مع داني . أتوقف لثوان عن البكاء . ألتقط أنفاسا ثقيلة ، وأجدده بحدة أكبر .

أشعر بأصابع جاري تتسلل الى ذراعي اليمنى وتمسدها بلطف ، وبصوته يأتيني هامسا مثل ملاك أرسله ربّي في لحظة يائسة : «هل أنت على ما يرام يا سيدتي؟ هل أستطيع مساعدتك؟» .

أمسح بباطن كفيّ ما تبقى في عيني من دمع جف معظمه بلمسات أصابع هذا الغريب . يقدم لي جاري ورقة كلينيكس . يباغتني ندم طارئ «لماذا أستسلم لأصابع هذا الغريب؟» . أستيقظ من استسلامي له ، وأرفض ورقته بتهذيب ، كأني أرفض أن أكون مدينة له حتى بتجفيف أحزاني .

يسحب جاري كفه بعيدا . أشعر به ينفصل عني بهدوء ، وبي وحيدة بلا دفء كفه ولمسات أصابعه . يزداد ندمي ندما على الندم . إذ لا يمكن

أن تكون المشاعر الإنسانية خطأ كبيرا ، ولا حتى صغيرا ، بل وليست خطأ في الأصل حتى لو كان طرفاها غريبين .

أقرر أن أستعيد جاري وأسترد ذلك الإحساس الجميل الذي لم أستطع الاحتفاظ به طويلا . أشعر بالارتياح لقرار يخلّصني من عبء ندمي الطارئ . تنفرج شفتاي ببطء عن ابتسامة منهكة خارجة من بقايا حسرتي . أعتدل في جلستي . أنحني على حقيبتي الصغيرة . أتناول لوح الشوكولاته الذي كنت التهمت نصفه في قاعة الانتظار في مطار هيثرو . ألتفت إلى جاري وأمدّه إليه ، وأسأله إن كان يرغب في بعضه . لا يتردد ، ويطلب مني أن أقتطع له مربعا واحدا ، فأقدم له اثنين . يشكرني ويبدأ في التهامهما بمتعة :

«Ooommm very nice»

وألتهم أنا بقية لوح الشوكولاته بصمت وعلى مراحل ، أشعر بعدها بقليل من الارتياح .

أطلب من جاري ، بخجل ، أن يعطيني ورقة كلينيكس . يقدم لي واحدة مبتسما بطريقة فهمت مغزاها تماما . أقدر لحظتها أن جاري رجل بعيد تماما عن ظنوني ، وأن تجاهله بعد الآن ، سيكون خسارة ما .

أحاول اجتياز أسواره مرة أخرى ، والدخول الى عالمه ومعرفة سر تلك الرائحة التي توقظني على أجمل اللحظات : «أتدري . . لقد أعجبتني لكنتك الإنجليزية» .

يضحك مستغربا : «لكنتي أنا؟!» .

«هم هم . .»

«أتعرفين . .!»

أنصت له بهمهمة آلية ، فيتابع قائلا : «عندما سألتني عن رقم المقعد ، تمنّيت أن يكون مقعدك . قلت لنفسي ، أكون سعيدا لو جلست

هذه الشقراء الجميلة إلى جانبي» .

«أوممممم . . شكرا لك . . هذه مجاملة رقيقة منك . . وماذا أيضا؟» .

«قلت لنفسي ، إما أن تكون هذه الجميلة عارضة أزياء أو ممثلة» .

أفرح ، وتغمرني موجة سعادة انتظرتها منذ جلوسي إلى جانبه . أهتف مندهشة لقدرته على قراءتي من الداخل والخارج : «أنا فعلا ممثلة» .

أستدير بجسدي كله نحوه بعفوية ، وأنطلق في الحديث وقد تحرّرت من أحزاني ، ومن أية حسابات مجهولة ، مثلما تحرّر هو من بعض دواخله وربما من حسابات معينة لديه .

لكني بدلا من أن أدخل إلى عالمه ، أجدني أُخرِجُ إليه عالمي . أتحدث إليه بحماسة وبلا توقف كأنه صديق قديم . كأنني مع نور الدين في ركن بعيد عن الأنظار في روما . أحدثه وأمسح بقايا رحلتي الى لندن . أذيب كل المسافات بيننا ، ما ترسمه الغربة وما يفترضه فارق السن وخفايا جار غريب .

يسألني وأجيب مثل تلميذة في صف ابتدائي . أحكي له عني ، عن والديّ ، عن صديقي إيهود ، عن مخرجين عالميين التقيت بهم في هوليوود ، خلال رحلتي الأخيرة الى الولايات المتحدة ، التي سبقت توقفي القصير في لندن .

يشاركني جاري الحديث ، ويناقش معي أفلاما صادف أن شاهدها كل منا ، ويبدي رغبة واضحة في الاستماع إلى المزيد . ربما ليخلق المزيد من الإلفة . ربما لتبديد وحدة هذا السفر الليلي الطويل . ربما لشعوره بالارتياح للإنصات لحديث امرأة في مثل سني تذكره بثلاثينات العمر ، (مع أنه لم يزل يحتفظ بملامح من هو في الأربعينات وبحيوية ذلك العمر العابق بعنفوان الرجولة) . ربما لأن ثرثرتي تعفيه هو من الحديث عن نفسه .

أنتبه فجأة إلى شرود جاري . لعلّي أطلت الثرثرة فملّ من هذياني . أحدثه عن عكا لعلي أستعيد اهتمامه ، وعن مشاركتي في مهرجان فني كبير أقيم في المدينة . تشع عيناه بلهفة حقيقية للاستماع الى ما أقول . هل فتحت عكا قلب جاري أم ذكرته بما أجهله؟ أيكون هو نفسه من عكا؟ أم يكون سائحا سمع عن المدينة وخطط لزيارتها والتجول داخل قلعتها التاريخية التي تحرس البحر ، أو زيارة حمامها التركي الجميل . أود لو يعلق بشيء ، بكلمة تفتح لي الطريق إلى خزائنه ، لكنه لا يفعل . بل يواصل الاستماع بدهشة صامتة ، توقف اندفاعي كله وتوقظني من ثرثرتي المفتوحة معه .

ألتفت اليه بحدة وأسأله عن جنسيته .

الفصل الخامس

هــو

يفاجئني السؤال الذي شغلني منذ لحظة جلوسي في مقعدي حتى لحظة جلوسها ، ويسحبني من مشاهد الحرب إلى حافة الإجابة . «من أين أنت؟» . كنت محتارا ، منذ قلقي الأول ، في اختيار الجواب ، كأن أدعي مثلا بأنني يوناني أو قبرصي أو لبناني أو أي جنسية أخرى غير الفلسطينية ، خوفا من أن يصرخ أحدهم وسط هذا الجمع من المسافرين : «فلستيني . . فلستيني» . . حقا ، ماذا لو صرخ أحدهم فعلا : «في الطائرة فلسطيني»؟ ، وقد كنت سأتردد لو كان سؤال جارتي هو أول الأسئلة . أما الآن ، فقد ألفت جارتي وألفتني ، وصار باستطاعتي أن أعفي نفسي من ترددي وحتى من هواجسي السابقة . بل وأجيبها مشاكسا :

«لكنك لم تسألينى» .

«بل سألتك قبل ثانيتين» .

تعيد السؤال اليّ مداعبة ، فأعطيها إجابة تقريرية : «أنا فلسطيني أحمل الجنسية البريطانية» .

«آآآآآه . . فلسطيييني» .

تتأوه كما لو كنت فاجأتها أو أحبطت توقعات لديها . تعبث بخصلة من شعرها الذي فقد بعض بريقه الذهبي تحت الضوء الباهت الساقط على رأسها ، وتضيف متسائلة بنبرة محايدة : «هل تقوم

برحلة سياحية إلى إسرائيل؟».

«بل أزور والدتي وأقاربي في غزة».

«غزة؟!».

تتساءل مندهشة.

«نعم غزة».

تتخلى عن مداعبة شعرها، وتلتفت نحو الشباك كأنما تخفي انفعالا لا أرغب في الكشف عنه.

تضع قبضتها اليمنى تحت ذقنها، وتواصل التحديق في النافذة التي بدت مثل مرآة سوداء صغيرة، تعكس ظلا لسرا غامضا لأشياء نفكر بها ولا نراها، بينما صوت محركات الطائرة يتردد حولنا في إيقاع ثابت يشبه الصمت.

تخرج جارتي من المرآة، وتستدير على نحو مفاجئ، وتسألني بصوت راعش بالقلق: «هل تزور غزة كثيرا؟».

«بل هي زيارتي الأولى لها منذ ثمانية وثلاثين عاما، في الواقع لم أر أمي وأقاربي منذ تلك الحين».

تنتفض في مقعدها: «أوه... ثمانية وثلاثون عاما! حقا، سيكون ذلك مثيرا جدا... كيف ابتعدت عن أمك وأهلك كل هذه السنين؟ أنت قاسٍ جدا... قد لا يبدو عليك ذلك ولكنك مجنون... أنا آسفة... أنت فعلا مجنون».

«الاحتلال هو المجنون يا سيدتي».

لا تعلق. فأواصل بكثير من المرارة وبانفعال مسيطر عليه تماما: «منذ حرب ١٩٦٧ لم تعد عودتي ممكنة أو مسموح بها أصلا».

«حقا، لقد فاتني ذلك... أنا آسفة... أنا جد آسفة، ما خطر ببالي أنك غير قادر حتى على الزيارة... لكنك قلت إنك تقصد غزة فعلا.

كيف كذلك؟!».

«بلى، وسأدخلها بجواز سفري البريطاني الذي حصلت عليه أخيرا، وهو ما يسمح لي بالدخول إلى تل - أبيب».

ولسبب ما أجهله، أسرد لجارتي عناوين أساسية في حياتي. وتنصت لي هي باهتمام وفضول، وقد ألقت برأسها بين حافتي مقعدينا عند الزاويتين العلويتين المتقاربتين، تراقبني من دون مقاطعة أو تعليق، كمن تستمع إلى حكاية غريبة.

«ولدت عام ١٩٤٨، في قرية اسدود، التي تسمونها الآن اشدود. هاجرت عائلتي خلال الحرب إلى قطاع غزة مع من هاجر من جنوب فلسطين، واستقرت هناك. عشت طفولتي وصباي في مخيمات اللاجئين في خان يونس، وتلقيت تعليمي حتى نلت شهادة الثانوية العامة في مدارسها. تلقيت علومي الجامعية في القاهرة. وبعد تخرجي، طفت العالم كله لاهثا على قدمين من هجرة ورحيل لا ينتهيان. أجمع الليالي وأعطيها أرقاما بعدد ما عشت فيها من سنين. أيقف التاريخ في منطقتنا يزن وجودنا بميزان الجن القديم الأعوج. كنت أقول: كلما هاجر يهودي إلى إسرائيل، رُحِّل عشرات الفلسطينيين إلى مهجر جديد. ثم أستعيد القول لأن الميزان أعوج».

تلوذ جارتي بصمتها وأحتمي به ولا تعترض هجومي الأخير، (الذي لم أخطط له على أية حال). بل تهرّب انفعالاتها سرا عبر شباك الطائرة. هناك تتأمل نفسها في مرآة بلا ملامح، بينما تتسلل كفها اليمنى إلى كفيّ اليسرى، أمسك بها وتشد عليها بلطف، كأنما تعيد إليّ ما أعرفها من لمسات قبل قليل.

تنسحب من تأملاتها وتعود إليّ، وما تزال كفها تبث مشاعر دافئة على ظهر كفي المستسلمة: «أتمنى أن تلتقي والدتك سريعا والقضبان وقتا

طيبا . . أتمنى أن يقوم سلام بيننا وبين الفلسطينيين . . لقد تعبنا جميعا . . المشكلة هي في السياسيين عندنا وعندكم . شارون لا يريد السلام ، كذلك كان ياسر ارفات» .

تقول . وتسحب كفها ، وتتكئ بساعدها على مقبض الكرسي الفاصل بيننا .

«كلهم يقولون ذلك في محاولة لاقتسام الجريمة والمسؤولية عن الدم الفلسطيني (المباح لكل الأسلحة) : المتطرفون عندكم والمتطرفون عندنا . أود أن أقول لها : حسنا . . أخرجوا من أرضنا ، من برّنا ، من بحرنا ، من قمحنا ، من ملحنا ، من جرحنا ، من مفردات الذاكرة ، كما قال محمود درويش . وتكفلوا بتطرفيكم ، وسنتكفل نحن بتطرفينا» .

لا أقول ذلك ، فما جدوى متابعة استحضار هموم الشرق الأوسط كله على مقعدين في طائرة في لقاء عابر لا تبعات له؟! لا أقول ذلك ، بل أتمنى أن يخرج الفلسطينيون والإسرائيليون من ساحة الحرب إلى العيش المشترك . ونتمشى أنا وهي معا ، في أوتستراد طويل لا عداء فيه ولا معابر . لا اغتيالات ولا انتحاريين . لا مجندين ولا مقاومين . لا صهيونية ولا حركة تحرر وطني فلسطينية . لا انتفاضة ولا مستوطنات . لا شارون ولا عرفات . لا أبو مازن ولا شاؤول موفاز . لا شيوخ ولا مستوطنين . لا أباتشي ولا اف - ١٦ ، ولا انتحاريين . بل مسافران عاديان (عابران في «فضاء» عابر)» .

أخرج من هواجسي المستحيلة إليها : «بالمناسبة . . لم تقولي لي ما اسمك؟» .

«أنت لم تسألني!» .

«لم أشأ أن يتحول سؤالي إلى ورقة كلينيكس أخرى؟» .

«طيب ، لا تزعل . . اسمي دانا . . دانا نيومان ، وينادونني دانا أهوفا» .

«آها . . دانا المحبوبة . . اسم موسيقي يذكرني بدانا انترناشيونال ، الشاب اليمني الأصل الذي تحول إلى امرأة ، فازت بالمركز الأول في مسابقة يورو فيجن بأغنيتها ديفا عام ١٩٩٨ ، لعلك تذكرين ذلك؟» .

«لكني لا أريد أن أقول» .

تعقب مازحة . ثم تلتفت إليّ تسألني عن اسمي فأجيب : «وليد دعمان» .

تردّد الاسم من بعدي كأنها سمعته من قبل : «وليد . . وليد» .

أعلق مازحا : «هل تعرفينني سيدة دانا؟» .

تطلق ضحكة مترددة : «بل أستمتع بموسيقى اسمك . . وليييييد» .

وتتابع متسائلة : «وماذا عنك وليد؟ حدثني . . أريد أن أسمع المزيد» .

تبتسم وتشرق عيناها الواضحتان . تشبك ساعديها على صدرها وتنصت إليّ بينما أقول : «أنا متزوج من سيدة إنجليزية ولنا ولدان . أعمل صحافيا في جريدة أخبار العرب ، وهي صحيفة عربية دولية تصدر من لندن ، ولي نتاج أدبي متنوع» .

«وفيم تكتب؟»

«في السياسة والأدب والفن والنقد . . . ولي ثلاث روايات منشورة ، ورابعة لم أنشرها بعد» .

«وماذا تنتظر؟» .

«لست مرتاحا للعنوان الذي اخترته حتى الآن ، ولم أضع نهاية لها بعد . ثم إنني غالبا ما سأعيد النظر في العديد من مشاهدها ، وقد أضيف إليها الكثير من التفاصيل» .

وقبل أن تسألني «ولماذا لم تفعل؟» ، وتدخل في حوار أشبه بدردشة مع كاتب ، أضيف سريعا : «لقد وضعت أكثر من عنوان فعلا ، لكني ما زلت مترددا في اختيار واحد من بينها . منها مثلا ، عبر إسرائيل ، وأرض

الخطايا ، وموطن الظلال ، وعشرون يوما آخر . وحكاية عادل البشيتي ، . . ثم إنني فكّرت في وضع نهـاية للرواية من النوع الذي لا يحتـمل الإضافات ، وأخرى تشبه البدايات ، وثالثة مفتوحة على الاحتمالات ، ورابعة يضعها كل قارئ بطريقته . . ذات مساء ، كنت أجلس إلى مكتبي تقلّبني زوبعة من التردد والخيارات ، حين دخلت عليّ زوجتي ، جولي ، وكانت عائدة من عملها ، وأوقفت كل شيء على حاله ، بل وأزاحت جانبا من خياراتي» .

«لعلها عاتبتك على عدم غسل الصحون والأواني في غيابها؟» .

أبتسم . «بل فاجأتني بهجوم لم أتوقعه ، زادت من حدته تعبيراتها العربية المكسرة التي تعلمت الكثير منها خلال سنوات زواجنا . قالت : اسمع أ(ع) وليد . .انت مش بستنى جواز سفر . . صار ممكن زيارة ماما . هرام عليك . .ثمانية ثلاثين سنة ما بشوفك هيّ . . لازم سافر . . أو كي؟!» .

«سحبت من درج مكتبي بطاقة السفر ولوّحت بها أمام عينيها . فأطلقت واحدة من شهقاتها التقليدية : (آآآه . . . آآآه . . . لقد حجزت تذكرة إذن ، برافو وليد . . ماما ستفرح كثيرا . ولكن لماذا أخفيت عني ذلك؟) .

«وهل تظنين أنني سأسافر سرا . . سأكون عند أمي خلال ثلاثة أسابيع فقط . خلاص جولي خلاص دارلنغ . . صار لازم بشوفني هيّ على رأيك» .

«ثم لمعت في ذهني فكرة مغرية فأضفت سريعا : أتعرفين . . رحلة كهذه سوف تفيدني كثيرا في التعرف على جغرافية روايتي الجديدة بصورة واقعية ، وتعطيني فرصة نادرة لتلمس مناخاتها بطريقة أعمق وأفضل» .

ألتفتُ إلى دانا وأتابع : «بالمناسبة ، نسيت أن أخبرك بأن جولي

ليست زوجة كاتب وحسب ، بل وقارئة نهمة للروايات ، وتعشيرها جنونا واعيا ، وخصوصا الرواية الغربية واللاتينية بالذات . فهي من عشاق غارثيا ماركيز ، وايزابيل الليندي ، وميلان كونديرا ، ولوران غوده ، ويورخيس ، ويان كيفيلليك ، وكارلوس زافون . . . وكثيرين غيرهم ، حتى إنها أخذت فكرتي الأخيرة إلى فضاءات أكثر رحابة . قالت بالانجليزية هاربة من تكسيرها اللفظ غير المتعمّد للعربية : ما دمت ستدخل تعديلات على تفاصيل روايتك ، أقترح عليك أن تتابع خطوات بطلك عادل البشيتي كما ستعيشها أنت ، وتخلق بذلك مسارا آخر واقعيا في الرواية . فيمضي السرد في خطين متوازيين ، ولا بأس إن تقاطعا من حين لآخر . . أليست فكرة مثيرة يا كاتبي الذي يكتب بلغة لا أفهمها؟ . .

«علّقت على اقتراح جولي قائلا : بعيدا عن ذيل جملتك الأخيرة الذي لا يهشّ ولا ينشّ . . فكرتك ليست مدهشة وحسب ، بل ومجنونة مثلك ايضا . .؟» .

«لم أفهم . .

تقول دانا ، فأقاطعها قبل أن يدخل الملل إلى قلبها المستأنس حتى اللحظة بالحوار : «معكِ حق ، كان عليّ أن ألخّص لك فكرة الرواية أولا ، وأعرّفك على أبطالها . على أية حال ، أمامنا ليل طويل ، وها نحن جالسان في هذا الكرافان المعلق على أعمدة من وهم ، ملتصقان بمقعدينا ، وخير ما نفعله هو استذكار بعض تفاصيل الحكاية» .

«عفوا . . هل لك أن تؤخّر ذلك بعض الوقت ، أريد الذهاب الى الحمّام؟» .

«تفضلي يا سيدتي . .سلطة الحمام أقوى من إدارة بوش؟» .

تقفز ضاحكة من فوق ركبتي مثل قطة وتختفي في الممر الطويل شبه المعتم .

أستيقظ بعد لحظات مذعورا ، على يد تهزني من كتفي اليسرى ، وعلى صوت يهمس في أذني: «وليد .. هل أنت؟»

«[illegible] ..... ها .. مين .. ليش .. لو لو .. وين؟» .

«آسفة ، لم أكن أعرف أنك غفوت» .

«بل أشكرك كثيرا ، لقد أنقذت حياتي» .

أتثاءب قليلا ، ثم أمسح وجهي بكفيّ أنظفه من بقايا النعاس وأتابع : «لقد غفوت فعلا .. رأيت حلما فظيعا .. فظيعا جدا يا دانا .. حلمت بأنني جندي في سلاح المظلات ، وأنني وزملائي نهبط من طائرة نقل حربية في منطقة قتالية . حين جاء دوري قفزت بحماسة شديدة ، وبدأت أهوي بسرعة جنونية . وفجأة وجدتني في وسط حقل رماية يطرني الرصاص من كل الاتجاهات . حاولت فتح مظلتي ففشلت ، ورحت أتقلب في الفضاء وقد التفت حبال المظلة حول جسدي . وفي النهاية ، التي كانت أرحم من النهاية على أية حال ، استقريت في وضع مقلوب تماما . ساقاي إلى أعلى متفرجتان ورأسي إلى أسفل ، وعيناي تحملقان برعب في أرض جبلية ناتئة الصخور تندفع نحوي بسرعة هبوطي ، وقبل أن أرتطم بها وأتحول إلى

«أيقظتك ..» .

«بل أنقذتني فعلا» .

«آه .. لابد أنك متعب من طول الجلوس ، أترغب في تأجيل الحكاية؟» .

«لا لا ، انتظري لحظة فقط . لن أذهب إلى الحمام على أية حال» .

أنهض من مقعدي وأقف في الممر وسط أنفاس تتقطع حولي ، وهمس متناثر ناعم ، وشخير عدواني يتردد هنا وهناك . أحرك ذراعيّ وساقيّ قليلا ، أمشي بضع خطوات عبر الممر وأعود .

«أنا الآن أفضل بكثير .. هيا بنا إلى الحكاية ، أما زلت راغبة في سماعها؟» .

«طبعا طبعا .. أسرع» .

«عادل البشيتي ، فلسطيني حاصل على الجنسية الألمانية ، يعمل موظفا في أحد فروع (دويتش بنك) في فرانكفورت . يعود إلى قطاع غزة الذي غادره للدراسة قبل ثلاثين عاما ، عن طريق مطار بن - غوريون ، مرورا بحاجز إيرز . حين كان في التاسعة عشرة من عمره ، أحب عادل ابنة جيرانهم ، ليلى دهمان (وهي إحدى قريباتي بالفعل ، إذ لا دهمان هناك غير عائلتنا ، التي يشار إليها بالدهامين) . قبيل التحاقه بإحدى جامعات فرانكفورت ، يأخذ عادل عهدا على نفسه بأن لا يتزوج غير ليلى ، وتعده هي بالانتظار إلى أن ينهي دراسته ويعود . لكن عادل لا يعود . تقع حرب ١٩٦٧ ، ويسقط القطاع تحت الاحتلال ولا يعود . يقرر متابعة دراسته ويحصل على ماجستير في إدارة الأعمال .

يظل عادل مترددا في الزواج لسنوات ، يحلم خلالها بالعودة إلى ما اعتبره حبه الأول والأخير ، وإلى ليلى التي لم يكفّ عن السؤال عنها كلما هاتف والدته صبحية في غزة . إلى أن جاء من يخبره بأن ليلى تزوجت من ابن عمها وضّاح (وهو قريب لي أيضا) . يسقط حلم عادل من نفسه كما يسقط من السماء شهاب محترق .

في أثناء تحضيره رسالة الماجستير ، يتعرف عادل إلى طالبة دراسات عليا مثله ألمانية ، تدعى ماريلين كراوز . تحبه ماري ، كما يحب أن يناديها ، كثيرا . أما هو ، فيسكنها ركنا في غرفة عشق جانبية في قلبه المشغول بليلى ، وتبقى هناك لسنوات مثل نبض احتياطي . في النهاية ، يلتفت عادل إلى ماري ، ويصبح النبض الاحتياطي حقيقيا ، حاضرا يدق بقوة في أيامه ولياليه .

يقرر عادل دفن حلمه القديم والزواج بماري ، التي انتظرته طويلا على غير عادة نساء تلك البلاد . يتزوجان وينجبان ابنة ، يشتق لها عادل اسمها من اسمه : «عدالة» ، تنطقه والدتها «أدالا» ، ويطيب لها أن تناديها ، أحيانا ، «أديل» الأقرب إلى ألمانيتها . لكن الزواج لا يستمرّ أكثر من عشر سنوات ، وينتهي بالانفصال فالطلاق . إذ يفشل عادل في التأقلم مع عادات ماري واستيعاب تقاليدها وتصرفاتها ، رغم سنواته الطويلة التي أمضاها في فرانكفورت ، مثلما يفشل في فرض تقاليده المحافظة ، نسبيا ، عليها . أما عدالة فتختار العيش مع والدها . في الثامنة عشرة من عمرها تلتحق بإحدى جامعات برلين . بعد تخرجها ، تتزوج من عازف ساكسفون أميركي تتعرف إليه مصادفة ، رغم معارضة والدها ، وترحل معه إلى نيويورك .

يفاجأ عادل ذات يوم ، بوالدته تخبره على الهاتف ، أن وضاحا زوج ليلى دعمان ، قتل برصاصة قناص اسرائيلي . وحين استفسرها عن تفاصيل ذلك ، قالت إن لا أحد يعرف . وإن البعض يقول إن الجندي استهدفه لأنه يريد أن يقتل وحسب . وأن آخرين قالوا إنه كان يجري تمرينا على القنص بالذخيرة الحية .

تستيقظ ليلى ، التي بلغت الثامنة والأربعين من عمرها ، في قلب الرجل الذي تجاوز الخمسين . وتوقظ معها دقات قلب تركها عادل معلقة على حبال عودة لم تتم .

حين تصبح عودته إلى البلاد ممكنة ، يقرر عادل السفر الى غزة والبحث عن ليلى . (كلانا يحتاج الآخر الآن . . لدينا من العمر ما يكفي لحب يدوم حتى الموت) . يهمس بذلك وهو يغادر شقته إلى مطار فرانكفورت .

في الطائرة التي أقلته إلى تل - أبيب ، يتعرف عادل البشيتي إلى

الإسرائيلية آرنه كتساف . سيدة في العقد الخامس من عمرها ، تخبره بأنها أستاذة للعلوم السياسية في جامعة القدس . وأنها أمضت بضعة أيام في واشنطن ألقت خلالها محاضرة في جامعة جورج تاون بدعوة من إدارتها ، حول مستجدات الصراع في الشرق الأوسط وآفاق السلام في المنطقة . ثم جاءت إلى فرانكفورت حيث أمضت ثلاثة أيام فقط ، زارت خلالها المتحف اليهودي ، ومتحف (يودينغاسه) المجاور له ، في سياق برنامج أعدته لنفسها لزيارة المناطق التي تعرض فيها اليهود للاضطهاد .

تحدثه آرنة عن مشاهداتها في المعرضين ، وعن جانب من حياة اليهود في حي (يودينغاسه) الذي يعد من أوائل الغيتوات اليهودية في ألمانيا ، و(الهولوكوست) ومعاناة اليهود في تلك المنطقة .

يشعر عادل بأن آرنة قررت ، منذ البداية ، تقديم نفسها من خلال (مأساة اليهود) ، التي لم يكن هو أو أي من آبائه أو أجداده طرفا فيها ، بل كان وعائلته وبقية الفلسطينيين ضحاياها غير المباشرين . يحدثها بدوره ، عما تسببت به هجرة اليهود إلى فلسطين من مآس لسكانها توجت بنكبة عام ١٩٤٨ ، وعن هجرة عائلته إلى غزة ونشأته في مخيم للاجئين ، والاحتلال الذي يتواصل لما تبقى من أرض فلسطينية منذ ثمانية وثلاثين عاما .

يقضي عادل وآرنة ساعات السفر على مقعدين متجاورين ، يقلبان ذكريات كئيبة مثيرة للأعصاب ، تظللها مشاعر الخوف الممزوج بالتوجس والحذر والتحدي والفضول» .

لا تبدي دانا حماسة للاستماع الى المزيد من تلك الحكاية الجانبية ، فتقاطعني بحدة وبشيء من التوتر : «دعنا من هذه التفاصيل المزعجة . . وقل لي ، هل يلتقي عادل بليلاه . . أسرع . . لن أذهب إلى الحمام؟» . وتلكزني بقبضة يدها في ساقي اليسرى ، كما حدث بأحد رجلين يجلسان

خلفنا ، إلى إطلاق نحنحة استياء مؤقت ، تلجأ دانا بعدها إلى همس يلاحق بعضه : «هيا هيا ، هل تنتظر أن يصرخ الرجل حتى تتكلم؟» .

«لم أقرر بعد إن كانا سيلتقيان أم لا . . على أية حال سيتحدد ذلك خلال وجودي في غزة» . . هذا هو الخط العام للرواية التي لم أضع تصورا محددا لنهايتها» .

«وما الذي يمنعك؟» .

«أفضّل أن يكون ذلك بعد انتهاء زيارتي ، حيث أكون قد عالجت خط السرد الأخير الذي اقترحته زوجتي ، والمتعلق بوقائع رحلتي هذه ومشاهداتي . وقد تتاح لي ، لاحقا ، فرصة مناقشة بطل روايتي في مستقبل علاقته بليلى ، وقد نتفق معا على وضع نهاية واحدة لحكايته ، فمن عادتي مناقشة أبطالي في الوقائع الأساسية في حياتهم . ثم إن ما تبقى من رحلتي قد يحمل إليّ مفاجآت أخرى . أجمل ما في السفر ، هو تقلب مشاهده أمام المسافر مثل مواسم غير مستقرة . . ألم يقدمك لي خلال الساعات القليلة التي قضيناها معا : طفلة فاتنة تغري شخصيتها بمتابعة عالم جديد عليّ إلى حد بعيد؟ . حقا ، لقد أوقع حضورك أول افتراق مؤقت بيني وبين عادل البشيتي . أصبح لدي الآن ، بطلة واقعية تناقس أرنه كنساف وتهمشها تماما . لقد أنقذني وجودك من سرد كان يمكن أن يقتصر على تقديم حكاية حب تقليدية بين عادل وليلى ، لو لذذ كلانا في الصمت ، وننا في فراشه وأطلقنا شخيرا كالذي أيقظك في بداية الرحلة .

«شخصية في رواية . . هذا ما رأيته في دانا إذن؟» .

« كلانا شخصية في رواية تتشكل وقائعها الآن . يحركنا مؤلف يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا . . وقبل أن تسأليني عنه ، أؤكد لك أنني لا أعرفه ولا أعرف حتى اسم روايته التي جعلني بطلها ، وجعلتك الصدفة وحدها

شريكة لي في بطولتها . لأنني مثلك أيضا ، لا أستطيع الخروج من النص والتسلل إلى الغلاف وقراءة ما هو مكتوب عليه . هذه ميزة يتفوق بها قارئ عادي على شخصيات تلعب دور البطولة في روايات لا تعرف اسمها ولم تتعرف على مؤلفيها» .

«لا تسرح بي وليد . . أنا سأواصل حياتي في تل - أفيف ، ولا يستطيع صاحبك المؤلف المجهول ، أن يمنعني من ذلك ، وهو لا يهمني أصلا» .

«لكنك تهمّينه ، ولابد أنه يأسف الآن لاقتراب رحلتنا من نهايتها ، لأنه سيتحمل وحده متابعة سرد الوقائع اللاحقة المتعلقة بك على الأقل . .

«دعه يتابع كما يشاء . . يخلق حياة أخرى لا تخصني . . دانا أخرى لا أعرفها» .

« . . وسوف يترك لي سرد وقائع ما تبقى من رحلتي ورحلة عادل البشيتي . . وسيجري ذلك كله في نص منفصل سأعتبره «رواية مولودة» ، تخرج من رحم ما يتشكل الآن ، تنفصل عنه ولا تقطع صلات الرحم به . سأجعل عنوانها (موطن الظلال) ما رأيك؟ . وسأكون مؤلفها الوحيد ، ولن أضع اسم صاحبنا على الغلاف ، إذ يكفيه تربعه وحده على الغلاف الرئيسي» .

«يجلس كل منكما على غلاف وأتربع أنا على خيبتي!» .

«ما رأيك أن نطلب من مؤلفنا ، الذي يراقبنا الآن ويستمع إلينا ، ويمكنه التعاون معنا أو إلقاؤنا خارج النص أيضا ، أن يضع اسمك على الغلاف وباللغة العبرية إن شئت سيكون لذلك معنى ودلالة كبيران . ربما يمتعض الناشر بعض الشيء ، لكنه قد يستحسن وجود كلمات غامضة على غلاف إحدى مطبوعاته» .

«تقصد ناشرك أنت أم ناشر مؤلفنا الذي لا نعرفه؟» .

«أقصد من سيتولى تسويقنا جميعا ، أنت وأنا وبقية الشخصيات ، ويبيعنا في المعارض والمكتبات نسخا من رواية . . على أية حال ، أنا أضمن لك وجود اسمك تحت عنوان الرواية في الصفحة الداخلية على الأقل» .

«أنت تسخر مني يا وليد ، أو لعلّك تتسلى بي؟» .

«للأسف . . لقد التقيتك متأخرا يا دانا . . ولو كان ذلك حدث قبل عشرة أعوام مثلا ، لسلّيتك بطريقة أخرى» .

«Sharap man»

تقول بمرح ، وتضيف : «ذكّرتني جنونك أيها الفلسطيني بجنون السينما والمسلسلات التلفزيونية وبعض سناريوهاتها الغريبة التي شاركت بها . لكنني أعترف أنها المرة الأولى التي أشارك فيها في بطولة رواية تكتب في حضوري . . وهي حامل . .

«أتعرف . .

تتوقف للحظات . ترفع رأسها إلى أعلى ، تحدق في المصباح الباهت المعلق فوق رأسينا ، ثم تعود وتلتفت إليّ وتضيف : «لمع في ذهني عنوان جميل لروايتك التي لم تزل في بطن أمها ، ظلال لبيت واحد . . ما رأيك؟» .

«ظلال . . لبيت واحد . . هممم . .» .

أتظاهر بالتفكير في اقتراحها ، وأحك ذقني بأطراف أصابعي مثل مخرج سينما احتار في قبول لقطة انتهى من تصويرها ولم يقنعه أداء ممثليه ، بينما تنظر إليّ بترقب . ثم أتمتم : «أممممم . . .»

«اسمع . .» .

تقطع تمتمتي من وسطها ، لتقول بصوت تتخلله نبرة قلق واضحة :

«في هذه البلاد التي نتجه إليها معا ونفترق فيها معا ، أرض واحدة وبيت واحد ، ما إن تشرق الشمس وتسقط أشعتها عليه ، حتى ينبت له ظلان . نحن يا وليد ظلان لمأساتين اجتمعتا في مكان واحد . ما حدث لنا ترك ظلالا سوداء عليكم . وما يحدث لكم يصبغنا بظلال أكثر سوادا . . شبحان لا يرتاحان أبدا . . كلما هدأ ازدادا جنونا» .

« ظلال لبيت واحد . . حقا . . عبر تاريخها الطويل ، كانت هذه الأرض مزرعة للظل والضوء . يتجليان في تناقضهما الأزلي لكي يستمرا . انظري الى الظل ، إنه كيان قائم بذاته ، لا يلد إلا في الضوء ، ولا يموت إلا في العتمة . مخلوق غريب شديد الحساسية . يتشكل في اللحظة التي يلد فيها الضوء ، ويختفي حين يموت . وهو صبور ، مثل أيوب ، يتحمل دوس أقدامنا حين تتعامد الشمس فوق رؤوسنا وتسحقه . أنت لا تعرفين أيوب . إنه نبي يعتقدون أن الدود نهش لحمه . يحتفل الغزاويون ، مثل سكان الاسكندرية المصريين ، بعيده مرة كل عام بالذهاب إلى البحر والاستحمام فيه . يعتقدون أن أيوب كان يغتسل في يوم أربعاء معين من كل عام ، لكي تشفي ملوحة البحر جراحه الثخنة ، وتطهّر جسده حتى العام التالي . .

«أتعرفين . . لقد تأخر حمل أمي بعد زواجها من أبي عاما كاملا . كانت طفلة في الثالثة عشرة من عمرها . نصحتها نساء اسدود بالاستحمام في البحر في أربعاء أيوب . وقلن لها أن تترك نفسها للموج يأتيها مثل روح كأنها العذراء مريم . وطلبن منها أن تغني للبحر سبع مرات :

يا بحر يا بو موج كبير
حبّلني بولّودة ازغير
جوزي رح يطلقني

إن ما خلّفتش بكير

«تضحكين . . ! سوف تضحكين أكثر ، إن قلت لك إن أمي صارت تشك في أن البحر استجاب لغنائها فعلا وحملت بي . وقد حاولت مرة أن تختبر صحة ظنّها العجيب ، فراحت تخبر أبي : «إبتعرِف يا بو وليد . . مش يمكن البحر حبّلني» .

ضحك أبي ورد عليها : «صحيح انك مرة مجنونه . . صدّقتِ تخريف النسوان وفكّرتي حالك مريم العذرا . لو كنتِ انحبلتِ م البحر لطلعت عينين وليد زرقا؟!» .

اندهشت أمي ، ونظرت في عينيّ وأنا بين ذراعيها وقالت : «والله معك حق يا بو وليد ، الصبي عينيه زي سواد الليل» .

وكانا يتضاحكان كلما تذكرا ذلك .

ونتضاحك نحن معا ، بينما تنظر دانا في عينيّ تبحث عن ليلهما وهي تقول : «لكم تراث غريب حقا» .

«هذه البلاد يا دانا ، معجونة بالتاريخ واللغات والسحر والحقائق والأساطير والرسل والأنبياء والقدّيسين والكذابين والحروب والأشرار . كل ذلك أنتج ما فيها من تراث بشري عظيم . لكنه أنتج أيضا ما يفوقه من مصائب وخراب . . أعجبني العنوان الذي اقترحِته . . أشكرك على ذلك . . ما كنت أعرف أن دانا روائية أيضا» .

«ما كنت اعرف أنك فيلسوف كبير . . على فكرة . . إذا تزوجت وتأخر حملي ، سأذهب إلى بحر تل - أفيف في يوم أربعاء مثل امك ، وأستحم فيه مرة في الصباح ومرة في ساعة الغروب ، لكي أحمل بتوأمين . . «حتما سأكون بحاجة الى توأمين ، واحد لنور الدين والثاني لإيهود» . . لكن دعنا من هذا كله ، وحدثني عنك ، عن وليد الذي يجلس إلى جانبي ، أريد ان أعرف المزيد؟» .

«حقا ، لقد ابتعدنا كثيرا . . أنا يا سيدتي أعيش في لندن منذ ١١ عاما تقريبا . . وأكره العنف بكل أشكاله . بالمناسبة ، لم يكن عادل البشيتي محظوظا مثلي ، فقد كانت أرنة عصبية المزاج . وكان نقاشها يتأرجح يمينا ويسارا . تقف في الوسط أحيانا ، لكنها سرعان ما تغادر موقعها ، ويتلبسها قلق واضح وينتشر على ملامحها التوتر . كانت مثل ظل يركض هاربا من صاحبه . كان حظ عادل سيئا إذ أمضى إلى جوارها تلك الساعات الطويلة . .

«لكني لست مثلها . . أليس ذلك؟» .

تقول مقاطعة بينما أهمهم «هم هم» ، وأهمس لنفسي : «لو كنت مسؤول تجنيد عناصر للموساد ، لرفضت طلب دانا الالتحاق بالجهاز بلا تردد ، رغم ما تتمتع به من عناصر الإيقاع بالخصم . .» ، وتضربني بكفها اليمنى على كفي اليسرى رافضة مجرد مقارنتها بأرنة . فأعيد لها ضربة أكثر مازحة بينما تضيف ، «أنا أعشق الحياة والناس والسلام . . لكن قل لي» .

«همهم» .

«لو طلبت منك أن ترسل لي بعض ما كتبته هل تفعل؟ هل ترسل بعض نتاجك لإسرائيلية تعرفت اليها مصادفة؟» .

«لو اعترفت لي دانا . .

«سأعترف لك . . .

تقاطعني قبل أن أحدد لها شكل الاعتراف ، أو أعرف ما الذي كانت ستعترف لي به أصلا . ويقاطعها هي صوت مضيفة تسألنا معا كما لو كنا صديقين قديمين : هل ترغبان في كوبين من الماء؟» .

«لا» .

نرد معا ، ونشكرها بصوت واحد : «Thanks» . وننسى الاعترافات ، نتركها معلقة على حيرة صامتة .

أخرج من جيب بنطالي ورقة وقلما، وأطلب منها أن تكتب لي إيميلها فتفعل من دون تردد. أتناول الورقة من يدها. أقتطع ربعها السفلي الأيمن. أستعيد القلم وأكتب لها إيميلي وأقدمه لها. تنظر إلى الورقة قليلا، ثم تدسها في حقيبتها الصغيرة وتقول: «يحمسني أن أطلع على بعض نتاجك، وقد نتبادل الرسائل كما في الرواية أيضا، وقد نصبح صديقين في الواقع.. من يدري!»

«حسنا، سأبعث إليك بعض ما ترجمته إلى الإنجليزية».

«وأنا أعدك بأن أسأل عنك وأطمئنّ عليك».

أعيد ما تبقى من الورقة إلى جيب بنطالي. ولا أدري إن كنت سأرسل لها بعض نتاجي فعلا، أو إن كانت هي ستفي بوعدها وتسأل عنّي. لكنّي سأكتب «ظلال» ليست واحدة بإيقاع جديد حتما.

نصمت معا من دون اتفاق على الصمت. تلتقط دانا سماعتي الموسيقى الصغيرتين وتضعهما على أذنيها. تطفئ المصباح الصغير فوق رأسها. تحرك مقعدها إلى الخلف، تثبته وتلقي بظهرها عليه. أدرك أنها ترغب في قسط من الراحة، بعيداً عن الحديث الذي ظل بيننا في أعماق الليل. أفعل مثلها، ونغفو.

تفتح لحظات الفجر الأولى أعيننا على إشارات ربط أحزمة الأمان مضاءة، وصوت مضيفة يعلن عبر الميكروفون عن استعداد الطائرة للهبوط.

ترتعش بنا الطائرة قليلا فوق سطح البحر الذي بدا صاعدا نحونا بسرعة كبيرة ويكاد يلامس عجلاتها. وتتسابق أشجار نخيل متفرقة في تعريف أنفسها إلينا، قبل أن تطلق الطائرة رعشتها الأخيرة فوق مدرج مطار بن - غوريون، وتتهادى كمن يلتقط أنفاسه بعد ركض طويل، ثم تستدير باتجاه مخرج خروج الركاب المخصص لها، حيث تستقر هامدة متعبة مثلنا من طول السفر.

الفصل السادس

هـــي

لم يفاجئني ما كشف عنه جاري وحسب، بل أرعبني [illegible]. أدرت وجهي بطريقة لا إرادية إلى النافذة الصغيرة إلى جانبي، أخفي انفعالاتي في عتمتها. إنه لا يعرف وقع غزة عليّ، مثلما لا أعرف وقع عكا لديه. غزة التي دخلت تفاصيل حياتي وحبكتها. غزة التي تثيرني وتحرجني في آن:

عندما ألتفت إليه تعتريني حيرة حقيقية، «لا أعرف إن كانت ملامحي قد فضحتها أم لا. فهل حانت اللحظة التي عليّ أن أصارحه فيها بما أعرفه، لحظة انفتاح الأسرار على الأسرار، أم إن الاحتفاظ بمسافة معينة بيننا سيكون أرحم لكلينا؟».

لا أقوى على المصارحة، ولا أقوى على الابتعاد كذلك. ألجأ إلى تطوير السؤال علّني أكتشف جديدا لديه. أسأله إن كان يزور غزة كثيرا، فيجيب بأنها المرة الأولى منذ ثمانية وثلاثين عاما. أعاتبه على ابتعاده كل تلك الفترة عن أهله، وأصمت.

وعلى غير ما توقعت، يواصل جاري الحديث من دون أن آخذ على ذلك، ويزيل بعض الغموض عن ملامحه، وأتلهف أنا على سماع المزيد: «ما سأقوله لك ليس سراً، ولم يعد كذلك بالنسبة للكثيرين على أية حال. وليس لدي ما أخفيه، ولا يضيرني أبدا أن تعرفي بعضه».

«هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها فلسطينيا ، وأتحدث إليه عن قرب . سوف يفتح أمامي ملفه الشخصي ويسمح لي بالاطلاع على ما أجهله . أشعر بارتياح لهذا الرجل الذي بدأ يصالحني مع نفسي ، وقد يصالحني مع ماضي ، وربما مع حاضري الذي صار هو نفسه جزء منه ، حتى اللحظة على الأقل؟» .

يتابع جاري حديثه ، ويروي وقائع أسمعها للمرة الأولى . وتتسلل الى صوته نبرة غضب خفيفة راعشة ، تتداخل مع صوت محركات الطائرة الرتيب تسبح في جوف الليل الطويل : «كلما هاجر يهودي ما من بلد ما إلى إسرائيل ، انتقل فلسطيني ، وربما عشرة إلى مهجر جديد» . وتزداد كلماته قسوة حين يقول : «تسقط مهاجركم لتبدأ منافينا» ، ويصمت .

يلتفت إليّ فجأة بحدة ، من دون أن يقول شيئا ، بل يمد صمته متفحصا ملامحي كمن يحاول لملمة انفعالاتي عنها تحت الضوء الخفيف الذي يظل صمتنا .

يمدد صمته صمتي ولا أجد ما أعلق به . لقد بدا لي للحظات عنيفا ، وبدت كلماته أكثر قسوة مما توقعت . كان كمن يجلدني لذنب لم أرتكبه .

تنتابني حيرة وتسكنني للحظات مشاعر متناقضة . أفكر في غربته الطويلة فيقشعرّ بدني . أموت لو فارقت أمي وأبي لشهرين . أنا لا أقوى على الانفصال عن والدي حتى للإقامة في مدينة أخرى لا تبعد سوى كيلومترات .

يغرق جاري في صمته ، ويبدو لي كمن دخل أعماقه واسترخى هناك . أفكّر في طريقة لرد الجميل إليه . أن أسأله مثلا ، ما سألني في لحظة يحتاج فيها الى السؤال ، «هل أنت على ما يرام يا سيدي؟» .

سبقتني كفي اليمنى إلى ذراعه اليسرى . كانت أسرع من قدرتي

على اتخاذ القرار فسبقتني . وراحت أصابعي تتحسس ذراعه بحذر ، مثل صبية تتعرف على ملمس جسد رجل للمرة الأولى ، وتضغط عليها بلطف . ألتفت إليه وأقول له بضع كلمات ، كلها أمنيات بلقاء طيب مع والدته وبسلام يجمعنا في عيش مشترك ، وأسكت .

تأخذني دواخلي فجأة إلى أسئلتنا عنا ، عن أسمائنا التي تبادلناها مثل تحية عادية ، دانا . . وليد . . وليد . . إلوهي ، **أيكون هذا الرجل الذي أمضيت إلى جانبه كل هذا الوقت هو نفسه زميل بوريس ابراموفيتش في كلية همر سميث؟ أيكون هو من دعاه الى مطعم الدار اللبناني الذي دعاني إليه بوريس ايضا؟!** .

ألتفت إلى وليد ، أحدق في ملامحه كأن الإجابة مكتوبة عليها . أستبعد ذلك . هذه مصادفة نادرة الحدوث ، بل تبدو مستحيلة . ثم إن وليد قد يكون اسما شائعا عند العرب مثل بنيامين أو دانيال عندنا .

أتخلّى عن ظنوني باحثة عن استراحة قصيرة منها في عالمه ، فأقطع صمتنا بنعومة : «حدثني عنك أكثر وليد . . أحب أن أسمع المزيد» . وأطلق ابتسامة عريضة مشجعة ، يلتقطها وليد عن شفتي . أنسى ما فكرت به قبل قليل ، وتشرق عيناي بلهفة طفلة تستمع لحكاية من حكايات قبل النوم .

أشبك ساعدي على صدري بحركة صبية مراهقة ، وأراقب شفتي وليد تستعيدان دفء كلامه : «أنا متزوج من سيدة والدها إنجليزي ووالدتها من أصل فلسطيني ، ولنا ولدان . كان والدها ، جون ليتل هاوس ، ضابطا في جيش الانتداب البريطاني في فلسطين في أربعينات القرن الماضي . تزوج من فتاة فلسطينية من عكا ، أنجبت له بنتا وحيدة هي جولي . وقد عاش السيد ليتل هاوس وأسرته هناك سنوات طويلة . ثم تركت عائلته الصغيرة عكا على أبواب حرب ١٩٤٨ ، حين طلبت بريطانيا من رعاياها

مغادرة البلاد قبيل سحب جيشها بالكامل واندلاع الحرب . كانت جولي لم تتجاوز الثالثة من عمرها آنذاك . ولابد أن والديها ، وخصوصا والدتها ، حدثاها كثيرا عن عكا التي صارت لا تغيب عن بالها» .

«هذه بعض أسرار عكا لديه إذن!» . أقول في سرّي وقد زدت تألقا مع جاري . أسأله بتحبب : « في أي موضوعات تكتب وليد؟» .

«أكتب في الأدب والسياسة ، وأنا روائي أيضا . . . لي ثلاث روايات منشورة ، والرابعة لم تكتمل بعد ، إذ أقوم بهذه الرحلة التي بدأت بمفاجأة كبيرة . .»

أقاطعه مكملة عبارته : « تقصد هذا اللقاء : كاتب فلسطيني عائد إلى بلاده بعد ثمانية وثلاثين عاما ، يلتقي عالمة إسرائيلية على متن طائرة متوجهة الى اسرائيل . . .» .

يتابع حديثه الذي قطعته للحظات ، وأفكّر أنا في ما يقول . تستوقفني تفاصيل روايته كما لخّصها لي ، وحكاية بطليه عادل البشيتي وأرنه كتساف . أفكر في ذلك ، يتراءى لي ظل مأساتنا المشتركة التي لم تتوقف عن إنتاج نفسها عبر عشرات السنين .

أقترح عليه أن يسمي روايته «ظلان لبيت واحد» . يلقي عليّ محاضرة في مفهوم الظل لديه وتجلياته الغريبة .

أشعر بي غريبة عني ، وبكلامه يأخذني مسافات أبعد مما تحتمل مشاعري . أقرر الخروج من مشاهد التغريب التي أحاطت بي ، ومن اختيار وليد لي شخصية في روايته التي يكتبها وظلا لبطلتها أرنه كتساف . أسأله عن ميوله السياسية . يتردد قليلا ، كمن يرغب في البقاء في نصه الذي أضاعني بين الخيال والواقع . وأخيرا يقول : « أنا من مؤيدي السلام إلى أبعد الحدود ، وأكره العنف بكل أشكاله . . هل يكفي ذلك؟» .

«كأنك دانا بالضبط» .

نتبادل المزاح بالأيدي . تتراقص حولنا ظلال مزاحنا ونبدو مثل طفلين . أفكر في الاعتراف له بما يشغلني منذ جئت إلى لندن . أحدثه عن علاقتي بنور الدين . هو أكثر معرفة بطبيعة العرب وبتقاليدهم وأمزجتهم . رأيه سيكون مهما بالنسبة لي ، وقد يساعدني في فهم أعمق لحكايتي الغريبة .

أفتح قلبي له ، وقبل أن تصعد حكايتي إلى شفتيّ ، تخلقه كلمات مضيفة تنحني على وليد من خلف مقعده ، وتسألنا إن كنا نرغب في كأسين من الماء .

أتنفس عميقا . لقد أنقذتني المضيفة بسؤال عادي من كارثة غير عادية . فقد كادت سذاجتي تدفعني إلى الاعتراف بسرّ خطير في حياتي لرجل غريب تعرّفت إليه مصادفة .

نتبادل معا عنواني إيميلينا ، والوعود بالتواصل وتبادل الأخبار . وأختتم أنا ذروة التعارف التي بلغناها معا سعداء قائلة : «انتظر مني مفاجأة بعد وصولك» .

«أتمنى ان تكون جميلة مثلك» . يقول .

ويسود بيننا صمت دافئ يشبه ما انتهت إليه أحاديثنا . أتناول سماعتي الموسيقى وأضعهما على أذني . أطفئ ضوء المصباح فوق رأسي . أحرّك مقعدي الى الخلف ، أثنيه وألقي بظهري إليه . أنصت بعمق لأغاني البوب المنبعثة من مسجل الطائرة . أشعر برغبة عميقة في أخذ قسط من الراحة ، وربما من الحديث الذي أسعدني وسلاني بقدر ما أثار فضولي وشجوني أيضا . وأغفو ولا أستيقظ إلا حين تضاء إشارات أحزمة الأمان ، وتعلن مضيفة عبر مكبر الصوت الداخلي ، عن استعداد الطائرة للهبوط .

ترتعش بنا الطائرة قليلا فوق سطح البحر . أنظر عبر الشباك . أغسل وجهي بضوء الفجر الآخذ في الانتشار تحت سماء فضية صافية ، فوق

زرقة ماء فيروزية طالما ملأت عيني بالسعادة وأنا أرقبها من شرفة شقتي . وإلى أشجار النخيل المنتشرة على مقربة من الساحل تركض أمام عيني ، تتسابق لاستقبالي مثلما تفعل كلما عدت من رحلة في الخارج كأننا أصدقاء .

تتوقف الطائرة وتسكت محركاتها تماما .

أنهض من مقعدي ، وكذلك يفعل جاري مثل كثيرين من ركاب الطائرة ، ممن يتعجلون الخروج ويمضون وقتا طويلا في الممر . أتناول حقيبتي وأستعد للخروج . يقف وليد قبالتي بقامته المتوسطة مثل متوسطياته كلها . ينظر إليّ كمن يبحث عن وسيلة ناعمة لفراق مع لقاء ملتبس . وأجدني قريبة منه أيضا ، غير قادرة على وضع نهاية معقولة لأطول مصادفة في حياتي .

أخيرا ، أقطع الصمت الخجول الواقف بيننا لأعلن عن بداية فراق ، لا أعرف إن كان سيمتد دهرا أم تنقطعه صلة ما بيننا : «أتمنى لك رحلة سعيدة وليد . .قبّل والدتك كثيرا» .

يردّ عليّ بمشاعر محايدة : «ولك أيضا يا داناه» .

يمشي وليد مبتعدا بين المقاعد ، ويضيع مني في زحام الزاحفين نحو باب الطائرة . وأمضي بدوري بعده بقليل خارجة الى فضاء البلد الذي ولدت فيه ، وكبرت فيه ، وأحببته كما يفترض فيّ أن أحبه .

novel

وليد دهمان

ظلّال لبيت واحد



وليد دهمان

ظلاّن لبيت واحد

هذا النص مهدى الى المؤلف الذي منحني
فرصة المشاركة في كتابته وتنازل لي عن جهده . .
وإلى أهلي الذين ينتظرونني في غزة علّني أجدهم .

وليد دهمان

الجــزء الأول

الفصل السابع

ها هي أرض فلسطين . بعد سبعة وخمسين عاما على نكبة حملتها صغيرا ، من مسقط رأسي في قرية أسدود بعد سقوط المدينة بيد القوات الإسرائيلية ، أعود باحثا عن تراب أشمه ، فلا أجد سوى بلاط مبلطاً ، وقاعة استقبال مزدحمة بقادمين اصطفوا بطريقة عشوائية لا تدل على انضباط تقليدي ، في طوابير أمام مكاتب عدة لمراقبة الجوازات ، تجلس خلفها مجندات من الأمن الإسرائيلي (الشين بيت) .

أتخذ مكاني في الطابور الثاني من اليمين .

هنا وقفت ليا بورلان قبل أكثر من عامين . وقد تكون وقفت هناك ، أو هناك حيث تبحث عيناي عن ظل خطواتها .

تعرفت إلى ليا في أمسية أدبية أقيمت في جامعة سواس قبل أكثر من عام ، فقصت خلالها انطباعات عن زيارتها الأولى لإسرائيل وفلسطين .

هاتفتها قبل ثلاثة شهور تقريبا ، وأخبرتها برغبتي في زيارة فلسطين عبر إسرائيل . هتفت بدهشة وفرح : «أنا أيضا ذاهبة إلى إسرائيل لزيارة شقيقتي» .

اقترحت عليها أن نذهب معا ، فرحّبت بفرح أكبر : «ستكون رحلة مدهشة ومثيرة . . أكثر فأكثر . . أكثر فأكثر» .

قلت لها : «تأخذينني أنت إلى إسرائيل صديقة ومترجمة . . هل تعطين؟» ، وواصلت من دون أن أنتظر ردها على اقتراح مازح استدعته

اللحظة ليس إلا : «وآخــذك انا الى قطاع غــزة عند أمي؟» . هل كنت سأفعل حقا؟ أقول لها ولبقية أقاربي ، هذه ليا . . ليا بورتمان . . صديقة بريطانية يهودية؟ سوف ينفجرون غاضبين ، ويتكرون عليّ صداقة عادية . ثم يدقون طبول الفضيحة لقريبهم الذي جاء بعد غيبة ستين مع امرأة ليست زوجته ، أو من بقية أقاربه كما يقولون ، جاي وجايب معه مرة . . . يا ريت مرة وبس . . أيهودية كمان ، وتغني النساء :

هيا وليا!!! يا بنيّة
يا شقرا يا!!! ألمانية
اربعين سنا!!!! متغرب
راجع معوووو يهودية . .

ويُسخمن صوت أمي : «يا سخام البين علينا ويا فضيحتنا عند اللي يسوى واللي ما يسواش . . روح خلّيها تروّح أحسن يقتلوها ويقتلوك» .

الأفضل ألا أقول لهم انها يهودية ، عملا بنصيحة راوي سمير اليوسف في روايته «طريق بنتونفيل» ، حين خاطب كاتي ، التي كانت قد زارت غزة من دون أن تكشف عن ديانتها ، قائلا : «لو أخبرتهم بأنك يهودية لكانوا صنعوا منك لحما مفروما» .

استبعدت ذلك . يفرمون ليا ويصنعون منها كفتة بالصينية؟! لا لا لا . . لا أعتقد . ربما بالغ راوي سمير بعض الشيء . عميرة هس ، الصحافية الإسرائيلية اليسارية النشطة ، أقامت سنوات في غزة ، وفي الضفة الغربية . وكانت تمضي أياما وليالي في المنتدى أو في المقاطعة عند الرئيس ياسرعرفات ومع من هم حوله مثل واحدة منهم . عائلة دهمان لم

تفرم احدا من قبل . الأغلب أن ترحب أمي بليا بطريقتها المحببة : (ضيوفك على راسنا يمّة)» .

ضحكت ليا على الهاتف : «أووه وليد . . نذهب معا! لا أكاد أتصور ذلكَ أبدا» .

لكن ليا أخبرتني بعدها بأيام قليلة ، أنها أجلت سفرها إلى إسرائيل لانشغالها بنشاط ثقافي مفاجئ في ألمانيا . تعود ليا إلى ألمانيا التي هرب منها والداها في أواخر الحرب العالمية الثانية . قُتل جدها وجدتها في معسكرات النازية . ووصل والداها الى لندن ، وأقاما في شمالها وسط أبناء الجالية اليهودية التي تجمعت هناك عبر السنين . وولدت هي في لندن ، شقراء بملامح أوروبية كبرت معها .

تحضرني ليا بعينيها الزرقاوين ، وطاقيتها التي تخفي بعضا من شعرها الأصفر الناعم ، وملابسها الفضفاضة مثل جلباب مصري ، ومشيتها اللامبالية . أتخيّلها تقف في واحد من هذه الطوابير معلنة : «أنا يهودية بريطانية» ، معتبرة إسرائيلية شقيقتها شأناً يخصها وحدها .

أحاطت بها اللحظة كما أحاطت بعادل البشيتي وتحيط بي الآن ممسكة بخناقي . كتبت ليا تصف مشاعرها آنذاك : «كنت مضطربة بعض الشيء حين وصلت . وازددت توترا حين تصايح عدد من مستقبلي طالبين مني الانحناء وتقبيل الأرض تحت قدمي ، ولم أفهم لماذا كان علي أن أفعل ذلك . . لا أنا إسرائيلية ولا هذه أرض ميعاد لي . لم أقرر الهجرة ولن أفعل ذلك أبدا ، ولدت بريطانية وسوف أبقى كذلك . .» .

لم تنتم ليا لهذه الأرض ، واعتبرتها أرض دولة أخرى . ودانا تعود إلى البلد الذي تنتمي إليه . أما أنا وعادل البشيتي ، فقد انتمينا إلى هذه البلاد قبل الآخرين . . في التاريخ والجغرافيا ، في الماضي والحاضر ، في الرواية والحقيقة ، في الضوء والظل . هل حقا ما زلنا ننتمي؟» .

تلاحقني مشاعر متناقضة يوقظها سؤال الحاضر ، الذي أرعبني وأنا أزحف مع الزاحفين نحو شباك مراقبة الجوازات : «أي أرض ستقبل حين تغادر المطار يا وليد؟ أتقبل أرضا لم تلونها حمرة طين أرضك التي تشبه الحناء على كف فلاحة؟ لا عِرق زيتون يتمدد في شرايينها ، ولا حبات عَرق نزفتها جباه أجدادك عليها وبللت ريقها في مواسم البذار القديمة؟ . لست دانا ولا ليا بورتمان . والأرض التي تقف عليها قدماك لم تعد أرض فلسطين . اليافطة الزرقاء الكبيرة التي تقرأ نفسها عليك ، ترحب بك مثل أي غريب : «أهلا بكم في مطار بن - غوريون» .

منذ هبطت من الطائرة والسؤال يمشي معي ويقلد خطاي . تتطلّع معا بدهشة الى أناس عاديين يتناول بعضهم وجبة إفطار وآخرون يرتشفون القهوة متناثرين على مقاعد عدد من المقاهي الصغيرة الجميلة ، الموزعة بعناية داخل دائرة تشعل رغبة المسافر في البقاء ضمن حلقتها . «هل هم عاديون حقا؟» . أستعيد سؤال عادل البشيتي في لحظات ملتبسة مماثلة . سؤال طرحه كثيرون قبل ثلاثة وثلاثين عاما : لماذا فتح ثلاثة يابانيين النار على الناس في قاعة الوصول في مطار اللد القديم عام ١٩٧٢ ، وحولوا قاعته إلى بركة دم؟ هل كان الفلسطينيون بحاجة إلى يابانيين يعلمونهم المقاومة؟ هل كان اليابانيون الثلاثة طليعة مؤسِّسة لثقافة الانتحار العبثي الذي رعته الجبهة الشعبية ورعتهم آنذاك؟ هل كانوا يكمكزون الكفاح الفلسطيني؟

ضحك عادل البشيتي ساخرا : «طلع للفلسطينيين شرش ياباني . . . مُجاهْدين كماكيز» .

همست في أذن بطل روايتي : « بل صار لهم أحفاد عبثيون يا عادل» .

يعلو صراخ بالعبرية ، بين رجلين يعتمر كل منهما قبعة سوداء ، تتدلى من تحتها خصلتان لولبيتان من شعره الأسود . على بعد أمتار مني ،

ثمة امرأة تلفّ رأسها بمنديل ، وتلبس قميصا أزرق غامقا ، وتنورة رمادية فضفاضة تنسدل حتى تلامس حذاءها الأسود ، تقف ممسكة بقبضة يد عربة أطفال غفا فيها طفلها الصغير . تدفع العربة لتلحق برجل في الطابور المجاور فيعترضها أحدهم . يحاول الرجل أن يقنعه فلا يقتنع . يبدأن شجارا لفظيا يبلغ سريعا حافة الانفجار الكلامي ، قبل أن ينتهي بعودة المرأة الى مكانها السابق ، وقد ناولت الرجل جوازي سفر .

يأتي دور الرجل . يتوجه إلى الشباك . يقول للشرطية بضع كلمات ويشير إلى المرأة . تناديها الشرطية باسمها : «مريام عمار» .

تدفع المرأة العربة وتتقدّم نحو الشباك وسط صمت الآخر المعترض وخيبته .

يأتي دوري . تأتي اللحظة التي أسلم فيها نفسي بإرادتي إلى شرطية تنتمي ، في نهاية الأمر ، إلى المخابرات الإسرائيلية .

أزحف بقلق متزايد نحو الشباك الذي لم يعد يفصلني عنه سوى مترين . أصطنع ثباتا شكليا يخفي دقات قلب يحاول الهرب من مخاوفه . صدري يرتج بعنف مع وقع خطاي الزاحفة ببطء . يرعبني احتمال عدم السماح لي بالدخول ، أو إحالتي الى غرفة جانبية لتحقيق تتولاه شرطية أمن تقشر تاريخ حياتي طبقة طبقة ، وتبحث عني في التفاصيل؟ .

حين وصل عادل البشيتي ، أحيل فورا (ولسبب غير معروف) ، إلى غرفة جانبية للتحقيق . وهناك ، جرى تفتيش ذاكرته القريبة والبعيدة . أُخضع تاريخ حياته ، منذ ولادته في المجدل عسقلان حتى هجرته إلى ألمانيا ، لاستجواب قاس : نُبشت أماكن عمله . انتُهكت علاقاته . اُعتدي على أصدقائه ومعارفه . تعرّضت ميوله للاختبار . حتى كتب المال والأعمال التي تراصت على أرفف مكتبته في بيته في فرانكفورت ، قُرئت عناوينها وقُلّبت بعض صفحاتها . وخرج عادل من الغرفة (التي سماها

ساخبرا غرفة تشليح المعلومات) ، بعد ساعتين كاملتين ، يلعن يوم زيارته ويندم عليه .

ماذا لو قررت هذه الشرطية (وهي الأمر الناهي هنا) ، إعادتي إلى لندن؟ . ماذا لو حدث ذلك فعلاً؟ . كل شيء سينهار : أحلام أمي التي تنتظر أن أدخل عليها بعد ساعة أو أكثر بقليل ، لأضيع في حضنها تحت الظلب مباشرة ، فرحة العمر كله . أراني على صدرها طفلاً عاد إليها في السادسة والخمسين ، وضعه حكايات عبأتها عشرات السنين . وأنا وأحلامي باستعادة الوطن . الوطن الذي امتد في دهاليز العمر والذي طعم الفراق بعد الفراق . وعادل البشيتي ، وخطواته التي جئت أبحث عنها ، وأرسم خارطة لها تضفي مصداقية على التفاصيل؟ . . .

«Good morning»

ألقي تحية الصباح بطريقة رسمية محايدة ، على شرطية أمن تجاوزت الثلاثين من عمرها ، تقبع خلف الحاجز الزجاجي لشباك مراقبة الجوازات ، تتطلع إليّ من خلف نظارتين طبيتين ، وأدفع بجواز سفري البريطاني عبر الكوة نصف الدائرية أسفل الحاجز الزجاجي .

تسحب الشرطية جواز السفر وتردُّ بتهذيب رسمي محايد أيضاً :

«Good morning, how are you today Sir»

«Fine, just fine»

تُقلّب أوراق جواز سفري بصمت . ويمضي وقت قبل أن تسألني بعينيها أسئلة ذات مغزى ، تمررها من تحت نظارتيها . تنبش بمفاتيح كمبيوتر تدير لي شاشته ظهرها بازدراء .

أتابع بصمت أصوات طقطقة المفاتيح تعلن عن بداية تقلب سجل حياتي . . تك تك تكتكتكتك تك .

تلتقط المرأة طرف شفتها السفلى بأسنانها العلوية ، وتهمهم : هممممممم . وبعد لحظات تؤمئ «اممممممممم . . . » ثم تبتسم وتدفع حاجبيها عالياً مقوسين حول عينين مفتوحتين على دهشة تقلقني . «هذا ملتك الشخصي إذن . حافل بالمعلومات كما أرى» .

ربما قالت شيئاً كهذا يفسر همهمتها وأماماتها الطويلتين وابتسامتها المندهشة . وربما كانت ترسم ملامح أولية القرار تنوي اتخاذه ، يتحول إلى فعل ما يتكد على عيشتي . «لا خيارات لديها . . . إما أن تدخلني بأدب ، أو تعيدني ، بأدب أيضاً ، إلى غرفة المخابرات للتحقيق أخرج بعده من المطار كما خرج عادل في نهاية الأمر . طبعاً بعد أن يفهمني زملاؤها أو زميلاتها في الأمن العام ما أفهموه له ، من أنه (وأنا مثله) ، في إسرائيل . وأنني ينبغي ألا افكر مجرد التفكير في تجاهل هذه الحقيقة ، حتى لو كنت مولوداً على أرض المطار ، أو عثروا تحتها على بقايا عظام أجدادي ، أو أحدهم على الأقل . وسوف يتغزلون ببريطانيتي ويمتدحون حكمة الانتماء إليها ، كما قالوا لعادل (إحمد ربك أنك إنكليزي . فرد عليهم بعناد تلقائي : لو حملت جنسيات العالم كله رح أظل فلسطيني) . أعرف أنني بريطاني الجنسية ، وأن ما في ذاكرتي ليس سوى ماض لم تعد له تفاصيل الحاضر ، لكن له طعم الحقيقة . والوطن حقيقة ترفض أن تموت تحت ضربات وقائع تاريخ لم يرحمها . الوطن ليس ظلاً ، الوطن صورة يحضر جانب منها هنا ، ويحضر آخر هناك ، في الجهة الأخرى حيث أمي .

أراقب الشرطية من دون أن يغيب عني إحساسي بأنها تراقبني بدورها من خلال ملفي الذي تقلبه حتماً على شاشة الكمبيوتر . . . تك تك تك تكتكتكتك تك . .

تمضي اللحظات بطيئة قاسية باردة ثقيلة قلقة ، التي خلالها أن توجه

لي سؤالا ما ، سؤالا واحدا فقط . أن تقول لي كلاما مسموعا ومفهوما لا همهمة فيه ولا تأتأة . لكنها لا تفعل . بل تعذبني بصمت . تضع عقلة سبّابة يدها اليسرى بين شفتيها . تحركها فوق أسنانها . تتنهد عميقا وتهزّ رأسها بحيرة ظاهرة : «ماذا أفعل بك؟ . لا بد أنها تقول ذلك الآن ، كأنها لم تشبع من مرمرتي حتى الآن» . ثم تعود إلى طرق مفاتيح الكمبيوتر . تعضّ شفتها السفلى مجددا ، وتهمهم وتؤمئم طويلا هممممم أوممممممممممم .

يعاودني قلقي ، ويتزايد إذ تستدير الشرطية قليلا الى اليسار ، وترفع سماعة هاتف داخلي أسود معلق على الجدار . تضغط بسبابة يدها اليمنى عددا من مفاتيح الأرقام ، تك تك تك تك تك ، وتضع سماعة الهاتف على أذنها اليسرى . «سيكون مصيري مصير عادل حتما . هذه المرأة ستطلب من يقودني إلى غرفة التشليح» . تنتظر بضع ثوان ، ثمّ تعيد السماعة إلى مكانها على الجدار وتستعيد وضعها السابق .

«ما الذي يدور في عقل هذه المرأة؟ هل عدلت عن استدعاء أحد زملائها أو زميلاتها من رجال الأمن أو نسائه ، أم تتلاعب بأعصابي ، منتشية بتقليبي على نار نظراتها الحارقة؟» .

«هل هذه زيارتك الأولى لإسرائيل؟» .

تفاجئني بالسؤال منهية بذلك ترقبا بدا أزليا لبعض الوقت .

«نعم» . أرد .

تتلاحق أسئلتها وتتلاحق إجاباتي : «ما هو عنوانك في إسرائيل؟» .

«وجهتي هي غزة» .

«لماذا؟» .

تعود أصابعها لتعبث بمفاتيح الكمبيوتر ، فأفهم أنها تدون ما أقول على الأغلب ، بينما أجيب : «لم أر امي وأهلي منذ أربعين عاما تقريبا . ثم

إنني قد أقوم لاحقا ، بجولة في البلاد ، لدي العديد من الأصدقاء الذين قد أزورهم» .

«منذ متى تقيم في بريطانيا؟» .

«منذ ١١ عاما تقريبا» .

«تقصد واحد . . واحد؟» .

«نعم ١١» .

«ما هي طبيعة عملك هناك؟» .

«صحافي» .

«هل لديك ما يثبت ذلك؟» .

أخرج من جيب بنطالي بطاقة عضويتي في نقابة الاتحاد الوطني للصحافيين البريطانيين ، (NUJ) وأقدمها لها . تلقي نظرة سريعة عليها ، ثم تعيدها إليّ وتتابع أسئلتها : «في أي صحيفة تعمل؟» .

«في صحيفة (أخبار العرب)» .

تبتسم . أسارع الى القول : «هذه صحيفة . . .»

تقاطعني وتكمل ما لم أكمله : «دولية» .

«هل تعرفينها؟» .

ترد : «هاااا هءَ . . . أنا ابنة الشرق الأوسط وعلى معرفة جيدة بالصحافة العربية» . وتتابع أسئلتها : «هل الاسم المدون في جواز سفرك هو اسمك الحقيقي؟» .

«منذ ولادتي في اسدود عام ١٩٤٨ ، وأنا أحمل اسمي معي ويحملني معه : وليد أحمد دهمان» .

يسقط الختم الذي لا أراه ، ولكن أسمع صوت كلكلته على بطاقة المرور : تلاتتكليك طج تكلت .

تسقط ثلاثة أرباع مخاوفي .

«تفضل مستر دهمان . . رحلة سعيدة» .

وتعيد إليّ جواز السفر عبر الكوة نصف الدائرية مرفقا ببطاقة الدخول .

أشكرها وأستدير مبتعدا أبحث عن حقيبتي .

الفصل الثامن

دانا أهوفا

أصل إلى قاعة فحص الجوازات منهكة . تتأرجح على كتفي حقيبتي الصغيرة ، وفي ذهني متاعب الأربع وعشرين ساعة الأخيرة . لكن المشهد سرعان ما يغرقني في تفاصيل أخرى . الكل يتسابق ليجد له مكانا في واحد من الطوابير التي تشكّلت قبل أن أصل . كأن ركاب الطائرات كانوا نائمين أمام مكاتب الجوازات ، كما ينام الناس أمام «سوبر ماركت» أفلس ويريد التخلص من بضاعته بأسعار رمزية . أو أن طائرات الكون كله هبطت في وقت واحد مع الطائرة التي أقلّتني ، ودلقت جميعها ما في جوفها من ركاب في قاعة الوصول .

ألتحق بنهاية الطابور الخامس . ألتفت الى اليمين . ألمح وليد شاردا في الطابور الثاني ، يقف كأنه لا ينتمي اليه ، وقد عقد ساعديه على صدره . ولابد أنه غارق في مشكلته الخاصة ، يفكر في الإجراءات الأمنية وفحص الجوازات . وربما في ما قد يتعرض له عند معبر ايريز لاحقا ، مع أنه يحمل الجنسية البريطانية ، ولا أتوقع أن ينتظر طويلا ، أو يتأخر في الانتهاء من الإجرامت الأمنية المعتادة .

تمضي خمس دقائق على وقوفي في الطابور دون أن يعيرني أحد أي اهتمام . حتى قامتي الطويلة التي تعلو رؤوسا كثيرة ، وشعري الأشقر الذي يسبح بين عشرات الرؤوس ، ما بين محجبة وأخرى تعلن عنها قبعة

سوداء ، أو كبة تعلقت بربع رأس صاحبها ، لم يلفت أي منها نظر أحد . كأن هؤلاء القوم ، الذين شاهدوني مرارا نصف عارية على شاشات تلفزيوناتهم ، لم يتعرفوا عليّ في ملابسي . توقعت أن يرحب بي شخص ما على الأقل ، أو يسألني أن أضع توقيعي على أوتوغرافه ، أو يرقص نحوي مهنئا بالسلامة «هاروخ معشاه» ، فلم يحدث . إلا إذا كان بعض رجال الأمن العام المتخفين في ملابس مدنية ، قد فعلوا ذلك ، نظموا لي استقبالا سريا لا علم لي به . ولعلهم يتابعونني الآن بحثا ، يحصون عليّ تحركاتي ورحلاتي . فهم لم يتوقفوا عن ذلك منذ هجرة ذاتي إلى الخارج قبل سنوات ، كأنني كنت مسؤولة عن فقدان إسرائيل أحد مواطنيها .

قبل رحلتي الأخيرة إلى كاليفورنيا ، أبلغتني صديقتي شولاميت كاريتيلي عضو الكنيست ، أن همسا كثيرا يدور في الأوساط الأمنية عن ترددي مرارا على روما ، وأن أسئلة عدة تثار حولي . لكن شولاميت لم تذهب أبعد من ذلك ، واكتفت بالقول : «انتبهي لنفسك يا داليا .. انتبهي أصدقائي» . ولم تشر شولاميت إلى نوعية الأسئلة ، وما إذا كانت تعني علاقة ما لي ، أو حتى بالشك في وجود علاقة .

انتابني شعور بأن نور الدين لم يكن وحده مراقبا وملاحقا في روما ، وبأنني كنت مثله ، وبأن ثمة من كان يرصد تحركاتي ويعدّ خطاي هناك ، وأن علاقتي بنور الدين ليست خارج الأنظار أبدا ، لأنني أنا نفسي لست بعيدة هنا في تل - أبيب نفسها عن تلك الأنظار : رفضي أداء الخدمة في الجيش إلا في الشؤون المدنية ، علاقتي السابقة مع دانيال التيرمان ، وهو راقص من نوع آخر ، لم هجرته للعاكسة ، نشاطي ضمن مجموعات يسارية ، وأخيرا الاقتراب من خطوط أمنية بلون الإشارات القاتمة للمرور : ثلاثة إسرائيلية شهيرة على علاقة بابن زعيم عربي مرشح لخلافة والده

في زعامة بلده . علاقة لن تفوتهم حتى أقل المؤشرات عليها أهمية . وسوف يتابعونها على أمل أن يمسكوا ببعض خيوطها . حينها ، إما أن يحاولوا التأثير على مجريات العلاقة وتطورها ، أو يضعوا عراقيل في طريقها ، أو يرتكبوا حماقة أبعد من ذلك بكثير .

كنت أشك ، أخوف ، أحس ، أستشعر ، وكان نور الدين يتخطى ذلك كله ويأخذه على محمل أكثر جدية وخطورة : كان يدرك أن الأمر لن يقتصر على رجال الموساد وحدهم ، بل إنه لن يكون بعيدا عن اهتمام رجال الأمن في بلده ، من قد يكلفون سرا ومن دون علمه ، بمراقبته حفاظا على حياته ، والتدخل في الوقت المناسب . كانت ثقته عالية بمرافقيه الشخصيين وسائقي السيارات التي يستخدمها في تنقله ، (وتنقلاتنا السرية معا) وخصوصا النايف وهاشمي . لكنه كان يدرك أن هؤلاء لن يكونوا وحدهم في مدينة مفتوحة مثل روما التي يتردد عليها كثيرا ، وأن الأمن الإيطالي ، لن يدع شخصية مثله تغرب عن أنظار رجاله ، وكان يردد أمامي ، أنهم لن يكونوا مرتاحين لأي عمليات أمنية ما قد تقع على أراضيهم يصبحون طرفا فيها . هذا الصحافة التي كان يخشى ملاحقتها لنا أكثر ما يخشى رجال الأمن . كان يخاف ما يعتبره أكبر فضيحة سياسية ، إذا ما تسربت أية معلومات عن علاقتنا قبل الأوان ، وما يستتبع ذلك من تشابكات وتعقيدات يصعب فك خيوطها . كان يقول بين الجدية والمزاح : «إذا اكتشفت علاقتنا يا داليا فسوف يفرح بعض العرب ، ويعتبرونها اختراقا أمنيا عربيا في قلب إسرائيل ، واختطاف نجمتها التلفزيونية الأولى ، مع أننا لو تزوجنا ، فسوف يتظاهرون مطالبين بإعلان إسلامك ووضعك الحجاب على رأسك لتبديد الشك وإثبات حسن النيات» .

أما أنا ، فمنذ تعرفت عليه ، لم يفارقني الإحساس بأن الاختراق الحقيقي وقع عمليا في قلبي وحدي ، وأسعدني مثلما أوجعني أيضا .

كنت أقول لنفسي ، يستطيع نور الدين أن ينفي ، عبر أي جهة رسمية في بلاده ، أي علاقة له بي . بل وتستطيع تلك الجهة ، أو الجهات ، التأكيد على لسانه ، أنه لم يسمع باسمي أصلا . وربما تلتزم الصمت وترفض التعليق وكأن الأمر برمته لا يعنيها ، أو أنه مجرد هرطقة صحافية . ولن يكون بمقدور نور الدين نفسه ، التدخل بصورة مباشرة ، بالنفي أو التأكيد ، طالما لم يقرر الحديث عن علاقتنا .

ومنذ فشل لقاء لندن الأخير ، صار ما في القلب يدميني . أقول لنفسي : سيحلو لبعض العرب اعتبار القصة كلها ، حبكة أتقن رجال الموساد ترتيب حلقاتها بهدوء . زرعوني مثل نبتة فاسدة في أرض عربية خصبة ، في قلب رجل لن يقوى على طرد شقراء مثلي والصمود في وجه إغراتها . وقد لا ينجو أحدنا من اغتيال مدبّر ، وربما طاولتنا سيوف الصراع معا في وقت ما من الأوقات . إن لم يحدث هذا ، سيقول البعض منهم ، ان الخطة تقضي بزواج العاشقين ، لكي تحتل إسرائيل نصف عرش بلاد حبيبها العربي كما احتلت قلبه وأقامت فيه مستوطنة لها ، وربما إدارة سياسات بلاده من غرفة النوم .

أما في إسرائيل ، فستدور في الأوساط المعنية وغير المعنية ، أحاديث عن ارتباطي بجهات معادية ، وباحتمال اعتناقي الإسلام والتخلي عن يهوديتي . تفاصيل لم يتوقف نور الدين نفسه عن مشاركتي في طرح احتمالاتها في كل مرة نقترب فيها من تلمس حقيقة خطورة علاقتنا في سرّيتها وعلانيتها . لكن نور الدين ، كثيرا ما كان يطمئنني ، وتدفئني كلماته وأنا يقظة غافية على صدره ، حين يهمس لي : «ما دام قلبانا نظيفين مثل حليب الناقة فلا تخافي يا داناتينو» .

أسأله ضاحكة : «ولكن لماذا حليب الناقة يا نوردينو ، أنا لم أر ناقة في حياتي ولا أعرف ما هي» .

يرد مازحا : «ستريتها كثيرا إن شاء الله . . إنها زوجة الجمل» .

أضحك بقوة وأسأله : «ولم لا تقول حليب تسله؟» .

لا يركض أحد نحوي ، أو يهتف للسيدة دانا وقد فاجأه حضورها : «أدونا دانا ، تفضلي أنت تستحقين القفز فوق كل الطوابير» . بل ينطلق فجأة صراخ رجل يتوزع على كل الطوابير «عفوا يا سيدي . . النظام هو النظام» . وأسمع صياح رجلين من دون أن أتبينهما . ويبدو أن ما يشبه شجارا جماعيا يندلع بين مجموعة في الطابور الثاني حيث كان يقف وليد ، (الذي اختفى تماما ولم أعد أراه) ، أو في ما يجاوره من طوابير بات يصعب التعرف على حدودها ، أو حتى من يقف في أي منها لشدة الفوضى والزحام .

ثمة من يصيح : «انت لا تستحي أبدا . . أقول لك زوجتي متعبة من السفر ، وطفلنا يرقد في عربته لم ينم طيلة الليل ، وأستسمحك أن . . .»

وثمة من يقاطعه : «التزم الطابور مثل الآخرين» .

أرفع رأسي قليلا ، مع أنه لا يحتاج إلى ذلك ، وأحاول أن أتبين الرجلين ، فيقع نظري على قبعتين سوداوين تتأرجحان فوق رأسين تتدلى جدائلهما حول وجهيهما . «لا يخجلان ، يتبادلان الشتائم والسباب ، ويختلفان على موقع في الطابور ، بينما يستعدان لعطلة نهاية الأسبوع شابات شلوم .

مساء اليوم ، سوف يطفئ كل من المتصايحين النور في بيته ، بدءا من السادسة حتى صباح الغد . ويتوقف عن كل شيء يفعله البشر الآخرون احتراما لشبات شلوم ، حتى عن كلام الحب . يشعل شموعا تضيء نفسه التي تتشاجر الآن على عتبة عطلة أسبوعية .

أخيرا يزحف الطابور ، الذي انتظم الآن الى حد ما ، بعد أن انتهى نصف الركاب ، على الأقل ، من معاملات الدخول وغادر القاعة .

التفت مجددا إلى مصدر الشجار . ألمح سيدة محجبة بلباس تقليدي ، تبدو في العشرينات من عمرها ، تجر عربة تحمل طفلها . لا بد أن المشكلة التي وقعت قبل قليل كانت مع زوجها . أخمّن . أتأملها من بعيد . تشبه كثيرا خالتي شوشنا . لماذا حضرت الآن يا شوشنا؟» . سوف تشعل خالتي الشموع الليلة مثل هؤلاء المشتعلين بخلافاتهم على دور في الطابور ، وتجلس أمامها ساكنة كأنها في معبد . ويجلس زوجها بجوارها ، بلحيته السوداء التي لم تعرف موسى الحلاقة منذ نبتت فيها أول الشعرات ، يردد الصلوات بصمت . ليت خالتي كانت تكتفي بإشعال الشموع في ليالي السبت . كانت لا تكفّ عن اشعال رأسي بالغضب منذ عملت في التمثيل . شوشنا تفتحت وانفتحت على التوراة والمزامير ، وانغلقت على تأنيبي زيادة في نفاق الرب . كانت دائما تريد أن تضمن لها مكانا عنده على حسابي ، «ألا تكفين عن التعري يا دانا؟ فضحتينا يا ابنة أختي . ألا تخجلين من الذهاب إلى المعبد؟ ألا تتوقفين عن عرض جسدك وفضائحك على الملأ؟» .

«أكنت تشاهدينني يا خالتي من وراء زوجك ، أم كنتما تشاهدانني معا؟ . ألم تعجبك أدواري في مسلسلاتي؟» .

«أنا لا أشاهد التلفزيون . . الناس يتحدثون عن خطاياك في كل مكان» .

«خالتي تراقب الفضيحة وتستمتع بحلقاتها . . أتسمعين يا أمي؟»

تتدخل أمي وتقول لشقيقتها التي تصغرها بسنوات : «كل واحد وشأنه يا أختي ، لا أحد يتدخل في حياتك أو حياة زوجك يا شوشنا» .

«بسديغ بسديغ . .حال عال . . منذ صغرها وأنت تدليلنها : سيقانك جميلة يا دانا ، ومشيتك ساحرة . . لم يشجعها على الفساد غيرك» .

من حسن حظي أن شوشنا ابتعدت ولم تعد تزورنا منذ الخناقة تلك . وأنني أسكن وحدي منذ سنوات بلا شوشنا وبلا جنونها وجنون زوجها .

ألتفت إلى اليمين فأرى الرجل وزوجته يقضيان وقد أخذا يدفعان معا عربة طفلهما ويغادران .

يظهر وليد مجددا ، وقد أدار ظهره كمن يستعد للمغادرة . أحقا هو من كان زميل بوريس ابراموفيتش قبل أن أتعرف عليه؟ لماذا لا أسأله قبل أن يختفي إلى الأبد ، لماذا لم أسأله من قبل؟ «هل كنت تعرف أوكرانيا يدعى بوريس ابراموفيتش يا وليد؟» .

سأناديه : وليد وليد . . انتظرني يا وليد . لا بل سألوح له بيدي ، لكنه لن يراني . لكن لماذا أفعل؟ لكي أشكره على نصائحه لبوريس ، إذا كان هو زميله فعلا؟ أم لألعنة على ما تسببه لي . .

«أدونا ريبيكا»!

يوقظني صوت ضابطة الشرطة تناديني باسمي في مسلسل (السيدة ريبكا) وتقطع بحدة هواجسي . أتقدم نحوها وقد اختفى وليد وتلاشت معه تساؤلاتي القلقة مثل ظل داهمته العتمة كما قال هو في نوبته الفلسفية حول الظلال .

أنتبه إلى المرأة الوحيدة التي تعرّفت عليّ وهنأتني بالسلامة .

«باروخ هَبا أدونا دانا» .

أشكرها : «تودا» .

«كيف كانت رحلتك؟» .

«لا بأس يا سيدتي» .

«هل نراك على الشاشة قريبا . . قولي ولا تخشي شيئا . . الأمن ليس كالإعلام يفشي أسرار الجميع» .

«ألا ترتاحون مني قليلا؟» .

«ومن يحبي مهرانتاه» .
تختم جواز السفر وتقدمه لي مودعة : «تيهيت راؤوت أعوفاتي» ، «إلى اللقاء يا حبيبي» .
أرد بالمثل ، وأتناول جواز سفري وأمضي نحو قاعة الخلائب .

الفصل التاسع

استقبلتني عند باب الخروج رقم ٢ في مطار بن - غوريون نسمات منعشة . واندفعَ إلى عينيَّ مشهد فلسطيني ساحلي أليف لأشجار نخيل قليلة تناثرت على امتداد واجهة المطار . استوقفتني من بينها واحدة قصيرة تداعب النسمات سعفاتها ، فيتلألأ ضوء الشمس من بين شرائحها الوبرية مثل حبات بَرَدٍ فضي مطرز على جبين صبية .

عانت الشمس على خجلها ونوايها وراء النخلة إذ فاجأتها عودتي : «ثمانية وثلاثون عاما اشتقت خلالها لبشرة لا يلوحها بلون القمح سوى شمس فلسطينية . . والشمس أنت» .

قبلتني معتذرة . وأحسست بدفء أشعتها يغسلني من تعب السفر كله . تناهى إليَّ اسمي مهموسا به : «وليـــد» . التفتُّ خلفي . شاهدت ظلي ممتدا عبر زجاج المدخل حتى نهايات الرواق الطويل داخل المطار . أمتعني ظلي . أول مرة أرى ظلي على هذه الأرض بالذات . خيّل إليَّ أنه يحتمر كوفية وعقالاً . وأن أطراف دمايته المفتوحة من أمام ترفرف إذ تداعبها نسمات بحرية . كان يتشبث بي مترقبا مثلي الرجل الذي سبقنا معا إلى مخيم بيت حانون . فرحت إذ يرافقني ظل ، لم أره منذ وقت طويل ، بقية رحلتي .

تلفتُّ في الاتجاهين علّني أعثر على السائق الفلسطيني - الإسرائيلي الذي اتفقت معه أن ينتظرني هنا في السابعة صباحا ، ليقلني إلى معبر

إيرز (بيت حانون) ، أو أرى سيارته «فولكس فاغن» البيضاء ذات الستائر الخضر ، كما وصفها لي على الهاتف . لم ألحظ أي أثر لسيارة «فان» بيضاء ، ولا لسائق أسمر حنطي متوسط القامة ، ذي نظارات طبية ، كما أحب أن يصف لي نفسه قبل يومين ، حتى ظننته طبيبا .

اقتربت الساعة من الثامنة ، أي إنني وصلت متأخرا عن موعدنا قرابة الساعة ، (بسبب تأخر الطائرة عن الإقلاع في موعدها ، وازدحام قاعة الجوازات) . ولا بد أن الرجل يئس من الانتظار وقرر العودة من حيث أتى . ولا لوم عليه إن فعل . فكّرت . لكنني استبعدت ذلك سريعا . كنت واثقا من أن السائق سيأتي وينتظرني حتى نهاية العمر كأنه يعيش دنياه لأجلي ، إن لم يكن اخلاصا لابن بلده العائد بعد سنوات كأنها قرون ، فمن أجل ما سيحصل عليه من دولارات لقاء نقلي بسيارته إلى المعبر على بعد ساعة ، تقريبا ، من المطار .

وهكذا تلقفتني نداءات السائقين . تقذفني بأسماء المدن والبلدات التي أقيمت فوق جثث المدن والقرى ، أو عبرنت أسماءها : يروشالايم ، تل - افيف ، ناتانيا ، تسريت ، أكو ، هيفا ، هرتسيليا .

فجأة لمحت دانا تتجه نحو سيارة توقفت على مسافة غير بعيدة . أخذت أراقب بمشاعر غريبة ، المرأة التي رافقتني رحلة أمس ، وسوف تختفي من حياتي إلى الأبد خلال لحظات ، تاركة لي مجموعة أسرار بلا مفاتيح .

تقدّم منها سائق جرّ حقيبة كبيرة كانت إلى جانبها ، ووضعها في الصندوق الخلفي لسيارته . ألقت هي بحقيبة اليد الصغيرة التي حملتها معها في الطائرة إلى المقعد الخلفي ، ودفعت بمؤخرتها التي لا تنسى إلى الداخل . ثم نقلت قدميها تباعا وأغلقت باب السيارة التي انطلقت بها بعيدا ، ولم تزل نداءات السائقين تعرض عليّ أسماء المدن ، فأرفضها

شاكرا : تودا تودا ، من دون أن تتوقف عيناي عن البحث عن أبي فارس .

لم يتخذ عادل البشيتي ، قبيل سفره ، ترتيبات مماثلة كالتي اتخذتها . ولم أمنحه من جانبي الفرصة لأن يفعل . تركته يسافر على عجل ليلحق بليلى قبل أن يختطفه منها زمن الاحتلال كما اختطف زوجها قبل سنوات . ولم أوعز له بالاتفاق مع سائق فلسطيني من البلاد ينقله إلى المعبر كما فعلت أنا . تركت عادل لحاله يتعامل مع ما يصادفه من ظروف . تركته يقلع شوكه بيديه ولم أندم .

أخذ عادل يلملم حيرته من بين نداءات تصفع وجهه بلغة لم يسمعها من قبل . تقدّم منه سائق في العقد الرابع من عمره ، حنطي البشرة مغربي الملامح . مدّ يده بلا استئذان إلى حقيبته ، وراح يعرض عليه بإلحاح ، أن ينقله بسيارته إلى حيث يريد . سأله عادل بشيء من التردد والقلق : «هل تأخذني إلى معبر ايريز؟» .

«كين» .

أجاب السائق . وأوضح : «سأوصلك إلى المدخل فقط» .

وافق عادل .

كان السائق الإسرائيلي يتحدث إنجليزية تعلمها خلال عمله في المهنة ، ولم يستخدمها طيلة خمسين دقيقة استغرقتها الرحلة .

ما كان صعبا على السائق التعرف على هوية الراكب الذي يقله . إذ لا يذهب إلى إيريز ، الا مجندون إسرائيليون . وهؤلاء يستخدمون في العادة ، حافلات الركاب التابعة لشركة «ايغد» في تنقلهم ذهابا وإيابا خلال إجازاتهم من خدمتهم العسكرية ، أو شاحنات نقل البضائع ، أو موظفون تابعون لهيئات دولية كالإغاثة والصليب الأحمر ، أو مغترب فلسطيني يقصد قطاع غزة .

لم «يشلّحه» السائق أية معلومات ، كما فعلوا معه في غرفة التحقيق .

اكتفى بمراقبته عبر مرآته الصغيرة من حين لآخر . ولم يمنحه بالمقابل ، متعة سائح يريد التعرف على البلاد التي كانت البلاد . ظل السائق صامتا على امتداد الطريق . ونافسه عادل صمتا وتفوق عليه ، فجلس التوجّس المتبادل ، في ما تبقى من مكان في السيارة يتسع لثلاثة ركاب آخرين .

استدرت يمينا . تحت سيارة فان بيضاء يحاول سائقها أن يوقفها إلى جانب الرصيف ، في مكان يبعد عني مسافة أربع سيارات .

سحبت حقيبتي وأسرعت نحو السيارة . استقبلتني ستائر خضر أطلت من شبابيكها الجانبية . أخرجت من جيبي ورقة كنت قد دونت عليها مواصفات سيارة «أبو فارس» ورقمها ، ولم أخطئ التقدير .

فجأة ، ظهر من خلف السيارة رجل تقدم نحوي بخطوات ثابتة ، فاتحا ذراعيه ، مرحبا مهللا بابن بلده العائد من طول غياب : «أهلا وسهلا يا بلديات . . الحمد الله ع السلامة ، أني متأسف ، الي ساعة بدوّر ع مطرح اوقّف فيه السيارة ومش لاقي . .الحمد الله ع السلامة ، اهلا وسهلا وكيف الحال؟» . واحتضن كفي اليمنى بين كفيه وهزّها بمحبة حقيقية ، أجبرتني على تهنئة نفسي على اختياري الوطني لـ«زلمة من ريحة لبلاد» .

ملأت رئتي برائحة البلاد ، وعبأت عيني بملامح أول فلسطيني أقابله لم يغادرها عام ١٩٤٨ مثلما فعل أغلب الفلسطينيين مجبرين .

«الله يسلمك يا بلديات» .

«هات عنّك يا زلمة انت جاي تعبان م السفر» .

تناول أبو فارس حقيبتي الكبيرة ، وتعاونّا معا في وضعها في صندوق السيارة الخلفي . ومضت بنا معلنة بداية أول رحلة لي داخل البلاد التي غادرتها رضيعا قبل سبعة وخمسين عاما تقريبا .

قال لي سمير عياش ، (أحد زملائي الفلسطينيين في العمل) : «رح **تكون الرحلة** very exciting **. . رح تمر يا استاذ على إشارات طرق تاخذ**

قلبك ع المواجع القديمة كلها : الرملة ، طريق القدس ، عسقلان . بدك تروح على اسدود بلد كم؟» .

أخرجت هاتفي الجوال لأتحدث مع والدتي وأطمئنها على وصولي . لم أكن قادرا على الانتظار ، ولم أكن مصدقا أنني في البلاد فعلا .

ترك أبو فارس مقود السيارة ليده اليسرى ، وقبض بكفه اليمنى على كفي التي تحمل الهاتف ، وصرخ بغضب مفاجئ ، حتى ظننت أن استخدام الهواتف الجوالة في هذه المنطقة محظور لدواع أمنية : «ايش بتسوي يا زلمة . .حدّ الله ما انت مستعمل جوالك» .

وتابع دون أن يمكنني حتى من تحرير كفي من قبضته : «معاطا اللي معاك تليفون دولي مكالماته غالية . . حدّ الله يا زلمة . . نقّلني الرقم وأني بطلبلك اياه . . انت ضيفنا اليوم يا زلمة؟» .

طلب أبو فارس رقم هاتف والدتي على هاتفه وناولني إياه .

«مرحبا يمة . . أني صرت في لبلاد . . أني في لبلاد يمة في لبلاد . .» .

وأخذت أصرخ بلا وعي . . في لبلاد يمه والله في لبلاد . وتصرخ عيناي بدمع لا يحزنهما . أستمع لأمي وأحاورها ، فقد صدقتني هذه المرة : «صرت في لبلاد يمه . . أهلا وسهلا ابك يمه . . أهلا وسهلا . . ولاد خالك كلهم طلعوع معبر بيت حانون يستنّوك» .

«لا لا . . قولي لهم ما يروحو الا بعد الساعة تسعة ، ما رح اطلع من المعبر قبل التسعة ، ويمكن بعدها بشوي» .

أعدت الهاتف الى أبي فارس ، الذي سألني بعدها مباشرة : «قديش الك مش جاي ع لبلاد يا ابو . . .»

«أبو فادي . . أربعين سنة تقريبا» .

شهق أبو فارس وكبّر : «الله أكبر والله عمر يا عمي . .الله يساعد

الوالدة .. إنه بطعم الفرحة .. أكيد» .

رنّ هاتف أبي فارس . ناولني إياه : «عطي المكالمة إلك» .

«مرحبا .. الحمد لله ع السلامة يا ابن عمتي . وين انت؟» .

«هذا عبد الفتاح ابن خالي .. التقط رقم جوال أبي فارس الذي سجله هاتف أبي واحتفظ به» .

«انا في الطريق يا بن خال» .

«احنا مستنيينك ع العرس الموعد .. وين صرت؟» .

«هاي الرملة قدامك» .

نبهني أبو فارس .

جاءت الرملة زاحفة نحونا ، تعلن عن نفسها بخط أبيض على يافطة خضراء .

«عند الرملة يا ابن خال .. ما تروحوش ع ايريز قبل التسعة» .

تباطأت السيارة ، ثم توقفت أمام إشارة مرور . أخذت أحدق في اليافطة الخضراء ، وأتأمل اسم الرملة كمن يتهجى الحروف ، وتعمد لـ ... أسفلها ، كان ثمة سهم يشير الى اليمين خط تحته : «شارع نحمان حاييم بياليك» .

ضحكت في سرّي بمرارة ، والتمت بلا صوت كمن يهذي متأثر نوبة حمى ، مع أنني لا أهذي : «صار نحمان بياليك ، الشاعر اليهودي رملاوي ، وصار له شارع باسمه في الرملة . وجورج حبش ما طلعولو شارع لا في مسقط رأسه اللد اللي ما يبعد عن الرملة شبرين ، ولا في مخيم الوحدات في الأردن . ولا جمهورية الفاكهاني في بيروت . بياليك اللي اجا من ورا البحر صار رملاوي .. وحبش ابن اللد صار لاجئ ورا البر والبحر» .

تغيّرت إشارة المرور وسمحت لـ«أبو فارس» بالانطلاق مجددا .

انفتحت حواسي كلها على الاحتمالات ، على واقع يحاول أن يسد على ذاكرتي طريق العبور إلى ماضيها ، فسبقها أبو فارس مفتوحة ، مثل عينيّ اللتين طرد الشرق دهشتهما : «هذاك جامع الرملة .. شايفو يا ابو فادي .. هناك ع يمنك» .

التفتُّ إلى حيث أشار بيده ، بينما تواصل السيارة قطع الطريق مسرعة . كانت ثمة مئذنة جامع تركض خلف أشجار السرو البعيدة ، هاربة من عينيّ اللتين لم تستطيعا الاحتفاظ بصورة ثابتة لها .

«بتعرف إمتى سقطت اللد والرملة يابو فادي؟» .

سألني السائق .

«بتسألني يابو فارس؟؟» .

سألته بدهشة الواثق . ورحت أسرد له وقائع سقوط المدينة عام ١٩٤٨ بيد قوات «الهاغاناه» اليهودية . ظلّ منصتا كأنه يسمعها للمرة الأولى . وحين انتهيت من ذلك ، عقب ملطفا وقع الذكريات : «يا سيدي راحت اللد وراحت الرملة وراح الجامع . مات اللي مات ، والقتل اللي انقتل ، وهاجر اللي هاجر ، ويمكن ما حدا قدر يوخذ معه حتى قشة؟» .

بعد لحظات أضاف : «بتعرف انه في فلسطينية بقيو في البلد .. وأجاها ثانيين وسكنو فيها» .

فأجبت على ما قاله : «إلي قريب اسمه اسماعيل دهمان من سكان الرملة . وإلو بنت عايشة في لندن وبتزور أهلها كل سنة . قالت لي إنو الرملة ما عادت الرملة .. سكن فيها يهود فلاشا ، وعدد كبير من عائلات العملا الفلسطينيين اللي نقلتهم اسرائيل من غزة بعد اتفاق اوسلو» .

اقتربت السيارة من إشارة مرور سبقتها يافطة خضراء أخرى ، مثل كل اليافطات ، يافطات السلام الوحيدة في هذا البلد ، التي تستعير كذبا من الزيتون لونه . ورحت أقرأ لنفسي بالعبرية وأترجم لنفسي أيضا : ريشون

لتسيون (الصهيوني الأول) ، ثم رحوبوت ، كفار بيلو .

توقفت السيارة عند إشارة مرور ثالثة . وخلال ذلك قطعت الطريق من اليمين إلى اليسار مجندة اسرائيلية شابة تحمل على ظهرها حقيبة كتف صغيرة سوداء مقلمة بخطوط حمر . كانت تلك أول مجندة إسرائيلية تقع عليها عيناي منذ احتلال قطاع غزة عام ١٩٥٦ خلال العدوان الثلاثي على مصر وقطاع غزة . تذكّرت ما كانت تتهامس به النساء اللاتي شاهدن المجندات يلبسن السراويل الرجالية ويرافقن الجنود خلال الدوريات الراجلة في المخيم : « إسرائيليات زي الزلام . . بيشُخّن وهنّ واقفات» .

مضت السيارة ، بينما أخذت أسماء المدن تتلاحق على اليافطات الخضر ، وتقدم نفسها تباعا : غان شلومو ، كيبوتسات شيلر ، غفعات برينو ، وتمحو معالم ما في ذهني ، واضعة أمامي حقائق جديدة .

«عسقلان ٢٥ كيلومتر»

سقط قلب عادل البشيتي في أعماق التاريخ . خمسة وعشرون كيلومترا فقط تفصله عن مسقط رأسه في المجدل عسقلان ، تقطعها السيارة في أقل من نصف ساعة ، يصفّي بعدها حساباته مع حنين تعتق عشرات السنين . سمع صوت المدينة يصرخ في داخله مثل صدى بعيد . رأى عسقلان أشلاء متناثرة على مساحتها القديمة .

كان يحلم دائما ، بدخول مسقط رأسه من الجنوب ، من جهة غزة . يطوي مشوار الرحيل من نهاياته الى حيث البدايات ، لا زائرا مثل سائح غريب جاء يبحث عن ليلى التي جعلها الفراق غريبة . هل كانت ثمة بدايات حقا؟ هل هناك بداية أصلا؟ منذ سبعة وخمسين عاما ونحن نعدّ النهايات ونتوغل في البعاد . حرب ١٩٥٦ ومجزرة خان يونس . حرب ١٩٦٧ وضياع ما تبقى من فلسطين . حرب ١٩٧٣ ، وانتصار السادات على نفسه . واجتياح لبنان عام ١٩٨٢ وإخراج منظمة التحرير منه . . . نهايات

تتوالد نهايات . . ثم اتفاق أوسلو ، بداية لمسلسل آخر من النهايات . ولا بداية صحيحة في الطريق إلى عسقلان . عسقلان هناك على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا فقط .

تسقط أحزان عادل مطرا من عينيه . مطر يأخذه نحو الشباب بعيدا عن عيني سائقه الإسرائيلي . يتذكر كيف أمضى ذات مساء من شهر فبراير الماضي ، بعض الوقت يقلب صفحات كتاب بعنوان «القرى الفلسطينية المدمرة» . يتأمل آخر صور التقطت للمدينة قبل ستة عشر عاما . تأخذه الصور الى قلب المدينة . يدور في اتجاهاتها الأربعة : سوق الخضار . مسجد المدينة . الشارع العام في اتجاهيه . يصرخ ولا يسمع سوى صدى صراخه يتردد في داخله مثل رعد السنين : «هذه هي المجدل عسقلان . مدينتك الأولى التي تصر على عدم التنازل عن حقك في العودة إليها ولو في كفن . كومة من حجارة بلا حياة . شوارعها خالية إلا من غيوم نكبتها . لا دعوة للصلاة فيها ولا آذان يسمع من مسجدها ، الذي تخرج منه جدك الثالث الشيخ حمدان يؤم المصلين . لا آيات تقرأ فيه ولا مصلون . أبنيتها القريبة من المسجد تحولت إلى مطعم وبار ومحلات يرتادها اليهود السفارديم (الشرقيين) . مقام الشيخ عوض . مقام الشيخ مصباح الظلام . ضريح الشيخ اسعيد . مقهى علي محسن . مسجد أبو غوشة الصغير . مدرسة البنات . مقبرة المجدل . حديقة البلدية . بيت رئيس البلدية السيد سيد أبو شرخ . مقامات وأضرحة ومقابر وبيوت ومقاه ودكاكين تحولت إلى كومة من خراب» .

«شايفك سرحت يا بلديات . . أرجعك ع اسدود . شو رأيك يا ابو فادي ، بنمرع المجدل شوي وبنكمل شمالا ع سدود . جو بيجنن وصباحية رايقة بتفتح قلبك على بلدكم؟» .

أتنهد بحسرة ، وأسحب أنفاسا من أعماق السنين ولا أقوى على الرد

على السؤال .

«اسمع مني . .كلها ساعتين زمان بوخذك على اسدود وبلفّفك فيها وبترجع . .امانة الله ما الك نفس تشوف بلدكم؟» .

«كنت أظن لو كانت طريقنا بتمر بسقط رأسي فعلا ، كنا مرّينا سوا على سدود ، وعزمتك على حسابي على فُرجة على التاريخ واللي عملو في اسدود . سدود صارت ابعيدة يا بو فارس ، وفيها تُعْبِر . إمي مستنياني من ثمانية وثلاثين سنة ، ومش باقي لها من العمر كثير . .أشوف إمي الأول . إمي ما فيها تصبر ، ومستنياني ع القطور بديش اتأخر عليها . .قلبها مكوي عليّ مثل النار» .

«على رأيك . .اللي بريحك» .

اجتازت السيارة يافطة عسقلان وحواجز الختين ، نحو بلدة سديروت ، التي بدت جميلة بأسطح بيوتها القرميدية الحمراء ، وقد تناثرت بتناسق هارموني فوق رابية صغيرة كأنها ضيعة سويسرية ، تحيط بها أشجار خضراء كثيفة تبدو من بعيد ، وأخرى اصطفت أمام العديد من بيوتها التي تتفرج على الطريق العام .

ما إن تجاوزت السيارة بلدة سديروت ، حتى بدأت الضيعة الجميلة في خلع رونقها عند التخوم قطعة قطعة . وكلما ابتعدت السيارة رحلت عن أرضها البيوت . وتعرّت الأشجار من أوراقها استعداداً للجفاف والانقراض . وتخلّت الأرض نفسها عن خضرتها ، وتجردت حتى من أعشابها غير النافعة ، وفقد المكان ملامحه .

واصلت سيارة أبي فارس تحركها تقطع بنا الطريق مثيرة حولها الكثير من الغبار والأتربة ، وهي تتوغل في أرض ميتة بلا حياة ، تعلن بوقاحة عن الاقتراب من أرض الفلسطينيين .

«اوصلنا يا بو فادي . .هاي معبر بيت حانون . . هناك» .

هتف أبو فارس .

«وين؟» . سألت بلهفة .

«هناك . . قدام شوية» .

دار أبو فارس بسيارته حول مبان عدة لم تكتمل بعد ، تماما كما فعل السائق الإسرائيلي الذي أقل عادل من المطار ، ولم ينطقا أثناء دورانهما إلا بكلمتين . دفع عادل أجرة السائق وشكره ، فرد عليه السائق شكره بالعبرية «تودا» . واستدار عادل يجر حقيبة سفره باتجاه المعبر .

ووجدت نفسي أمام يافطة ، مرت بعيني عادل من قبل ، كتب عليها «ايرز معبار» ، (معبر ايرز) .

أوقف «أبو فارس» سيارته وهبط منها ، وهبطت بدوري . وتعاونّا معا على انزال الحقيبة من السيارة .

أخرجت محفظتي : «قديش تؤمر يا بو فارس يا بركة؟» .

«يا سيدي مش بيناتنا . . مية وعشرين دولار بيكفّي» .

ناولت أبي فارس المبلغ الذي طلبه . ثم ودعْته عناقا ، وصعد إلى سيارته ومضى عائدا إلى إسرائيل .

فجأة ، انتابني إحساس بأن «أبو فارس» أخذ مني ضعف الأجرة على الأقل . هززت رأسي بمرارة ، «أبو فارس زلة من ريحة لبلاد الطيبة . .وتنعم الريحة . . بس ضحك عليّ ، بيحب ريحة مصاري هذيك لبلاد أكثر . . مصاري برة . . الدولارات الخضرا اللي ريحتها غير شكل» .

الفصل العاشر

الـــراوي

وصلت اورلي إلى عمارة «شالوم عخشاف» (السلام الآن)، في ضاحية نيفيه تسيدك. أنزلها السائق وأنزل حقيبتها أمام العمارة ومضى.

وقفت أمام البناء الذي أقامه شلومو بن زفاي، وأخذت تتأمله كأنما تراه للمرة الأولى.

بني شلومو، صاحب شركة «ها بايت شيلانو» (بيتنا) للإنشاء والتعمير، ومقرها في «روتشيلد أفينيو» في تل - أبيب، العمارة عام ٢٠٠١، واشترت فيها دانا، بعد عامين، إحدى شقتين على الطابق الخامس، (وكانت الأخيرة المعروضة للبيع آنذاك)، وأطلقت عليها اسم «مغدال هشلوم» (برج السلام). وعلقت على بابها يافطة صغيرة من خشب الزيتون، خطّ عليها الاسم باللغتين العبرية والإنجليزية.

كان شلومو بن زفاي عضوا نشيطا في حزب العمل الإسرائيلي الذي تأسس عام ١٩٣٠ تحت اسم «مباي». وتأثر منذ صغره، بأفكار والده، بنيامين، وكان عضوا بارزا في الحزب في أربعينات القرن الماضي. لكنه تركه بعد أن عصفت به الخلافات مرارا، وتعرض لانقسامات عدة.

التحق بنيامين عام ١٩٦٥ بكتلة «رافي»، الانتخابية التي شكلها بن غوريون، بعد خروجه من الحزب، لكنه عاد إليه بعد وفاة دايان عام ١٩٨١، حين كان يعرف بتجمع «المعراخ»، الذي دخل انتخابات عام

١٩٨٨ تحت اسم حزب العمل الإسرائيلي .

كان شلومو من مؤيدي إسحق رابين الكبار ، وكان يأمل أن يرسي رئيس الحكومة الإسرائيلية ، آنذاك ، سلاما دائما مع الفلسطينيين ، وينجح في خلق علاقات إسرائيلية - عربية طبيعية نقية وصافية مئة بالمئة مثل زيت الزيتون الغزاوي . وكان شلومو يفضل زيت غزة وزيتونها على أي زيت وزيتون آخر في البلاد ، أو حتى في العالم . ليس لمذاقه الذي لا يقاوم ، ولكن لحلم ظل يتمدد في فراشه طويلا ويستيقظ معه ، بل ويسبقه إلى مكتبه في الصباح ، لكي يحلمه يقظا في وضح النهار .

كان يحلم ، بأن يقدم الزيتون الغزاوي لزبائنه مع الحمص والفلافل والبصل الأخضر وعروق النعناع ، في مطاعم أنيقة أناقة المتجمعات السياحية الموزعة على شواطئ تل-أبيب . سلسلة مطاعم يقيمها في منتجع سياحي كبير على ساحل قطاع غزة الشمالي ، المقابل لبلدة جباليا وقريتي بيت لاهيا وبيت حانون ، يشاركه فيه مستثمرون فلسطينيون .

لكن حلم شلومو كان ينتهي ليلا بكابوس ، وأحيانا يبدأ به ، ونهارا بالحقائق التي خلقها الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة . إذ تتراءى له بيوت مستوطنات ايلي سناي ونسانيت ونتساريم ، ودوغيت مثل زواحف عملاقة جاثمة على تلك المنطقة التي رسم حلمه له خرائط عليها . وكان ذلك يجعله ، بين مؤيدي «حركة السلام» الاسرائيلية ، معارضاً متحمساً لوجود مستوطنات في غزة . وقد علق اسم الحركة التي علمته أن يحلم ، مكتوبا بحروف النيون على واجهة عمارته وجعله يغمرها والساحة الأمامية التي تسبقها ، ليلا ، بضوء فضي يستحضر القمر . وكثيرا ما تردد في نيفيه تسدوك ، وضواحي أخرى في تل - أبيب ، وحتى في القدس ، في أوساط الحكومة والكنيست ، أن شلومو كان يقيم في الرابع من نوفمبر ، من كل عام ، في الطابق الأول من عمارة «شالوم عخشاف» (حيث يوجد مسبح

وصالة للتمارين الرياضية) ، عزاء خاصا في ذكرى إسحق رابين ، الذي قتل عام ١٩٩٥ . وكان يدعو إليه مفكرين وفنانين وسياسيين من الأعضاء في الحركة السلمية التي ينتمي اليها .

كانت دانا أعوفا ضيفا دائما على تلك المناسبة ، حتى قبل أن تشتري شقتها في البناء . وكان شلومو ينتدبها في كل مرّة ، تروي فصول مأساة مقتل رابين في الرابع من نوفمبر من كل عام . وكيف تشكلت أمام عينيها ، حين سحب الشاب ، يغئال عمير ، مسدسه وأطلق الرصاص على رابين من الخلف ، بينما كان رئيس الحكومة ، يهمّ بدخول سيارته ومغادرة مهرجان السلام وسط أكثر من مئة ألف من مؤيديه ، الذين تجمعوا في ميدان «ميلخي يسرائيل» ، وكان الجميع يردد «شير لَشلوم» (أغنية السلام) ، حين أطلقت الرصاصات ، وتناثر دم رابين على كلمات الأغنية :

دع الشمس تشرق ثانية
وتضيء الصباح
صلاتك الخاشعة
لن تغير محنتنا القاتلة

نحن فقط أغنية للسلام
لا تهمس لنا بصلوات
الأفضل أن تغني أغنية للسلام
وليملأ صوتنا الفضاء

كانت دانا تروي الحكاية أمام المحتفلين ، بينما يستحضر شلومو دمعا سبق له أن ذرفه من أجل رابين ، ومن أجل الحاضرين الذين يبكون معه لضمان نجاح المناسبة . أما في نيفيه تسادوك ، فقد شاع قول بأن شلومو كان

يبكي حلمه الضائع في غزة أكثر مما كان يبكي رابين .

وضعت دانا حقيبتها الكبيرة جانبا ، وألقت بحقيبة الكتف الصغيرة على الأريكة الجلدية البيضاء في قاعة الجلوس كمن يتخلص منها ، وركضت نحو النافذة المطلة على البحر .

أزاحت الستارة البيضاء المتدلية من السقف حتى بلاط الشقة . اندفع البحر بزرقته عبر الزجاج إلى عينيها . فتحت باب الشرفة العريض ذي الضلفتين العاليتين ، غسلها نسيم بارد منعش . خطت خطوتين إلى الخارج وأخذت ترقب بحر تل - أبيب هادئا لم يستيقظ من نومه بعد .

نظرت إلى ساعتها فوجدتها الثامنة والنصف تماما . «لابد أن يكون وليد في طريقه الى معبر إيريز الآن» . قدّرت . وأخذها طيف وليد العابر إلى زمن خدمتها العسكرية في معسكر للجيش في قطاع غزة . قبيل حلول المساء بقليل ، تركتُ الخيمة لأستنشق بعض الهواء . كان المساء رائعا . أخذت أراقب الشمس تتوارى خلف الكثبان الرملية ساحبة معها بقايا لونها البرتقالي نحو المغيب . وظهر بنحاس فجأة قادما من بعيد ، ممسكا بيده اليسرى حزام حقيبة جلدية تعلقت بكتفه ، وباليمنى كيسا تمنيت أن يحمل لنا لوازم السهر . كان بنحاس قد وعد صديقته أيالا ، حين غادر الوحدة لقضاء إجازته في ناتانيا ، بسهرة غير تقليدية تمتد في أعماق الليل ، تدخن خلالها سجائر الحشيش الضروري لاحتفال يليق بصداقتنا .

عدت إلى الخيمة وأبلغت أيالا بوصول بنحاس . فوضعت بندقيتها التي كانت تنظفها جانبا وهرعت لاستقباله . وخلال لحظات ، كان بنحاس يلفها بذراعه اليمنى ، ويغمزني بطرف عين باسمة ، بينما تدلّى الكيس من يده يتأرجح خلف ظهرها متحديا .

أعددنا لفافات التبغ المحشوة بالحشيش ، أو «مضادات الهموم» ، كما كنا نسميها . ودخنا تلك الليلة وشربنا بما يكفي لغسل سواد أيامنا في خان يونس .

لكننا لم نغسل سوى أوهامنا . فقد اندلعت قرابة العاشرة من صباح اليوم التالي ، مظاهرات في حي الأمل في خان يونس . وراح المتظاهرون يمطروننا بسيل من حجارة أصاب إحداها بنحاس في رأسه . وبدلا من الإسراع نحو مقر الوحدة الطبية لمعالجة جرحه ، الذي لم يزد على خدش بسيط على أية حال ، أطلق عيارات نارية عدة باتجاه المتظاهرين ، أصاب أحدها فتاة سقطت على الأرض على مسافة غير بعيدة منا ، بينما تراجع المتظاهرون هلعين نحو المخيم .

ركضت بعفوية نحو الفتاة . انحنيت عليها حين وصلت ، وأخذت أفحص نبضها للتأكد من أنها لم تزل على قيد الحياة . وسرعان ما تبيّن لي أنني تأخرت كثيرا ، وربما لم أتأخر أصلا . فقد وصلت سيارة الإسعاف إلى المكان ، وأكد عناصر الوحدة الطبية الذين نقلوا الفتاة إليها ، إنها فارقت الحياة فور إصابتها ، كانت في الثانية عشرة من عمرها .

نهضت حزينة غاضبة ، وعدت إلى الخيمة التي شهدت سهرتنا أمس ، وكانت المشهد الأخير لراحة مفقودة في تلك المنطقة .

بعد أيام على الحادث ، فوجئنا بنقل بنحاس للخدمة في مرتفعات هاقولان . أقلق ذلك أيالا ، فبدأت تتصرف بعصبية على غير عادتها . وهي لم تفعل ذلك حين سقطت الفتاة التي ربما لم تكن قد رمت حتى حجراً صغيراً نحونا . راحت أيالا تبحث عن وسيلة تمكنها من اللحاق بصديقها ، ورحت أنا أبحث عن مخرج من هذا الجنون . لقد خسرت ايالا وبنحاس معا في ذلك الصباح المشؤوم ، وبدأت أشعر بأنني سأخسر نفسي إن بقيت في ذلك المكان . فقد ظل وجه الفلسطينية

الصغيرة يلاحقني ، وفي داخلي صوت يصرخ بي كأنه صوتها الذي لم أسمعه ولم أتعرف عليه : لماذا لم تمنعي يتحاس من إطلاق النار وكنت تقفين إلى جانبه؟ .

قررت ألا أبقى في قطاع غـزة كله . أن أطلب نقلي من هناك . صرت مستعدة الآن أفعل أي شيء ، أي شيء يخرجني من جحيم غزة ، حتى لو انتهى بي الأمر إلى . .

«بوكير طوف دانا» .

هتفت ليمور من شرفتها .

«ليمور . . آه . . صباح الخير ليمور» .

وضعت دانا مسحة فرح حزين على وجهها لرؤية جارتها التي أنقذتها بحضورها المفاجئ من دموع ذلك اليوم الغزاوي الأسود ، كما أطلقت عليه . سألتها عن حالها : «ما شلومايخ اوفاتي؟» .

«طوف . . لم أرك منذ فترة . . هل كنت في الخارج؟» .

«كين . . أمضيت أسبوعا في كاليفورنيا . . أين وصلت ربيكا في تاريخها» .

«ابنتي تريد أن تشغل دل أقيف مثلك . . ذهبت إلى مركز سوزان دالال ، قالت إن لديها عمل في سيهر الدنيا . . هكذا هي كل شيء عندها يهز الدنيا» .

«ربيكا بنحتن ، وأعتقد أنها خلقت لتكون فنانة ، دعي موهبتها تأخذها إلى حيث تشاء» .

«معك حق . .

«سيلش . . سيلز . . ألي بو . . حاشر حاشر . . سالي . . انتظر لحظة نسي . . طلوك دانا انني لا يعرف حتى الآن كيف يعد سأتفوتشا من أول مساعدلي . . مرّي علي في البوتيك إذا ما توفر لديك الوقت» .

«بيسيدير ، شالوم» .

حالت دانا إلى الداخل ، ومشت نحو المطبخ مباشرة لتعد كوبا من القهوة بالحليب . تذكرت «ألوهي» . . ليس لدي حليب طازج . . لا بأس ، استخدم واحدة من العلبات الصغيرة المحفوظة . وضعت بعض الماء في الغلاية الكهربائية . أسندت ظهرها إلى واجهة البراد ، وانتظرت الماء يغلي . تناولت كوبا من على الرف المقابل ، وقلبته بين يديها ، ثم نظرت حواليها ، قبل أن يستقر نظرها على طاولة الطعام التي تتوسط المطبخ . مرّرت سبابة يدها على وجه الطاولة فلم يعلق بها أي غبار . «يبدو أن منظفة البيت كانت هنا أمس وربما قبل ذلك . حسنا إنني أبقيت على هذه المرأة رغم ما تسببه لي من متاعب أحيانا» . فكرت .

صبّت قليلا من الماء الساخن في الكوب وأضافت نصف ملعقة صغيرة من نسكافيه «فولد» المفضل لديها ، وعلبة صغيرة من الحليب المحفوظ . قلّبت المزيج بالملعقة وخرجت إلى الصالة ، واتكأت بجسدها على الكنبة الكبيرة ، وأخذت تراقب البحر البعيد عبر باب الشرفة الزجاجي العريض . ارتشفت قليلا من النسكافيه .

أمس أطلقت الباب على مرحلة مرتبكة في مراحل عمرها . وعليها أن تعترف وتتصرف بناء على ذلك . فالبال صار صورة باهتة في ذاكرتها ، ونور الذي تبخر فجأة ، وعجوزتها ، وإيهود . . مسكين إيهود لم يزل يأمل في أن تحبه يوما ما كما أحبها . والجنين الذي إن بدأ يتحرك في بطنها ، سوف يسأل عن أبيه ، ولا إجابة لديها . ماذا تفعل به . «لم يزل لدي بعض الوقت لاتخذ القرار» . همست لنفسها . وابتلعت غصة عميقة مزّقت قلبها .

لم تفكر في مهاتفة إيهود ، ولا مدير أعمالها الذي لو هاتفها الآن ، لقالت له إنها عاجزة عن القيام بأي شيء . هي الآن أسيرة الساعات

الأربع والعشرين الأخيرة . يا له من يوم لا يشبه أيا من أيام حياتها ، وليلة قلبت فيها كل المواجع على نكهة تلك اللهجة العربية المميزة لجارها في الطائرة . هل كانت غبية فعلا عندما سمحت لنور الدين بدخول حياتها؟ . هل ترتبط فعلا بعربي ، وأي عربي؟! ابن مسؤول كبير شغل الدنيا بآرائه وأفكاره . وهي ، هل يأخذها نور الدين إلى عالمه؟ . وكيف تخرج من إسرائيليتها إلى عالم يملؤه الحذر والترقب والصراع والخلافات الدينية والاثنية والفكرية . أي غباء هذا؟! هذه ليست سوى سلسلة من مغامرات أخرى مجنونة قد تفتح عليّ أبواب جهنم ولا تجد من يغلقها . بل لقد فتحتها فعلا» .

ارتشفت بعض النسكافيه ، وحركت الكوب بين كفّيها كعادتها حين يقشعر بدنها وتلتمس الدفء من أي شيء حتى لو كان كوب نسكافيه .

«في الأفق مفاجأة كبرى يا عزيزتي» .

تتذكر ما قاله لها نور الدين .

حقا . . أية مفاجأة تلك ، هل سيفعل والده ما فعله أنور السادات في السبعينات؟ يقفز فجأة من طائرة خاصة تنقله إلى سماء القدس ، حيث يهبط بمظلة على مداخل الكنيست لكي يطلب يدي من اعضائه الغارقين في ألعابهم السياسية والمالية ، ويعلن للعالم كله فرحته بزواجنا الذي سينهي (مائة عام من العزلة)؟» .

قبل سفرها إلى كاليفورنيا ، فكّرت أن تهمس بحكايتها لمن يطلقها في عبارات غامضة إلى صحيفة ما في البلاد ، هي التي كانت تنصح نور الدين ألا يفعل . ترددت إذ تذكّرت ذلك وتراجعت . هل خافت على نفسها أم على نور الدين؟ . هل خافت أن تقوم الدنيا في إسرائيل وخارجها ولا تقعد فعلا ، وتطبق سماواتها عليها وعليه أيضا . في البداية قالت إن العرب نسوا حكايات أكبر منها ومنه ، ولن تلوكها ألسنتهم إلا

ساعات قليلة ، لا يترددون خلالها في تبادل الهمس مثل وشوشات النمل حينا والصراخ علنا أحيانا ، بأنها ليست سوى عاهرة يهودية أوقعت زعيمهم المستقبلي الشاب في حبائلها . أما في تل أبيب ، فسوف تطوى الحكاية بأسرع من ذلك ، لا لأنهم ينسون سريعا مثل العرب ، بل لأن حكاياتهم كثيرة ، ولا وقت لديهم للتوقف طويلا عند هذه الحكاية أو تلك . حكايات تطوي حكايات ، كما يطوي البحر أمواجه . كلهم ينمّون بحكايات عن أي شخص ، عن أي حزب ، وإن لم يجدوا حكاية ، استعاروا من الجيران بعض حكاياتهم . في النهاية طوت دانا الموضوع كله ، ورمته في ركن قصي في ذاكرتها .

وضعت الكوب على الطاولة الصغيرة أمامها . نهضت وخطت متثاقلة باتجاه النافذة وأغلقت الستارة . تناولت الريموت كونترول وفتحت التلفزيون . سارة بيطون على الشاشة الصغيرة ، تتحرك بين مقاعد الكنيست وتملأ قاعته صراخا ، «لقد تغلغلت المافيا في الكنيست» .

«وما الجديد يا سارة . . أنت تشتكين المافيا إلى زعمائها أعوفاني . اسألي شولاميت كارينيلي ، من أوصلها إلى الكنيست لتكون زميلتك . شولاميت لا تستطيع أن تمرر كلمة مافيا على لسانها ، تعرفين السبب . تركت المافيا وصارت تحذر من التدهور الأخلاقي الذي حول الكنيست إلى مقهى لاصطياد النساء . وهي لم تكف عن الصراخ حتى اليوم : (لقد تعرضت لتحرشات جنسية)» .

نعم شولاميت صرخت ، لكن أحدا لم يستمع لصراخها ، مثلما لم يستمع لزميلتها سارة من بعدها . ففي كل مرة تطلقان الصراخ ، معا أو فرادى ، يتلفّت أعضاء الكنيست حولهم ، كأن المافيا تخص غيرهم ، أو أن الحديث يجري عن تحرشات في أحد بارات شمال تل افيف مثلا . لم يأخذ أي من أعضاء الكنيست صراخ شولاميت على محمل الجد ، أو

يهتم لصراخ سارة . كلتاهما كانت في نظر الغالبية ، جسداً على مقعد في القاعة ، وشفاهاً تنتظر من يقبلها ولن أزيد ، لأن ذلك يوجعني أنا أيضا .

عندما فازت شولاميت بعضوية الكنيست ، صاح والدها بتسحاق ، في حضور حشد من ممثلي وسائل الإعلام : « لقد نظفت شولاميت سمعتنا أمام الضمير العام » . حقا لا شيء أفضل من لحاف الضمير العام ، كلهم يحتاجونه غطاء لسرقاتهم . والإخوة كارتيبلي جاهزون لتوزيع الجِفة على المسؤولين في بلادنا . وبالطبع لم ينسوا دانا أبدا ، حين احتاجوا لحضورها يؤكد لوسائل الاعلام أن مشاهير الناس يأتون إلى نواديهم ومطاعمهم ، ومعهم أعضاء الكنيست أيضا من طراز شولاميت . هكذا صارت دانا خيطا ، أو حتى غرزة صغيرة في لحاف ، كل ما ينبغي عليها أن تفعله هو مرافقة شولاميت ، أحيانا ، والظهور معها في اماكن عامة يرتادها صفوة القوم . تغطيها كما غطتها شولاميت من قبل ، وكله بحسابه . إلى أن سقطت تحت لحاف ذلك العربي من دون أن تدري من منهما يغطّي الآخر أو حتى يعرّيه . لم تكن تدري ، لكنها حلمت بمغامرة للخروج من تلك الدائرة ، واقتحام عالم آخر يضعها في أضواء أكبر من سماء تل أبيب ، وحتى إسرائيل الصغيرة .

حدثت نفسها : ستتوقفين عن أداء أدوارك المعروفة ، ولن تشاركي في أي عمل تلفزيوني لا يرى فيك إلا ملكة إغراء تبيع جسدها على شاشة صغيرة . وستكونين حمامة سلام تطير في سماء المنطقة من بيت لبيت .

هراء . ما قلته لنفسي كان هراء صافيا . كنت أحلم بينما جيشنا لا يكف عن افتتاح مدينة فلسطينية أو قرية افتتحها بالدبابات من قبل عشرات المرات . وانتحاريوهم يفجرون أجسادهم في أجسادنا . في هذه السماء ، يصعب على حمامة أن تطير من دون أن يصطادها أحد .

شعرّت دانا بالقرف وبالخسارة أيضا . أحسّت برغبة في الصراخ . لكن أحدا لن يسمعها ، ولا حتى جارتها ليمور ، التي أخذت ابنها الصغير وغادرت العمارة كلها .

قرّرت أن تأخذ حماما ساخنا تتمدد بعده على سريرها لتستجدي قسطا من الراحة ، من كل الحكايات التي تلاحقت خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة ، وتلك التي صحت من نومها في ارشيف الذكريات .

أغلقت التلفزيون . خلعت ملابسها ، واتجهت إلى الحمام عارية .

الجزء الثاني

الفصل الحادي عشر

قرابة التاسعة ، اجتزت المدخل الرئيسي إلى ساحة المعبر . السماء صافية وقد غسلها فجر مبكر . والشمس توارت خلف جدران البناء غير المكتمل ، تاركة ظلالا لا شكل لها ، تفترش بعض ساحة ترابية مسكونة بالصمت ، تناثرت فيها أتربة وحصى وقطع صخرية صغيرة وحجارا إسمنتية .

توقفت أتأمل الصمت . داخلني شعور بالقلق ، وانتابني شك طارئ في أن يكون أبو فارس ، قد حصل على المئة وعشرين دولارا (الخضراء) وتخلّص مني . أنزلني في صحراء لن أجد فيها حتى سرابا إن عطشت ، وتركني لمصيري .

سحبت حقيبتي وسرت بضع خطوات أخرى . تناهت إليّ نتف من همس بعيد . تلفتُّ حولي . وقع نظري على ثلاثة شبان يدخنون ، وقد جلسوا فوق مقعد حجري طويل من الرخام ، تحت تكعيبة ذات سقف متموج من الإسبست ، مرفوع على أربعة أعمدة ، على مسافة غير بعيدة إلى يمين المدخل . خلفهم امتد سور إسمنتي يحتضن التكعيبة من الخلف ، ويمضي بعيدا قبل أن يختفي داخل غابة صغيرة في الجهة الغربية من الساحة .

تقدمت من الشبان الثلاثة مترددا . ألقيت عليهم التحية ، وسألت

على غير تعيين ، عن كيفية المرور من المعبر إلى قطاع غزة .

التفتَ إليّ أحدهم ، من دون أن يرفع الآخران رأسيهما ، أو يبديان اهتماما بي ابعد من اهتمامهما بمتابعة غيوم دخان سجائرهما تتبدد في الفضاء ، أو يتوقفان عن الثرثرة .

ردّ الشاب : «من هناك يا خوي» . وأشار بإصبعه إلى كشك اسمنتي صغير مربع الشكل ، يتوسط أربعة عوارض خشبية تغلق مدخلين للسيارات ، يتدلان على جانبي الكشك ، متقدمتين عنه مسافة مترين تقريبا .

لحقت عيناي إصبعه . كان ثمة جنديان إسرائيليان يتمشيان أمام العوارض الخشبية . تتدلى من كتف كل منهما بندقية ام -١٦ أميركية الصنع . في واجهة الكشك الصغير ، كانت ثمة فتحة مستطيلة أشبه بنافذة بلا ضلفتين ، شغل معظمها النصف العلوي لجندة إسرائيلية شابة .

«سأمضي مباشرة إلى هناك ، وأقدم نفسي للنصف الظاهر للمجندة ، وهو ما يعنيني منها ، أو إلى أحد الجنديين المسلحين؟» .

سحبت حقيبتي وتقدمت بضع خطوات . أوقفني صوت واحد من الشبان الثلاثة ، يصيح من خلفي منبها : «وين رايح يا خوي . المعبر مسكر» .

«معه حق . . أغلب الظن أنني وصلت مبكرا . . وعليّ أن أنتظر بعض الوقت إلى أن يحين موعد فتح المعبر . وأثق في ما يقوله هؤلاء الشبان الذين يعرفون الكثير على ما يبدو . وهم حتما ، سيخبرونني بالموعد الرسمي لفتح المعبر ، إن سألتهم» .

استدرت عائدا اليهم وسألت : «طيب . . وأي ساعة بيفتح؟» .

«الله أعلم» .

أجابني أحدهم بلا اكتراث ، كأن فتح المعبر وإغلاقه نمط حياة تعوّد

عليه . ثم أشار إلى الجنديين (اللذين يواصلان التمشي في اتجاهين متقابلين أمام العارضتين ، يتبادلان بضع كلمات كلما تقابلا عند زاويتي الكشك ، أو متعاكسين حين يدير كل منهما ظهره للآخر ويمضي) ، بينما تعبث أقدام زميليه الآخرين بحصى صغيرة تناثرت تحت مقعدهما الرخامي ، وأضاف سريعا : «هدولاك اللي بيعرفو» .

وعاد يشير إلى الجنديين .

تخشبت في مكاني ، فاقدا حتى القدرة على إضافة سؤال جديد .

تفحّصني الشاب الأول بنوع من اهتمام لم يستخدمه من قبل ، وقال بصوت لا يخلو من خيبة : «احنا يا خوي أجينا قبلك بشويّ ولقينا المعبر مسكّر . . ليش . . الله أعلم» .

«بابنو غريب هازلة» .

علق الجالس في الوسط وهو يأخذ مقاساتي بعينيه ، ويتفحّص ملامحي مثل خبير أثريات ، قبل أن يسألني مباشرة : «من وين جيّتك يا خوي؟» .

«من لندن» .

«إذا جوازك بريطاني ما عندك مشكلة ، الأجانب أمورهم مسهّلة ، بتعبر من مدخل الـ V.I.P ، Very important person (شخص مهم جدا) ، بس لما يفتحوا إن شاء الله» .

التقطت العبارة السحرية عن شفتيه : **(شخص مهم جدا)** . .

غسلني شيء من الارتياح . إذ لن أكون مضطرا ، حالما يفتح المعبر ، للذهاب إلى الجنديين ، أو نصف المجنّدة والاستفسار من أحدهم . أدركت أهميتي في تلك اللحظة . وعرفت أنها ذات طابع رسمي وتحظى بالاحترام . أنا الآن شخصية مهمة جدا بالفعل ، مدرج في فئة الأجانب ، التي اكتشفت أن لها ميزات وزراء السلطة الفلسطينية ، وموظفي الهيئات

الدولية ، الذين منحتهم اتفاقات أوسلو (التي انتظمت في سياق بنودها المعابر) ، مكانة لا تليق ببقية خلق الله من الفلسطينيين الآخرين الذين ، (وفقا للاتفاقات عينها) ، ليسوا مهمين قط . ورغم ذلك خجلت سرا ، فقد رحبت بتلك الأهمية علنا ، على مسمع من الشبان الثلاثة حين سارعت الى القول : «يعني الدخول مضمون يا شباب؟» .

«إذا فتحوا المعبر» .

عاد الأول ، (الذي تصرّف منذ البداية وكأنه المتحدث الرسمي باسم الجماعة) ، يؤكد الحقيقة الوحيدة التي تفترش الساحة ، حتى الآن ، فوق الظلال التي بدأت تنحسر قليلا منسحبة نحو مبناها غير المكتمل .

«وإيتن بيفتحوا؟» . سألت .

«الله أعلم» .

أجابني بينما ثالثهم يطلق ضحكا ساخرا ، ويقول وهو يضع ساقا فوق أخرى كأنه في مقهى على رصيف : «يا خو هذول اليهود بيفتحوا وقت ما بدهم وبيسكرو وقت ما بدهم» .

عدت أتفحص المكان مجددا . ليس لدي ما أفعله على أية حال ، سوى التفحص وإجراء بعض الحسابات ، أو إعادة النظر بها . منها مثلا ، أنني حسبت كل شيء إلا أن أجد المعبر مغلقا في وجهي . لا أعياد يهودية اليوم تدفع الإسرائيليين إلى إغلاقه تحسبا لعمليات فلسطينية مثلا . واتفاق التهدئة مع الجانب الإسرائيلي ، الذي رعته الفصائل الفلسطينية وراعته وتوصلت إليه بجهود مصرية ، سارٍ منذ آذار (مارس) الماضي . لا عمليات انتحارية ولا تفجيرات ، (رغم أن إسرائيل لم توقف اغتيالاتها لعناصر وقيادات سياسية وعسكرية فلسطينية) . ولولا ذلك كله ، لما غامرت أصلا بزيارة غزة في ظروف معقدة ، لا لمتابعة عادل البشيتي ، بطل

روايتي ، وتتبع خطواته ، ولا للقاء أمي التي تريدني سالما في أحضانها ، لا جثة تتسلمها عبر الصليب الأحمر الدولي .

«لمَ يغلقونه إذن؟» .

عبثا أسائل نفسي التي لا تملك جوابا لي أو لها .

«أي حظ زفت هذا؟ كل أموري سارت بشكل مقبول حتى الآن . حتى هواجسي التي حملتها خمس ساعات على متن طائرة ، أفرغتها في مطار بن غوريون ، وغادرته من دون تحقيق أمني وتشليح معلومات ولا مضايقات كما حصل لعادل البشيتي . . يا حظ امي المعتر» .

تمتمت .

حائرا وقفت على مقربة من الشبان الثلاثة ، عاجزا عن القيام بأي عمل . غير قادر حتى على استيعاب الانتظار الذي يتسلون به ، كأنه تفصيل عادي في حياة عادية .

«الى أين أذهب إذن؟ أعود؟! الى أين أعود؟ . أنتظر! . . الى متى؟» .

حاصرتني أسئلتي ، وشعرت بأن عودتي غيّرت مواعيدها . فلم تبدأ من لحظة صعودي الطائرة في مطار هيثرو ، ولا من لقائي بالممثلة الإسرائيلية دانا أموفا ، واستمتاعي بأحاديثنا التي خلقت بيننا ألفة حلّقت بعيدا في فضاء لا أرض متماسكة تحته . بدأت رحلة عودتي من ساحة شبه خالية ، أمام أبواب مغلقة احتجزت خلفها الكون كله .

رحت أتأمل المعبر وأتعرف عليه : مبنى عملاق يفصل بين عالمين ، رابض هناك على مسافة خمسين متراً على الأقل ، فوق هضبة واسعة عريضة كأنه بوابة جهنم . تسبقه ثلاث عوارض اسمنتية ضخمة مستطيلة الشكل تستوقف العابرين وتعيق حركتهم . إلى يساره ثمة بناء صغير عريض من طابق واحد ، يدخل إليه ويخرج منه مجندون ومجندات بأسلحتهم الفردية تطقطق حول أجسادهم ، مؤكدة جاهزيتها للاستخدام

في أية لحظة . على يمين البئر تتشابك فروع أشجار كثيفة من السرو والكينيا والصفصاف ، مشكلة غابة صغيرة تحجب الجهة الغربية بأكملها .

ارتمينا معا ، عادل البشيتي وأنا كأننا كيان واحد من قلق وحقيقة ، في اللحظة التي تذكّر كل منا ، أن هناك خلف المعبر ، ينتظر مليون ونصف المليون فلسطيني . غزة بسكانها ومستوطناتها ، كوكب آخر في عالم آخر اغلقت مفاتيحه هنا . هنا يتم شفط العمال الغزيين وابتلاعهم في الصباح الباكر ، ولفظهم عند حلول المساء ، متعبين منهكين من رحلة عمل تمتد بين اثني عشرة وخمس عشرة ساعة في اليوم . شباب بعمر الانتفاضتين الأولى والثانية يحرقون أعمارهم في الساقات ، وقود تشغيل عجلة البناء والمعامل وحيطان المستوطنات . وربما هم بناة هذه الطاحونة الكبيرة التي تسحق أعصاب العابرين في الاتجاهين .

وضعت حقيبتي جانبا ، وجلست على حجر اسمنتي على مقربة من التكعيبة ، حيث ما زال الشبان الثلاثة قادرين على الثرثرة والضحك ، من دون أن يتخلى أحدهم عن تمزيز أوضاع «الشيشة» الصغيرة من حين لآخر لمزيد من الدخان .

تجاوزت الساعة التاسعة بقليل ، حين بدأ وافدون إلى المعبر يظهرون تباعا . لا بد أن سيارات أنزلتهم على مقربة من البوابة الرئيسية المفتوحة . نساء وأطفال ورجال في مختلف الأعمار ، أخذوا ينتشرون في المكان كأنهم مهاجرون أبديون . ملأوا المكان سريعا بأسئلة سبقتهم أنا إليها ، فتلقوا الإجابة الوحيدة التي صارت إيقاعا يتنقل الجميع على نغماته : «الله أعلم» .

دخلت إلى الساحة حافلة ركاب كبيرة ، توقفت إلى يمين التكعيبة ليس بعيدا مني . جعل سائقها مقدمتها مواجهة للمعبر كي يراقب الحركة

فيه ، ومؤخرتها إلى الخلف تكاد تلامس السور الاسمنتي وتبول عليه .

لم يهبط سائق الحافلة ، ولم يطرح السؤال المكرر ، ولم يتلق إجابة «الله أعلم» . والأغلب أنه تلقاها في طريقه إلى المعبر .

خلال أقل من ساعة ، امتلأت التكعيبة بالوافدين ، وتحولت الساحة إلى قاعة انتظار واسعة ضخمة مكشوفة للشمس والنكد وصراخ الجنود ، الذي علا ، يذكّر الوافدين بأنهم ما يزالون يقبضون على مفاتيح جهنم .

أما عادل البشيتي من محرقة الانتظار هذه ، مرّ من هنا دون صعوبات كالتي واجهها في غرفة تشليح المعلومات في مطار بن - غوريون ، حين أحالوه إلى التحقيق ، أو التي أواجهها أنا هنا . ولا بد أنه شعر فعلا بأهميته ، وبمكانته كشخصية مهمة جدا (مع أنه ليس أهمّ مني على الإطلاق) . لكنه غادر المعبر مرتعشا مثل طريدة أفلتت من طلقة صياد . لم يصدق أنه اجتاز المعبر فعلا ، وأنه سيلتقي أمه وأقاربه ، وأنه بات يقف على الأرض التي تقف ليلى دهمان في مكان ما عليها . حبيبته التي حلم بلقائها ثلاثين عاما . لا بد أنها استشعرت أنفاسه تلفح ذاكرتها بينما يقترب خطوة خطوة من مشاعرها . لا بد أن ذلك حدث فعلا . هكذا أكد لنفسه ، وقال لها : ليلى أحسّت بخدر لذيذ في كفها اليمنى . وأنها وشوشت نفسها حائرة وهي تحك باطن كفّها : «يا تُرى مين رح اسلّم اليوم؟» .

دخلت إلى الساحة سيارة أوبل سماوية اللون ، توقفت على بعد عشرة أمتار تقريبا من الحافلة .

أعفيتُ الحجر من ثقل مؤخرتي وشكواها ، ورحت أتنقل جارا خلفي حقيبتي من موقع إلى آخر ، أتنصت لحديث القادمين الجدد والقدامى الذين توزعوا في الساحة . بعضهم وجد مكانا في التكعيبة ، وبعضهم

افترش الأرض تحت السور الخلفي حاجزا لنفسه مساحة من الظل لانتظار لا أحد يعرف نهايته . وآخرون احتموا من الشمس بظل سيارة الأويل السماوية . ولجأت ثلاث نساء إلى الحافلة الكبيرة وجلسن تحت ظلها ، وانتشر أطفالهن في الساحة يلعبون .

فجأة ، ظهر شاب في هيئة عامل نظافة . ركض نحوه آخر وتبادلا بضع كلمات . اختفى بعدها الأول ، وعاد الثاني يعلن أمام تجمّع صغير أصبحت واحدا من أفراده : «الشاب اللي حكيت معه هلقيت ، بيشتغل عامل في المعبر . قال لي انه اليهود مِسكو متفجرة محطوطة في كيس ورق» .

تقدّم نحوه شاب أسمر مربوع القامة في الثلاثينات من عمره ، وسأله : «ايش هالحكي يا خوي . . صحيح اللي بتقوله؟» .

«الله اعلم . . هيك الزلمة حكى . . أنا ما جِبت إشي من دار ابوي» ، رد الشاب .

«كيس تفجير رحلتي كلها» . همست . «لو صح ما نقله الشاب ، فلا أمل لي ولا لغيري في أن يفتح المعبر اليوم» . كررت همسا مستعملا مثل ثياب البالات الرخيصة .

من خلف سيارة الأويل السماوية ، انطلق صوت معلنا : «ما تصدقوش يا جماعة . . طلع كيس ورق فيه أربع حبات بندورة نسيه واحد من العمال جنب المدخل» .

«يخربيتهم . . بيسكرو المعبر عشان كيس ورق فيه اربع حبات بندورة» .

عقبت امرأة محجبة تقف الى جوار شاب أسمر قصير القامة ، على تعليق صاحب الصوت الذي لم أتبينه تماما ، والذي تابع يقول : «طلبو من

عامل فلسطيني يحمل الكيس ويفضّيه . . وما اطمأنوش إلا لما شافو البندورة والزلة بيطولها منه حبة حبة . . يعني طلعت متفجرة بندورة بتنفع لطبخة بامية خضرا» .

ضحكت لمتفجرة الطبخ ، وللشائعة التي صارت مثل الحقيقة ، وضحك من هم حولي ، وأكد أحدهم : «ما دامها متفجرة بندورة هلقيت بيفتحوا المعبر وبيدخلونا» .

علقت عجوز بأسى من فقد عزيزاً ، وقد افترشت أرضا تناثرت عليها الحصى : «ياريت كل التفجيرات بندورة يا بنيّ مش دم شباب زي الورد» .

نما في داخلي حلم بفقلة صغير ، لكنه لم يزد على حجم حبة بندورة . فالمعبر لم يزل مغلقا ، والوافدون يتكاثرون ، وتراشق الأحاديث يعود إلى إيقاعاته الأولى .

دخلت الساحة من خلف الحاجزين الخشبيين وكشك المراقبة شاحنة صغيرة ، توقفت قبالة الموانع الاسمنتية الضخمة أمام مدخل البناء الكبير . تراكض عدد من الجنود في الساحة خلف نقطة كشك المراقبة بصورة تبعث على القلق . وانشقت الغابة الخلفية الصغيرة عن سيارة جيب عسكرية توقفت على بعد عشرة أمتار تقريبا ، من الحواجز الاسمنتية الضخمة . هبط مجندان إسرائيليان واختفيا خلف الشاحنة . دخل الساحة شابان بملابس عسكرية برفقة فتاة ، يحمل أحدهما كاميرا تصوير تلفزيوني على كتفه اليمنى . نهض شاب كان يجلس قرب الحائط وتقدّم من التجمع الصغير الذي اندمجت فيه ، وقد تعلق بيده راديو صغير ، وأعلن بصوت راعش مرتبك : « الإذاعة الاسرائيلية قالت مسكوا بنت من معسكر جباليا حاطّه على وسطها حزام ناسف» .

تفجر كل أمل لي بفتح المعبر اليوم . مزّق الخبر أحلامي وأحالها إلى شظايا . حسدت عادل البشيتي على عبوره السهل إلى غزة . «حقا ، إن

الرواي مهما ذهب في التخييل ، لا يبلغ حافة الحقيقة . أن تسمع عن معبر إسرائيلي أو تكتب عنه ، لن ترسم سوى ظلاً لها ، يكبر او يصغر ويقصر أو يطول ، بقدر ما تلقي عليه من ضوء . أما الحقيقة نفسها فعصية على الخيال نفسه وعلى الرواة» .

تجاوزت الساعة الحادية عشرة والنصف . وبدأت شمس يونيو تتخلى عن حيادها الصباحي الناعم ، مبشرة بظهيرة يوم ساخن مثل كل حروب حزيران التي مرّت ذكرياتها السوداء قبل أيام فقط . وبدأت مساحات الظل تنحسر تدريجيا في كل مكان من الساحة . ولم يعد هناك ما يكفي من فيء حتى لربع الموجودين فيها .

بدأت أبحث لي عن ظل أتفيأ به ، وأخبر لظلي الذي لم يعد يكفي لأن يتفيأ به شخص آخر لو قررت إعارته له . اهتديت إلى الحافلة . اتكأت بخجل على جانبها قرب بابها الأمامي المفتوح ، كما تتكئ سنوات عمري على بدايات شيخوختي ، وأسندت رأسي عليه .

كان سائق الحافلة يجلس بوقار خلف مقود سيارته ، مثل إقطاعي يمتلك مساحة شاسعة لأرض من ظلال ، منهمكا في ثرثرة مع شاب جلس على مقعد خلفه تماما .

التفت السائق نحوي فجأة ، وخاطبني كمن أشفق عليّ : «ليش واقف بره يا استاذ . . اطلع ياخوي اطلع . . اقعد ع الكرسي ، الشمس صارت بتسطل الراس وبينّك جاي من سفرة طويلة» .

لم أتردد في قبول دعوته ، بل هي ما استجديته سرا ، منذ وضعت رأسي على حافة الباب . وجدت في دعوته فرصة للاستراحة من عناء الوقوف والتنقل ، ولمشاركته وجاره الحوار ، وقتل الانتظار الذي أخذ يقتل كل أمل لي في وصول قريب إلى الجانب الفلسطيني .

صعدت سلم الحافلة الصغير ذا الدرجات الثلاث ، واتخذت مكاني على المقعد الامامي الأول إلى يمين السائق ، إلى الخلف قليلا قرب الباب .

سألت السائق من باب كسر الحواجز بيننا : «من وين جَبّتَك اليوم بالسلامة؟» .

«م القدس والله يخوي» .

«شايف الباص فاضي . . غريب انك جاي من غير ركاب!»

«احنا يا خوي شركة بتقدم خدمات للأمم المتحدة ، بدّك تقول تعهدات يعني . بننقل أُسَر المعتقلين بناخدهم لزيارات السجون . اليوم الجمعة ، كان مفروض اروح غزة وآخد مجموعة من أهالي المعتقلين ، عشان يزورو ولادهم وقرايبهم المعتقلين في سجن بير السبع . بس إذا ضل المعبر مسكّر كمان ساعتين ، ضاع مشوارنا كله ، وراح تعبنا ، وراحت ع الناس الغلابة اللي صار الهم مدة ناطرين الزيارة ، اللي حصّلو تصاريحها بطلوع الروح» .

رنّ هاتف جوال أمام السائق . رفعه بيده اليسرى ويمناه تمسك بالمقود كما لو كان يستعد للتحرك : «لا والله بعدنا ع الحاجز . هيّاني قاعد في السيارة مع هالشباب الطيبين مستني ليفتحوا الطريق ونعبر . . بيقولو كان فيه عملية تفجير فاشلة . . خلّيه يرجع ع الضفة ، وقل لابو خليل ينزل ع فلقيلية يجيب الجماعة . لا لا انا ما فتح المعبر كمان ساعة واللا بلكتير ساعتين رح ارجع . . . إيش بدّي أسوي . الله معك . لا لا ما تخاف بجيبهم معي م القدس . الله معك» .

وأغلق الهاتف وأعاده إلى مكانه .

اقترب الشاب الأسمر القصير من باب الحافلة . مطّ رأسه عبر الباب وعقب بقلق ظاهر : «يعني إذا في عملية زي ما بيقولو . . معناتو يمكن المعبر ايضل مسكر طول النهار ويمكن ما يفتح لبكرة»

«مصيبة . . وين بدي أروح» .
تمتمت بصوت مسموع .
التفت إليّ الشاب وسألني : «حضرتك من وين جاي يا استاز؟» .
«من لندن» .
«من بريطانيا يعني؟» .
«أيوه» .
استعورت اللهجة المعلنة : «طب وين بدي أروح ، لا في العبر ولا في ارجع ع اسرائيل ، وين أنات في إسرائيل؟! شو هالقصة؟» .
«لا يا زلة . . ثبات في إسرائيل واحنا موجودين . إنت ضيفنا يا أستاز ، حدّ الله لتروح معنا بتحطك ع راسنا يا زلة» .
قطع الرجل التماتي الهامسة .
«إذا ضل المعبر مسكّر وين رح ترجع حضرتك؟» . سألته بلهفة معتبرا عرضه بالضيافة قشة ينبغي التعلق بها قبل أن تطير .
« بترجع ع الخليل وبتروح معانا» . أجابني بثقة وتأكيد .
«طب انت كيف راجع؟» .
«أنا معي سيارتي هديك الأوبل السماوية» .
وأشار بيده إلى السيارة ، ثم الى امرأة اقتربت منه في تلك اللحظة ، وإلى صبي وبنت أخذا يتراكضان حوله ، وتابع مقدما عائلته إليّ : «هاذي عيلتي . . زوجتي ، وهلولاك الولد والبنت اللي بتطلع اولادي» .
ابتسمت الزوجة لي ، قائلة في قلبي نافذة الثقة اسكنتها أملا مانحا حنونا : «كلنا ابسطي يا خوي . . اعتبرني اختك . . والله ما بتروح إلا معانا» .
وقبل أن أرد على عرضهما عاد زوجها وأكد : «ولا يهمك اخوي . . بيتنا بيتك» .

«بارك الله فيكم وكثّر خيركم . بالمناسبة اني الي خال وولادو في الخليل» .
«من بيت مين بالصلاة على النبي؟» .
«من بيت دعسان من اسدود . خالي اسمه جميل عبد الفتاح دعسان» .
«إه إه . . ولّ ولّ ولّ . . هذا ابو صلاح . . الله أكبر؟!» .
«ايوة ايوه . . أبو صلاح . . أبو صلاح بيكون خالي أخو امي . . اتعرفو حضرتك؟» .
«قال بعرفه . . جيراننا يا زلة بيحدوش هنا إلا بيتين . وبعرف اولاده الشباب ، صلاح وخضر وشاهر ، كلهم اصحابنا . . هيانا الظفنا جيرانك . . بس وينك ، خالك وولاد خالك ع راسي من فوق ، بس الليلة عندي في بيتي» .
اطمأنت قليلا ، فقطع طمأنينتي الخليلية الطارئة ، صوت سائق الحافلة يعلن انه ملّ الانتظار وقرر العودة : « لا تواخذونا يا جماعة ، ما ضلّش معي وقت ، صار لازم ارجع» .
أدار السائق محرك حافلته ، فابتعد الخليلي عن بابها .
هبطت من الحافلة ، ولحق بي الشاب الذي كان يجلس خلف سائقها .
نهضت النساء الثلاث من أمام الحافلة وابتعدن ، وقد خلص عن اجسادهن وأجساد اولادهن رداء الظل الذي توفّر لهم بعض الوقت . وابتعد كل من تفيأ بظل الحافلة التي غادرت الساحة ، مخلّفة بعض الغبار وساحة جديدة من صحراء صغيرة قاحلة من أية ظلال .
«هيّاها ما خديتها ع الطايرات» .
هتف صوت من وسط الساحة ، ساحبا معه أنظار من فيها صوب

مداخل المبنى الكبير . كانت ثمة فتاة محجبة تلبس جلبابا أسود فضفاضا تحمل بيدها شيئا لم أتبينه ، مضت إلى الجهة اليسرى من الساحة التي تتقدم المبنى ، يرافقها مجندان إسرائيليان ، سرعان ما اختفت معهما خلف الشاحنة العسكرية .

لم أصدق لوهلة أنني أراقب عملية تفجير فاشلة ، وأتابع تفاصيلها . وأنني أرى بعينيّ امرأة كانت ستفجر نفسها وتحيل الهدنة المعلنة إلى شظايا اتفاق لا يمكن العمل به مزقا . تغتال حلمي بالوصول إلى غزة ، التي لا تبعد عني أكثر من الساحة التي يشغلها المعبر وساحته .

غسلتني إثارة مفاجئة . نسيت الحر ومتاعبه والانتظار ومله ، واعتبرت نفسي محظوظا . اندمجت في المشهد الذي لم يتح لعادل البشيتي أن يعايش مثله .

«هذه مصادفة تاريخية نادرة» . أهمس لنفسي بسعادة منتزعة من هذا النكد الاستراتيجي . تداهمني رغبة جامحة في تصوير المشهد . أدس يدي في حقيبتي المعلقة على كتفي ، وأتحسس كاميرا الفيديو . أتراجع بسرعة محبطا نفسي بنفسي ، وأخرج يدي فارغة ، إذ أتذكر أن عملا كهذا سوف يجلب لي مشاكل لا حصر لها ، وبعضها لا يحتمل المزاح أبدا . فأنا لا أحمل تصريحا من مكتب الإعلام الإسرائيلي في القدس . وقد يطلقون النار عليّ ، أو يجرجرونني ويكسرون الكاميرا ويعتقلونني ، ويعيدونني من حيث أتيت . الوضع الآن صار أمنيا لا يحتمل المغامرة . أكبح جماح ثورتي الصحافية . أدوّن التفاصيل اذن . من الآن أبدأ وأعد تحقيقا قصيرا أروي فيه وقائع ما يجرى منذ الصباح ، وكيس البندورة الورقي . هذا غير ممكن . ماذا لو لاحظني جنود نقطة المراقبة ، أو ربما آخرون يتابعون تحركاتنا الصغيرة والكبيرة عن بعد؟ ستكون مجازفة قد تنتهي بمأساة . أشعر بخيبة كبيرة . أسقط أنا وحسي الصحافي أسرى ترددي وخوفي والاعتبارات الأمنية .

الفصل الثاني عشر

الراوي

غدا السبت ، الحادي والعشرون من يونيو (حزيران) . غدا تبلغ دانا أموفا الثالثة والثلاثين من عمرها . وغدا ، تحتفل بعيد ميلادها كما تعودت . تدعو مشاهير البلاد يتحلقون حول نجمتهم المفضلة . سيكون نور الدين حاضرا ، بهديته المدهشة التي ستجعلها نجمة كل النجوم ، فستان فالانتينو الأحمر الطويل ، المفتوح من أمام إلى حافة الركبتين ، لا يجرؤ على تسلقهما حتى لا يغضب نور الدين الذي قرر بنفسه أن يوقفه عند حده . فوق الصدر ، جهة القلب ، ستضع «بروش» من الذهب على شكل حصان ، يشبه إلى حد كبير حصان نور الدين المفضل لديه كما قال . محلّى بحجر ماسي صغير وضعه مصممه البارع فوق العين تماما .

سيكون نور الدين حاضرا ، لكن دانا لن تعلن ذلك ، ولن تكشف سر الهدية ، وستكتفي بلملمة إعجاب مدعويها .

بدأت دانا في وضع قائمة المدعوين المفترضين : والدها ووالدتها ، بقايا زمنها البريء . ايهود ، العاشق الذي ينتظر على أبواب قلبها منذ سنين . رافي باراك ، مدير أعمالها . بوريس بلدوفسكي ، كاتب سيناريوهات مسلسلاتها ومفصل المشاهد المثيرة فيها ، الذي كثيرا ما نعتته مزحا ، بمعتقل المشاهدين أمام الشاشات الصغيرة . ودينا لاؤور ، ملكة البوب الإسرائيلية .

ثم توقفت فجأة ، وهمست لنفسها غاضبة ، وهي تعيد النظر في قائمتها : «هذه سهرة تافهة بين حفنة معظم الحاضرين فيها سيكون من المنافقين» .

أخذت تتأمل قائمتها من جديد : إيهود ، الذي يصغرها بعشرة أعوام . التقطته من ملاعب كرة السلة في اشكلون ، يصعد على شهرتها ، وتتزيّن هي به في الحفلات والسهرات والنوادي واللقاءات . يتعلق بذراعها كما تتعلق حقيبة يد غالية الثمن . يتسلل إلى مشاهدها المصورة في صحف المجتمع وأغلفة المجلات ، يتكئ كل منهما على شهرة الآخر . شلومو بن زفاي ، الحالم بسلام يسمح له بشراء شواطئ غزة الشمالية . شولاميت كارينبيلي ، قفزت من البارات إلى الكينيست على سلم النشاطات غير المشروعة للإخوة كارينبيلي . رافي باراك ، مدير أعمالها الذي سيصعقه قرارها بالتخلي عن أدوار الإغراء ، واكتفائها بليلة عيد ميلاد تقدم فيها مشهدا أخيرا للجميع . سوف يدير رافي لدانا ظهره حين تخبره بقرارها . سوف يصعقه فقدانه اللحم الذي باعه لسنوات .

مسحت دانا القائمة من ذاكرتها قبل أن تكتمل . وقررت أن تكنس من حياتها تلك الحفلات بروادها .

قررت دانا أن تعود إلى حضن أمها . في الثالثة والثلاثين من عمرها ، قررت أن تعود طفلة تفرح لهدايا والديها . سوف يسعد قرارها أمها كثيرا . فقد توقفت دانا عن تلك العادة منذ أكثر من خمسة عشر عاما . منذ أخذت تراقب بفرح نجوم المجتمع ومشاهيره يطفئون كل عام شمعة جديدة في حياتها . كانت آخر مرة احتفلت فيها بعيد ميلادها عام ١٩٩١ ، حين كانت في التاسعة عشرة من عمرها ، دخلت بعدها الجيش لأداء الخدمة العسكرية التي خرجت منها امرأة أخرى . ومنذ تلك الحين ، اكتفى والداها ببطاقة مشتركة يرسلانها لها ، ومكالمة هاتفية معها ، وبضع كلمات

تهنئة روتينية بالمناسبة .

«لا رغبة لي في الاحتفال هذه المرة ، ولا في جمع البطاقات والهدايا» .

ترددتْ حتى في الاحتفال في بيت والديها . «احتفال هذا العام تبخر في سماء لندن» . همستْ . وواصلت همسا أعادها إلى كل ما حاولت الهرب منه : «كنت أتمنى أن ألتقي نور الدين هناك ، او حتى في روما ، تغير في طرقاتها السيارات . أن أحتفل في لقاء متنقل ينتهي في فيلا بعيدة عن أعين الجميع . كنت انتظر أن أحسم ونور الدين قضايا كثيرة معلقة . اختفى نور الدين وتركني أخذ أسئلتي معي إلى تل افيف ، وبعض كلمات تلمتها من بين شفتي وليد دهمان ، هي عزائي الوحيد إلى أن ألتقيه ثانية . .

«فكرت في إيهود . الكل يعتقد أننا أصبحنا عاشقين ، لكنه بالنسبة لي ليس سوى خاف آخر اتباهى به ، وأغطي به علاقتي المحرمة بنور الدين . إنه الآن يترقب عودتي . ينتظر مكالمة مني تخبره بوصولي ، ودعوتي الى الخروج معا حيث يستطيع أي صديقين أن يستمتعا بمساء هادئ في تل - افيف . منذ شهور وهو ينتظر أن يسمع مني عبارة مختلفة غير عبارة الصداقة التقليدية المكررة «حقيري إيهود» ، التي ربما مل سماعها . سوف يعلن لي حبه للمرة الألف دون أن يتلقى أكثر من عبارات تبقيه قادرا على تمديد إقامة عواطفه لفترة زمنية اخرى . مسكين إيهود ، إنه لا يعرف أبدا انه لاعب احتياط في فريق عاشقة من نوع مختلف» .

رن الهاتف وصفع هلوساتها المضطربة . تناولت السماعة ورفعتها إلى أذنها : «دانا بتي . . وصلت في الموعد يا حبيبتي . . باروخ هبا أهوفاتي . .حمدا الله على السلامة حبيبتي»

«إلوهي إما . . اني متشائمات البحا في آبا (لقد افتقدتك وأبي كثيرا)» .

«متى وصلت؟» .

«شعاليم ليفني إما» .

«منذ ساعتين؟ لعلك هاتفت إيهود؟» .

«كلا لم أفعل . . ليس في هذا الوقت على الأقل . . فأنا لم أزل متعبة» .

«سأل عنك مساء امس» .

«ما حداشوت هيوم إما؟»

«إين كل حداشوت . . لا جديد أبدا . . كل شيء هادئ منذ إعلان الفلسطينيين الهدنة . . مناوشات بعيدة في غزة . . ومشاكل يهودا والسامرة على حالها . . متاعب يومية . . تعرفين . . لكن لا شيء خطيرا . آه نسيت أن أخبرك . . سمعت أن جنودنا في معبر إيرز اكتشفوا فتاة انتحارية هذا الصباح . . .» .

«ألم تكن لا تكون قد فجرت نفسها؟» . علت نبرة راعشة .

«لولولو . لم تتمكن من ذلك . كان جنودنا أسرع منها» .

«آه . . ياروخ هاشيم . . الحمد لله ارحتني . .» .

«أبوك يدعوك وإيهود إلى السهر عندنا الليلة . . وسيكون شقيقك دوف هنا أيضا؟» .

«ليكن ذلك مساء غد إما . . فالدعوة ستكون مني أنا . . سوف نحتفل معا بعيد ميلادي عندكم» .

«إلوهي . . هذا أسعد يوم في حياتي . . سيفرح والدك كثيرا . داتا ستعودين إلينا يا حبيبتي . . سنحتفل بعيد ميلادها هنا» .

«مع من تتحدثين إما؟»

«مع والدك الذي يرقص الآن . . انتظر يا رجل . . تكلمها غدا براحتك» .

«هذا أسعدني مع أبي وقتا أطول . دعيه يرقص حتى يهمد ويرتاح . . أراك غدا . . لا تنسي أن تخبري دوف بذلك» .

«بسيدر . . أبهوت رؤوت بتي» .

«أبهوت رؤوت إما» .

وضعت داتا سماعة الهاتف ، واتجهت الى غرفة مكتبها ، وجلست خلف الكمبيوتر . فتحت بريدها الالكتروني فوجدت ثلاث رسائل جديدة .

الفصل الثالث عشر

عادت فتاة الحزام الناسف ، (الذي لم ينسف سوى محاولتها) ، ترفل في جلبابها الأسود ، تقطع المسافة التي قطعتها من قبل ، يرافقها الجنديان اللذان رافقاها في المرة الأولى . وخرج مجندان من خلف الشاحنة ، وأخذا يركضان على عجل نحو سيارة الجيب المتوقفة أمام المعبر على بعد ثلاثين مترا تقريبا من المكان الذي أقف فيه .

صعد الجنديان إلى السيارة تباعا واتخذا مكانيهما قرب شاشات تلفزة صغيرة بدت واضحة للعيان .

استفسرت شابا يقف إلى جواري كان ينظر في الاتجاه نفسه ، فقال إن السيارة هي مركز عمليات صغير متنقل ، مخصص لإدارة الروبوت بالريموت كونترول ومراقبته عبر الشاشات . وتوقّع أن يقوم روبوت ، بعد قليل ، برفع الحزام الناسف من على الأرض حيث أجبرت الفلسطينية على خلعه عن وسطها ، ليصار إلى تفجيره في مكان منعزل .

خرج فريق الصحافيين الثلاثة بكاميراتهم التلفزيونية ، فجأة من مكان ما في الغابة الغربية الصغيرة ، واختفوا في الجهة الخلفية إلى يمين المعبر . لكنهم عادوا بأسرع مما اختفوا برفقة مجند اسرائيلي ، وتوقفوا جميعا إلى يمين نقطة المراقبة ينتظرون أوامر أو إذناً بالتصوير على ما يبدو .

صاح صبي فجأة : « بدي اشخ يمّة » .

التفتُّ نحو مصدر الصوت ، فرأيت سيدة تمسك بيد صبي لا يتجاوز الرابعة من عمره ، يقفز إلى جوارها وقد وضع إحدى يديه بين فخذيه كمن يخشى أن تنفتح نافورة بوله رغما عنه ، **(ليته تركها تفعل وتبول على المكان)** ، ويتجهان معا نحو مربع اسمنتي بسقف من الاسبست بلا باب ، يقع إلى يسار حاجزي السيارات .

فجأة ظهر من خلف الشاحنة ، روبوت صغير أشبه بعنكبوت معدني ، بذراع رفيعة ترتفع في الهواء مسافة خمسين سنتيمتراً تقريبا ، تعلّق بها حزام تدلى على جانبي لاقطين . تابع الروبوت تقدمه ببطء شديد نحو بين المعبر ، واختفى خلف سيارة الجيب قبل أن يعود إلى الظهور ثانية للحظات ، اختفى بعدها داخل الغابة ولم أعد أراه ، ولا بد أن الآخرين ما عادوا يرونه مثلي أيضا .

تذكّرت اول روبوت شاهدته في شريط متلفز على إحدى الفضائيات العربية ، منقولا عن التلفزة الإسرائيلية . كان يجر بقايا جسد فلسطيني فجّر نفسه ، يمضي ويخط بدم القتيل طريقا على امتداد الشارع وصولا إلى السيارة التي تم نقل بقايا جسده الممزق فيها .

تقدم فريق التصوير الثلاثي برفقة الجندي الذي أوقفهم ، قبل قليل ، خلف السياج على مقربة من نقطة المراقبة ، وركض أربعتهم واختفوا في ما افترضت أنها ساحة خلفية للمعبر .

عادت المرأة وابنها الذي بدت عليه علامات السعادة ، بعد أن أفرغ ما انحشر من بول في مثانته داخل ما يشبه المرحاض الصيفي . كان الصبي يقفز برشاقة وفرح وهما يتجهان إلى حيث كانا يجلسان من قبل .

في الساعة الواحدة تماما ، انطلق صوت انفجار اهتزت له المنطقة بأكملها ، وارتعش له جسدي . وتصاعد من خلف الأشجار دخان كثيف ، صعدت معه وقائع عملية انتحارية فاشلة تبدّدت في الفضاء .

عاد فريق التصوير إلى مكانه السابق ، وتقدم جندي برتبة لم أتبينها من الفريق ، ووقف أمام الكاميرا ، وبدأ يدلي بتصريح رسمي لم يسمعه أحد من الجمع الذي يملأ الساحة .

«إنه ناطق بلسان الجيش الإسرائيلي إذن يلخص مجريات ما حدث منذ الصباح» . هكذا قدّرت .

أنهى فريق التصوير مهمته ، وغادر المكان على عجل مارا من أمام الجميع ، ثم اختفى خارج الساحة ، بينما سرى همس بين الجميع : «بعد شوية بيفتحو المعبر» .

الفصل الرابع عشر

الراوي

سارعت دانا تفتح الرسائل الثلاث في بريدها الالكتروني تباعا، من دون أن تتوقف أمام مرسليها أو تدقق في تواريخ إرسالها.

كانت الأولى من إيهود، وقد كتبت على عجل على ما يبدو يقول فيها: «عزيزتي دانا.. متى تعودين.. لا تنسي أن عيد ميلادك بعد يومين.. كلنا بانتظارك.. هاتفك النقال لا يرد وطمنيني».

أما الرسالة الثانية فكانت من شولاميت: «آسفة لإزعاجك يا عزيزتي، أكتب إليك ولا أعرف إن كنت عدت أم إنك ما تزالين في الخارج.. لدي أخبار مقلقة جدا. لا تلوميني اهوفاتي، إنك خير من أحكي له من بين الاصدقاء. رجال الأمن العام، اعتقلوا قبل أربعة أيام، ثلاثة اشخاص خططوا لعمل إجرامي ضد عائلتنا.. يستهدفوننا لنجاحنا يا دانا. تتذكرين كم تعرضتُ لتحرشات حتى من أعضاء في الكنيسيت، لكني لن أسكت على ذلك. تعرفين ان ما تقوم به عائلتنا قانوني مئة بالمئة. أمس حاول رجال الأمن العام الدخول إلى بيتي وتفتيشه فتصديت لهم. رفعت في وجوههم حصانتي الدبلوماسية ومنعتهم. وأعلنت أمام رجال الصحافة بكل وضوح، أنه لا يوجد في بيتنا أي شيء ذي علاقة بنشاطات غير مشروعة، فنشاطات كازينلي تجري في بلدان تسمح بالقمار العلني.

عفوا على هذا الاسترسال ، أردت فقط أن أطمئنك وأضعك في تفاصيل ما جرى حتى لا تصلك أخباري ناقصة أو مغلوطة . هاتفيني عندما تنوين لنتناول القهوة معا في مكان ما على الشاطئ .

اشتاقك كثيرا

شولاميت .

هزّت دانا رأسها بدهشة لما كتبته شولاميت ، ولشغف الإسرائيليين بالقمار والسفر من أجله إلى نهاية الكرة الأرضية . فمنعهم الدولة من المقامرة في أراضيها ، فيذهبون إلى اليونان وبعض مدن إسبانيا للعب هناك . لقد كان رابين ذكيا في هذا الصدد . فحين وقّع اتفاقات أوسلو مع ياسر عرفات ، اتفقا على إقامة كازينو للقمار في أريحا . ولعله همس في أذن عرفات وقتذاك : «خلّوهم . دعوهم يلعبون بعيدا عنا ، واجمعوا أنتم خسائرهم» .

«شولاميت محقّة ، إذ لا فرق بين قمار أريحا وقمار الانترنيت ، فكلاهما يجري في الخارج ، وإن كان قمار الانترنيت أكثر عملية ، إذ لا يحتاج إلى سفر أو انتقال لا إلى أوروبا ولا أميركا ، ولا حتى إلى أريحا ، التي صار الدخول إليها في الفترة الأخيرة مستحيلا ، فالمقامر يستطيع اللعب جالسا على أريكة مريحة في بيته ، أو حتى في مكتبه . . يا لسعادة الكازينوهات بالعولمة وبالثورة التكنولوجية التي رافقتها» ، تمتمت دانا لنفسها .

فتحت الرسالة الثالثة ، وكانت بالإنجليزية قرأت فيها : يعتذر الجنرال نور الدين عما سببه لك غيابه عن لقاء لندن ، لأسباب تتعلق بالشأن العام في الدولة . سوف نعمل على ترتيب موعد للقاء قريب إنشاء الله ، ونخبرك به في حينه . كل شيء على ما يرام اطمئني .

صرخت دانا حتى أسمعت كائنات البحر صوتها : هذا أسعد خبر

قرأته ، سيزيل عني متاعب الأمس كلها . غدا أحتفل بعيد ميلادي بشكل حقيقي . سألبس الفستان الأحمر الذي أهداني إياه نور الدين ، وأرقص مع أبي وأمي والجميع رقصاتهم هم لا رقصات الناقلين .

نهضت من على كرسيها وأخذت تدور في الغرفة ترقص وتغني أغنية نور الدين المفضلة :

I found my love in Portofino

وجدت حبّي في بورتوفينو

في كل مرة تحضرني

يدقّ قارع الأجراس عاليا

يبثّ أغنيات زواجنا

عبر السحاب

آه . . يا بورتوفينو

وجدت فيك الأحباب

الفصل الخامس عشر

أثار فضولي رجل يجلس على كرسي متحرك بأربع عجلات ، يعتمر طاقية بيسبول تخفي نصف وجهه ، وقد أرخى يديه على مسندي الكرسي . كان نحيفا قليل الحجم يمكن حمله بكرسيه المتحرك بين ذراعين عاديتين لشاب عادي .

كان الرجل يحترق صامتا وقد تجمع كله تحت ظل طاقيته . تقدمت منه وبادرته بالسؤال بشيء من الحرج والتردد : «الشمس حامية عليك يا سيد . . تسمح لي آخذك تحت التكعيبة فيه شوية ظل هناك» .

وأشرت بيدي إلى فجوة ظل هارب تحت سقف التكعيبة الاسبستي .

لم يجب ، ولم يرفع حتى عينيه نحوي ، أو يبدي ما يشير إلى رغبته في التعرف على ملامح غريب يعرض عليه المساعدة . واكتفى بدلا من ذلك كله ، بإشارة من يده تعني «انسى» .

ألهي كبرياء أم خجل ، أم عدم اكتراث حتى بنفسه . فكّرت متسائلا ، لكني لم أيأس من المحاولة : «أرجوك . . اسمع مني يا زلمة» .

«اني متعود يا خوي ، لا هي أول مرة ولا آخر مرة . كل ما يروح أتعالج في رام الله ويرجع ، بتمرمر المرمرة نفسها» .

قاطعنا مكبر للصوت لم أنتبه لما قاله في البداية ، واضعا حدا لمحاولتي إقناع الرجل . وحين عاد وكرر ما بثه من قبل ، وأخذ الناس يتراكضون نحو

الكشك ، فهمت أن المسؤولين في المعبر يطلبون الهويات وتصاريح الدخول .

رفع الرجل المُقعد رأسه قليلا نحوي كمن يستأذنني . ابتسم وهو يدفع بيديه عجلات كرسيه ويمضي باتجاه الكشك .

خلت الساحة تقريبا من الرجال ، ولم يتبق فيها سوى عدد من النساء ، اللواتي سلّمن هوياتهن وتصاريحهن لأقاربهن من الرجال ، من دون أن يبرحن أماكنهن الى جانب الأطفال والصبية الصغار .

أسرع شاب وسيم ، يضع على عينيه نظارتين طبيتين ، كان يقف على مقربة منّي ، وتناول من الرجل المقعد بطاقة هويته ، ولم يعترض الآخر على مبادرته ، ومضى نحو كشك المراقبة ، وسلم البطاقة لجندي طويل القامة ذي وجه أحمر بلون البندورة ، راح يضع ما يتلقى من وثائق شخصية فوق بعضها البعض تباعا .

عاد الشاب يقف إلى مكانه بجواري ، ولم أزل متسمرا في مكاني بلا حراك ، وكأن ما يجري حولي لا يخصني أبدا ، أو كأنني لم أنتظر هذه اللحظة . فقد اختلط عليّ الأمر . فالمطلوب ، كما أوضح لي الرجل المقعد ، هو تسليم هويات وتصاريح الدخول ، وأنا غير معني بهذه المسألة ، ولا حتى بالجهة التي سيمرون منها كما فهمت . للحظات طويلة نسبيا ، اعتقدت أن تسليم جوازات السفر لمن هم مثلي ، يتم في مكاتب مراقبة وثائق الشخصيات المهمة جدا (VIP) الواقع الى اليسار ، قرب زاوية المعبر الشرقية كما قيل لي من قبل .

ترددتُ كثيرا في طرح سؤال يخرجني من حيرتي . وفي النهاية ، اضطررت إلى استعارة السؤال من نفسي ، وطرحته على الشاب الواقف إلى جواري : «من فضلك . . وين بيسلمو الجوازات؟» .

وبدلا من أن يجيبني ، سألني عن جواز سفري . أجبته بأنه بريطاني .

عندها قال أن عليّ ان أسلمه للمجند . وإنه شخصيا يحمل جواز سفر صادراً عن الأمم المتحدة وقد سلّمه بدوره مثل تصريحات الآخرين وبطاقاتهم .

سحبت حقيبتيّ خلفي ومضيت باتجاه كشك المراقبة . قدمت جواز سفري للجندي الذي التقطه دون أن ينظر اليّ ، ووضعه بين الوثائق الأخرى قبل أن يصيح بالعربية : «فيه حدن معو هوية أو تصريح؟» .

تقدم منه شاب وسلم بطاقتي هوية . دخل الجندي كشك المراقبة وبقي الجميع في الانتظار .

«هلأ شو بيصير؟» .

سألت صاحب الجواز الدولي مجددا ، وقد انضممنا معا إلى التجمع حول كشك المراقبة : «بيفحصوهم مجموعة مجموعة وبينادو . . وكل واحد بيطلع اسمه بيعبر» .

«والجوازات؟» .

«الجوازات بياخدوها ع المكتب اللي هناك» . وأشار بإصبعه الى مكتب الشخصيات المهمة جدا . فطمأنتني إشارته ، وذكّرتني بأنني لم أزل شخصية مهمة جدا ، رغم اختلاط الوثائق والتصاريح مؤقتا في يد الجندي .

واصلت الانتظار مثل الآخرين ، تحت شمس حارقة بعيدا عن أية ظلال ، سوى ظلال الواقفين أنفسهم ، الذين كانوا يتفيأون بها سراً وعلانية . على مقربة مني تحت صبيا في الخامسة من العمر ، يتسلى بحك الأرض بقدمه ، وقد وضع على رأسه طاقية من ورق مقوى صنعها بنفسه على ما يبدو ، من غلاف لكراس مدرسي أخضر اللون ، وبنتا تكبره بعامين تقريبا ، تقف بجواره وقد ظللت وجهها بكفيها تتفادى ضوء

الشمس القوي ، وطفلة على صدر أمها ترضع الهواء من مصاصة كاذبة ، وقد استظلت بمنديل أمها الذي جمع رأسيهما تحته ، وامرأة عجوزاً تلفّ رأسها بمنديل من الشاش الأبيض ، تجلس على الأرض . استوقفتني قدماها العاريتان . أخذتُ أراقبها بفضول مرتبك ، تتململ ثم تزيح مؤخرتها تحت وهج الشمس فوق الحصى المتناثرة على الأرض ، وتلحق بظل عامود كهرباء طويل نحيف مثل قامة صديقي القديم سعيد دهمان ، منتصب مثل خازوق في المكان .

مشيت نحو العامود وتوقفت لصقه تماما . تضاعف حجم الظل حول المرأة وتغير شكله .

ابتعدت عن العامود ، فانفصل ظلي عن ظله وتخلى عن المرأة . اقتربت منها فأحسّت بي . رفعت رأسها نحوي وهي تظلل عينا بكف حفر الزمن تفاصيل عمرها عليها ، وقد أغمضت الأخرى تفاديا لضوء الشمس ، وتأملتني بنصف نظرة .

دنوت منها ، وجثوت على ركبتيّ ، وبادرتها بالتحية : «الله يمسيكي بالخير يا حاجة» .

«يسعد مساك يا بنيّ» . ردّت .

فتحت كلمة «بنيّ» قلبي واسعا مثل شراع مركب غزاوي ضخم عبأته نسمة عاطرة . سألتها باهتمام أكبر : «زمان إلك ناطرة في هالشوب ياحاجة؟» .

«أكثر من ساعتين والله يا بنيّ ايش بدّي أسوي ، أمر الله . اعملت امبارح عملية قسطرة للقلب والشرايين في رام الله ، وارجعت اليوم . ومن الفجر واني من حاجز لحاجز ، بلف وبدور ، بمشي مرّة وبزحف عشرة ، تْوصلت لهان . وهنا اني زي ما انتَ شايف قاعدة ليفرجها الله علينا من هالقلب» .

«أوين متسهلة بالسلامة؟» .

«على عبسان انشا الله . بتعرف عبسان حظرتك؟ شكلك مش من هلبلاد!» .

«آه طبعا . بعرف عبسان الزغيرة وعبسان لكبيرة . وخزاعة كمان» .

«كلامك زينا بس لكنتك الله أعلم ، ايش بدرّيني؟» .

جلست على مؤخرتي حتى شممت أنفاسها : «لما كنت ازغير يا حاجة ، أول شبابي لما كان عمري بحدود سبعتاعشر سنة ، اشتغلت رئيس عمال (فورمان يعني) مع مقاول اسمه الحاج ابو نبيه حجازي ، وبنينا حاووز الميّة اللي في عبسان واللي في خزاعة كمان» .

«أكيد من زمان مش جاي ع لبلاد؟» .

«من ٣٨ سنة يا حاجة» .

«يا غلب امك ، لو اني مطرحها لشقيت ثوبي من الصدر نصّين . . . الوالدة بعدها عايشة يا ولِدي؟» .

«الحمد لله عايشة ومستنياني م الصبح» .

«الله يفرجها علينا وعليك من رمية هالشمس والشوب . . . الله يرميهم في شمس جهنم قادر يا كريم» .

«كيف أساعد هذه المرأة . ما الذي أستطيع أن أقدمه لها؟ هل أعود وأقف مجددا عامودا لصق العامود ، كما فعلت من قبل ، وأوفر لها شريحة ظل إضافية؟ . هل أقدّم لها حقيبتي السميكة تجلس عليها مؤقتا ، تخفف حريق الموقد الذي تجلس عليه؟» .

احترت ، ولعنت حيرتي التي تذكّرني بعجزي . ومضت في ذهني مثل برق خاطف ، فكرة لم أتردد في تنفيذها . فتحت الحقيبة الصغيرة التي لم تتخلّ عن كتفي . أخرجت منها زوج أحذيتي الرياضية الجديد ماركة ريبوك ، ووضعته بين قدمي العجوز .

«ايش بتعمل يا بني؟!» .

«السـي هذا في رجليك ياحاجة .. الأرض مثل الجمر» .

«يا بنيّ أني متعوّدة . وهاذي الكندرة شكلها غالية» .

انحنيت أساعدها على انتعال الحذاء ، بينما كانت تحاول إبعاد أصابعي وهي ترده بحياء بحجم سنوات عمرها : «حشا الله يا بنيّ .. أستغفر الله العظيم» .

لم ألفت لاحتجاجها الذي يقطر خجلاً . «اني زي ابنك يا خالتي» ، قلت . انتهيت من إحكام رباط الحذاءين ، ونهضت عائداً إلى العامود ، بينما كانت العجوز تملأ الساحة حولنا بالدعاء . أسندت كتفي إلى العامود المحني العصور بظلي ، وأسمع دمعاً تسل حزناً كبيراً أثقل عليّ لتفلت .

صرخ ضابط طويل القامة مثل عود قصب ناشف ، بعصبية شديدة في الجميع : «يلا كلّو يرجع ورا» . واخذ يدفع بالواقفين قرب الكشك .

صاح فيه شاب انبرى من وسط الجميع بعصبية ظاهرة : «اسمع ... يلك اتخلّى هذا الختيار كماله في الشمس .. حرام عليك» .

وأشار إلى رجل عجوز يحمل ظهراً محنياً على عصا خشبية ترتجف بين يديه ، كأنها مستأجرة لم يتعود عليها ، أخذ يجرّ قدميه بصعوبة نحو حائط كشك المراقبة المقابل .

«كله يرجع ورا .. صغار وكبار .. ما في ختيار وولد .. يا الله ارجع» .

عاد الضابط يكرّر صراخه كأننا لم نسمعه من قبل .

اضطر الجميع إلى التراجع إلى الخلف . لكن زميلاً له كان يقف إلى جانبه ، تناول كرسياً خشبياً صغيراً ملقى تحت جدار الكشك ، وقدمه للرجل العجوز . ثم استدار إلى الضابط وهمس في أذنه ببضع كلمات ، اضطر بعدها الأخير لغض النظر . لملم غضبه وحقده وكراهيته وقذف بها جميعها في وجه الآخرين : «امشي ابعد .. يلا امشي» .

تقدم الشاب الذي بدا في العشرينات من عمره من العجوز ، وساعده على الجلوس على الكرسي تحت ظل الحائط .

وضع الرجل عصاه بين ركبتيه واتكأ بكفيه عليها . أخذت أتأمل الرجل ، رأيته يدخل لوحة «مسعودة» الشهيرة ، التي رسمها الفنان التشكيلي الفلسطيني ، إسماعيل شموط ، قبل عشرات السنين ويحلس بين ألوانها ، بتجاعيد وجهه التي حفرت تفاصيل حياة قاسية متعبة ، بانحناءة عمره كله فوق عصاه أمام مصير وحشي طرد مشهد اللجوء من تفاصيل اللوحة القديمة واحتل مكانها في خلفية المشهد . هل كان شموط يحمل رؤيا؟ ، أم كان يدرك حين رسم لوحته ، أن النكبة لن تتوقف عن الحمل والولادة ، وأنها سوف تأتي بتوائم أحياناً ، ومع كل نكبة تعيد وتنفض الغبار عن لوحته ونقرأ اسمها القديم «مسعودة» .. ولا نعود؟ .

«يا الله كلكم ورا .. ما في لم هويات .. صفوا ورا بعض .. واحد واحد بالدور . تعلموا النظام» .

حدّد الضابط إياه صراخه كأنه آلة لإنتاج الزعيق .

همست لنفسي : «لو كان فيه نظام يا ابن الكلب ، ما ظلّينا كل هالوقت الطويل تحت الشمس والنكد ، عشان ننتقل مبيت متر في أرضنا» .

تدافع الجميع نحو الكشك غير عابئين لصراخه ، واندفعت معهم محمولاً بالحمل . لم أتعوّد مزاحمة كهذه تفرض نفسها وتغيّر سلوك البشر . تحوّلهم إلى فوضويين محترقين يحتقرون النظام ويعاملونه كغريب .

جمع الجندي عدداً آخر من بطاقات هويات قادمين جدد وتصاريح دخول . لم توقف فجأة عن التقاطها من عشرات الأيدي التي ظلت معلقة في الهواء ، مرفوعة بقوة أصوات أصحابها تكرر الرجاء بعد الرجاء ، وتدعو الضابط (الذي تتمنى له الموت) ، بطول البقاء «الله يخليك يا

خواجة . .الله يخليك» ، ولا ينقذهم من بشاعة سطوته حتى دعاؤهم العلن .

تراجع الضابط ومعه ما جمعه من هويات وتصاريح . وتقدم جنديان وأخذا يدفعان بأيديهما من هم أقرب إليهما . وبقيت أنا منقوعا في خجلي ، كأن كلمات الضابط زرعتني حيث وصلت ، إلى أن اقتلعني الزحف المتراجع مثل موج هاجم شاطئه من مكاني ودفعني بعيدا خلف الحاجز تماما .

التفتَ الضابط إلى عجوز اللوحة ، وانتهره : «انت كمان يا حاج . .قوم يا الله ورا» .

«حرام عليك الزلة كبير وتعبان . .إنت ما الك ابو .ما الك أهل؟» .

صاحت سيدة شابة تحمل طفلا على يديها .

لم يكترث الضابط لصراخها ، بل انتهرها صارخا من بعيد : «وانتَ كمان خلّيكْ ابعيد . . كلو ورا ما في كبير وازغير» .

نهض العجوز عن الكرسي الخشبي الصغير متكئا على عصاه ، ومضى بخطوات ثقيلة . خرج من اللوحة الصغيرة إلى المشهد البانورامي الكبير لمئات الفلسطينيين يحاولون المرور من معبر . انتحى العجوز جانبا . انحنى على نفسه وأجلس مؤخرته على الأرض المليئة بالحصى الساخنة كحجارة الطابون .

رحت أتأمل الضابط من بعيد . شخصية نموذجية لضابط إسرائيلي بطل ، يحرس بوابة الوطن من غزوات «الغوييم» الغرباء . صورة تتكرر يوميا لجندي عائد من خدمته في نهاية الأسبوع أو الشهر ، يروي الحكايات عن ضبطه بمفرده (متجاهلا حتى مساعدة رفيقيه الآخرين) ، عشرات الفلسطينيين المزعجين . عن حقه في الترقية نتيجة احتقاره لعجوز فلسطيني في السبعين من عمره أو يزيد . عن هذا الحاجز الذي يفرم

الأعصاب وسنوات العمر ، لكي يمكن هذا الضابط وأمثاله من الاعتزاز بانتمائهم إلى لواء «غيفعاتي» المفضل في «جيش الدفاع» ، الذي انتدبه مثل مئات آخرين لتعذيب الفلسطينيين . **«لو كان الضابط يملك شجاعة اساف اورون؟!»** .

فكّرت ، وكررت ما فكّرت به وزدت عليه : **«لو كانت له نصف شجاعة اورون ، لبصق في كفيه بما يكفي لأن يغسل وجهه ويستيقظ من بشاعة أفعاله»** .

كان أساف أورون ، الذي قرأت عنه قبل سنوات ، ينتمي مثل ضابط المعبر هذا الى لواء غيفعاتي . لكنه لم يجد ما يفخر به أثناء خدمته ، بل وجد ما يستحق الكثير من الاحتقار . تمرّد على ماضيه وحاضره . وقّع على «رسالة المحاربين» ، التي كتبها مجندون تمردوا على خدمتهم وبعثوا بها إلى قيادتهم ، وكان توقيعه الثامن على قائمتهم .

كان اساف من أوائل الذين قالوا بصوت هزّ وزارة الدفاع : **«منذ الآن نرفض الخدمة في المناطق المحتلة»** . كان برتبة سيرجينت ، يقود مجموعة تمارس ما يمارسه هذا الضابط الآن . لكنه لم يحتمل طويلا لعب دور الضابط البطل ، فقد اكتشف أن في رأس أمثال هذا الضابط «ضميرا من نعال الأحذية» .

كتب أساف في شهادته المنشورة في مواقع اليكترونية عدة ، تحت عنوان «لماذا» : **« . . حين وجدت نفسي في موقع المسؤولية ، تصدّع شيء ما في داخلي . ومن دون تفكير ، تحولت إلى منفذ جيد لتعاليم الاحتلال ، وصفيت حساباتي مع المدّعين الذين لم يظهروا احتراما كافيا لهذه التعاليم (. . .) مزّقت الوثائق الشخصية لرجل في سن أبي . ضربت ، قمّعت ، ومارست الإساءة والاضطهاد . حدث ذلك كله في مدينة قلقيلية ، على بعد ثلاثة أميال تقريبا من البيت الجميل لجدي وجدتي»** .

لم يصمت . أسأف لم يصمت ، وصنع بنفسه البطل الذي أراده على صورته هو ، وتخلص من ضمير الأحذية .

«أي نوع من البشر أنت؟!» .

صرختُ في الجندي ألفظ صراخا مزق دواخلي وأعادني إلى حقيقة الأشياء . في تلك اللحظات بالذات ، لملمت تفاصيلي القديمة بعضها ، وقدّمتني مثل الآخرين ، لاجئا مشردا عند حاجز على عتبة الوطن .

«وانت انصرف . . روح ابعيد» .

انتهرني الضابط فانتهرت ، ولم أكن أملك سوى الانتهار . وتراجعت مع الركب الذي تحرك فرادى باتجاه التكعيبة . سحبت حقيبتيّ وخيبتي التي تأبى أن تفارقني ، وعدت ، لا يفارقني مشهد الضابط الوقح ، يدفع بالعجوز بعيدا ، ينتزعه من الظل القليل الذي يلطّف شيخوخته .

شعرت بالتعب . لقد مضى على وجودي في ساحة الاعتقال المؤقت هذه ، ما يزيد على الأربع ساعات . تلفّتُ حولي أبحث لي عن ظل في أرض حُصِد زرعها من الظلال ، ولم يبق منه إلا القليل ، فلمحت برميلا خشبيا ملقى بجانب عمود التكعيبة ، أسرعت وجلست عليه .

مسحت عن جبيني بمنديل ورقي ، حبات عرق لزج ذي ملوحة خاصة . وعدت أتأمل الضابط الذي سكن مخيلتي واستراح فيها . شيء ما فيه لم ألتفت إليه من قبل . ملامح قديمة خرجت فجأة من بين وجوه كثيرة تعرّفت عليها في حياتي منذ رحيلي الأخير عن البلاد عام ١٩٦٧ . تذكّرت بوريس ابراموفيتش ، بقامته الفارعة ووجهه الأبيض المتورد بحمرة الأوروبيين الشرقيين . انتابني فزع من أن يكون بوريس قد هاجر إلى إسرائيل . خدم في الجيش وعشق صورة البطل ، وأحب لعب الدور نفسه وأتقنه .

كان بوريس حين تعرفت إليه ، يصغرني بأكثر من سبعة وعشرين

عاما على الأقل . كنا زميلين في فصل لتعليم اللغة الإنجليزية في كلية «عمر سميث» في لندن صيف العام ١٩٩٦ .

ذات مساء ، دخل علينا غرفة الصف مدرسنا الشاب جون ميهان ، تسبقه ابتسامته التقليدية . لم يبدأ الدرس فورا كعادته ، بل أخذ يتفحصنا فردا فردا . يحصي الحضور والغياب بعينيه ويدوّن في ذاكرته الأسماء ، (هكذا ظننت) . عقد ساعديه على صدره . هزّ رأسه قليلا ، ثم قال يخاطب الجميع : «أكثر من ثلثكم انضم إلينا خلال الأسبوعين الأخيرين» . ثم طلب منا تقديم أنفسنا من جديد .

بدأت الأسماء تتلى تباعا . حين وصل الدور أنطونيو برانديللو ، وهو زميل إيطالي التحق في الفصل في الفترة نفسها التي التحقت فيها ، تذكرت ما جرى بيننا ذات مساء سكر بنبيذنا وضحكت . فقد غنّيت على مسمعه ، المقطع الأول من أغنية قديمة للإيطالية رفائيلا كارا ، اعتقدت أن شباب إيطاليا يحملونها على ألسنتهم أينما ذهبوا :

come e'bello far l'amore da trieste in giu»

كومي اي بيللو فار لاموري دا تريستي ان جيو . .» (ما أجمل ممارسة الحب في تريستي السفلى) .

ضحك ساخرا وقال : «كان والدي معجبا بالأغنية . بالمناسبة هي تتحدث عن مدينة تريستي الحدودية ، التي يعيش فيها إيطاليون فينيسيون ، وسلوفينيون ، وكروات ، وألمان» .

غطيت خجلي بالصمت .

ثم جاء دور من تجاوره وعرّفت نفسها ، حليمة بلحميس مغربية من مراكش . أحمد مهاجراني إيراني من طهران . . .

حين جاء دوري ، ذكرت اسمي وطبيعة عملي وجنسيتي الأصلية . ولم أنس في تلك اللحظة أبدا ، تلك النظرات الضبابية الغامضة التي

لمحتها تنبعث من عيني شاب التحق بالفصل منذ أيام قليلة فقط، لن أنساها أبدا. حين جاء دوره، قال إن اسمه بوريس ابراموفيتش، وإنه أوكراني. وقد عرفت لاحقا أنه يهودي.

في تلك المساء الذي لا ينسى، كان جون ميهان قد أسس من دون أن يدري، أعمدة أقمنا عليها جسرا من نظرات حائرة ستتواصل لاحقا بيني وبين بوريس. لم تكن نظرات كراهية، ولم تكن من زيتون أخضر، بل خليط من أسئلة يكتنفها غموض. تبادلناها كما لو كنا أجبنا عليها مرارا وظلّت لنحو إجاباتنا السنون، (مع أننا لم نكن نعرف بعضنا أصلا). ولأننا كذلك، صرنا نخشى تلك المعرفة لبعض الوقت، ويحاول كل منا تجنب رفع الغطاء عنها.

لم يستمر الأمر طويلا. فبعد أسابيع، أخذ بوريس يبدي اهتماما أكبر بي. لا يتردد في الجلوس الى جانبي أحيانا. يتحدث اليّ كما يتحدث إلى أي زميل آخر. وبدأت أشعر بشيء من الارتياح له، خصوصا حين عرفت منه أن والده كان مسؤولا شيوعيا كبيرا في بلاده. وكنت بدوري شيوعيا عابرا، عاش في موسكو عاما كاملا وأحبها كما أحبها بقية الرفاق الأمميين. صرنا نتبادل الأحاديث بالروسية أحيانا، فتزيد من تآلفنا وتبرّد حرارة الغموض.

عرفت من بوريس، أنه جاء هاربا مما خلفته البريسترويكا وانهيار النظام الاشتراكي في بلده اوكرانيا. قال إن أباه (الذي كان مسؤولا كبيرا في الحزب الشيوعي الأوكراني، تخشاه نصف الحكومة وثلاثة أرباع الشعب)، انتهى فجأة على رصيف من كانوا يخشونه. لم يعد شيئا على الإطلاق. هكذا قال بوريس.

قدّرت ما حلّ بعائلته، وكيف انكمش والده حتى صار بحجم زعامات الاتحاد السوفياتي القديم. لا بل بحجم عضو في حزب حلّت عليه

لعنات الأوكرانيين قبل لعنات البيت الأبيض الأميركي الذي احتفل سرّاً وعلانية بالانهيار التاريخي الكبير.

ذات مساء، وصلتُ إلى الكلية قبل بداية الدرس بقليل. وقفت قريبا من باب غرفة الصف في الممر الطويل. وظهر بوريس فجأة قادما من بداية الممر، تتقدمه ابتسامة وردية بلون وجهه الطفولي. حين اقترب، لمحتُ في عينيه قلقا لا يصعب التعرف عليه. حيّاني بأدب كبير ووقف إلى جانبي. تبادلنا بضع كلمات من قاموس المجاملات التقليدية. فجأة التفت إليّ، وقال كلمات خرجت من بين شفتيه راعشة بقلق صبي يخفي سرّاً عن أخ له يكبره، وقرر فجأة أن يبوح له به: «أريد أن أستشيرك في موضوع خاص هل تستمع إليّ؟».

«بالطبع يا عزيزي تفضّل.. نحن زملاء».

«تركت بلدي بعد أن فقدت عائلتي كل شيء تقريبا، ولا أنوي العودة إليها ثانية. وقد مضى على وجودي هنا أكثر من أربعة شهور، وأجدني غريبا ضائعا في لندن. وأود ان أسألك عن ما يجري بين الفلسطينيين والإسرائيليين.. هل تخبرني ما الذي يجري هناك؟».

فكّرت. ثم سألته عما اعتقدتُ أنه فكّر به أيضا، مباشرة وبطريقة تهدم جسر الغموض دفعة واحدة وبلا تردد او انفعال: «أتريد أن تصبح إسرائيليا يا بوريس؟ كان أبوك شيوعيا كما أخبرتني من قبل. كان نصيرا بالضرورة للفلسطينيين، ولا بد أنه مثل حكومته كان يرفض استمرار احتلال إسرائيل لأراضي الفلسطينيين».

احمرّ وجه الشاب الذي لم يكن ينقصه الاحمرار. وتندى جبينه بحبات العرق. قال بكثير من الحرج: «أنا حائر الآن. أنا لم أعد أعرف نفسي منذ خرجت من البلاد».

صمتّ قليلا، وانتظرته أن يكمل بتلقائية دون أي محاولة مني

تسحب الكلام من بين شفتيه ، فتابع مقدماً اعترافاً لم أجبره عليه : «معك حق . . لقد فكّرت فعلاً في الهجرة إلى إسرائيل!» .

«فجأة . .؟» .

«لا ، منذ بضعة شهور وأنا أقلب الأمر من مختلف جوانبه . تعرفت مصادفة على فتاة إسرائيلية شابة ، خلال حفل دعيت إليه من قبل أصدقاء . ونشأت بيننا صداقة ، تحولت بسرعة صاروخية إلى علاقة حب . والحقيقة أن صديقتي تلك ، هي من شجّعني على الهجرة . قالت إن إسرائيل تتسع لكلينا ، وإنني أستطيع أن أستعيد ذاتي هناك . فكّرت ملياً في ما قالته . وقلت لنفسي إن الإقامة في تل أبيب حيث تقيم هي ، قد توفر لي فرصة لحياة جديدة ، وقد أعيد تشكيل هويتي فعلاً . أنا ضائع هنا فعلاً ، لكنني لم أزل خائفاً من هناك» .

وضعت ذراعي اليسرى على كتف بوريس اليمنى ، بطريقة أخذته للتمشي إلى جانبي في الممر الطويل .

سألني بوريس : «هل تعتقد أن الأوضاع هناك بالخطورة التي يتحدثون عنها هذه الأيام؟» .

توقفت عن السير فأوقفنا توقفي بوريس ، الذي راح ينظر إليّ بقلق منتظراً ما سأقول .

أنزلت ذراعي عن كتف بوريس . أسندت ظهري إلى الجدار خلفي ، ونظرت في عينيه مباشرة وسألته : «وهل تأخذ برأيي لو خالف رغبتك؟» .

همّ بوريس بقول شيء ما ، فقاطعته قبل أن يلملم إجابته : «أياً كان ما سأقوله لك . . فأنت من سيتخذ القرار في النهاية ، في مسألة تبدو لك شخصية ، لكنها ليست كذلك . اسمع يا صديقي . قرأت ذات يوم ، حكاية أوردتها سيدة فلسطينية بريطانية الجنسية ، في مقال نشرته في صحيفة عربية ، تستحق أن أرويها لك فعلاً . قالت السيدة ، التي لم أعد

أتذكّر اسمها ، إنها قامت بزيارة إلى ذويها في الضفة الغربية ، قبل عامين . خلال رحلتها بالطائرة إلى مطار بن - غوريون ، جلس في المقعد المجاور لها شاب إسرائيلي في العشرين من عمره . تعارفا سريعاً ، وأمضيا وقتاً ممتعاً ، تمنّت خلاله لو كان لها ابن مثله ، وكان لها ابنة وحيدة تصغر الشاب بعامين تقريباً . أعجبت السيدة بجارها ، ولم تكفّ عن ممازحته والتودد إليه طوال الرحلة ، كأنه ابنها الذي لم تحبل به ولم تلده .

افترق الاثنان بطريقة حميمة عندما غادرا مطار بن - غوريون .

بعد أربعة أيام من وصولها إلى رام الله في الضفة الغربية ، ذهبت المرأة لزيارة أقارب لها في نابلس . وكان عليها أن تنتقل خلال رحلتها عبر حاجز حوارة الإسرائيلي جنوبي المدينة . حين وصلت السيارة التي أقلتها الحاجز ، هبطت السيدة والتحقت بطابور من ينتظرون السماح لهم بالدخول . وسقت ساعة كاملة قبل أن يأتي دورها . وعندما همّت بالاقتراب من البوابة الحديدية للحاجز ، أوقفها جندي يشرف على تنظيم العبور ، وصاح معلناً غلق المعبر لمدة ساعة ، طالباً من الجميع التراجع إلى الخلف . صرخت المرأة في وجهه غاضبة مستنكرة تصرفه غير الإنساني ، اقترب منها جندي آخر وأخذ يشتمها بخلطة عبرية عربية ركيكة : «ماتشوقا . . مجنون . . إنت مش بفهم . . حمار كروف ، مسكر . . فاهم انت . . كروف» .

التفتت إلى مصدر الصوت . شهقت غير مصدقة عينيها : «انت؟ يا إلهي!» .

أشاح الجندي بوجهه بعيداً عنها وعاد يصرخ : «أنونا مشوقا» .

ردّت عليه بالعبرية التي تتحدثها بطريقة مقبولة : «أني لو مشوقا . . .» .

وقبل أن تكمل قاطعها الجندي الأول : «يا فلا ويا . . كله ويا!» .

واستدار إلى زميله يسأله بالعبرية إن كان يعرفها .

انسحب الشاب بعيدا من دون أن يردّ على سؤاله ، واختفى داخل نقطة مراقبة اسمنتية مقامة على مقربة من المعبر .

كان ذلك الجندي الفظ الذي أخذ يقلف ، من بين شفتيه ، حقدا أكبر من سنواته العشرين ، هو جار السيدة في الطائرة . جارها الذي أشبعها حديثا عن السلام والتعايش المشترك ، طيلة خمس ساعات أمضياها معا على متن الطائرة ، وكان خلالها أرق من جناحي فراشة .

اجتازت المرأة المعبر بعد انتظار أكثر من ساعة ونصف أخرى ، ومضت وعلى ملامحها ذهول أبدي ، وفي عينيها دموع امرأة بكت جنينا شابا حملت به في الطائرة وأسقطته عند حاجز على الأرض .

لم أنتظر تعليق بوريس على الحكاية ، بل واصلت طارحا أمامه كل الاحتمالات . وختمت نصيحتي له قائلا : «هذه الهجرة وتوابعها صفقة متكاملة يا بوريس ، تأخذها بحلوها القليل ومرّها الكثير ، أو ترفضها كلها أيضا . فهم لا يقدمون لك إسرائيليتك بالتقسيط» .

انقطعتُ بعدها بأيام عن الدراسة لظروف عملي ، ولم أر بوريس منذ ذلك الحين . هل هاجر إلى إسرائيل؟ هل صار جنديا على حاجز؟ هل ما زال في الخدمة العسكرية ، ام بقي في لندن؟ .

أرعبتني أسئلتي بينما أتأمل ضابط المعبر الذي جاءني ببوريس فجأة من ملف قديم في الذاكرة . مثلما أرعبتني أن تكون دانا أعوفا ، فراشة السفر التي تطير بجناحين من ألفة ، قد صارت حقدا آخر لم أختبره .

الفصل السادس عشر

الراوي

انتهت دانا من رقصات أدتها بمفردها على إيقاع كلمات رسالة لم يوقعها أحد ، وعلى معان أعادت لها الأمل بلقاء نور الدين مجددا ، والفرصة لتصفية جميع حساباتهما المعلقة ، وأولها علاقتها غير المستقرة مع إيهود .

خرجت إلى صالون شقتها . جلست على الأريكة البيضاء العريضة ، ومددت ساقيها أمامها ، وراحت تتأمل قرارها الجديد : «سوف أضع علاقتي بإيهود في إطارها الصحيح . سأطلب منه صراحة أن نكون صديقين لا أكثر ولا أقل ، وأن يتخلى هو بنفسه عن أحلام ألعب فيها دور البطولة على غير رغبة مني . وسوف أكتم عنه سر الجنين الذي لم أزل أحمله خفيفا في بطني ، ولم يحاول بعد تعقيد الامور . سأتركه لحدسي الاكبر الذي قرر أن ينسبه لنور الدين . .

«سأدع حفل عيد ميلادي يمر عاديا محتفظة بقراري في صدري . وسوف أدعو إيهود إلى لقاء خاص بعيدا عن آذان الآخرين . وهناك أنهي كل شي ، أو بالأحرى أصحح كل شيء . .

«بقي علي أن اصحح ذاكرتي ، وأجلوا منها ما بقي من غوامض ألقت عليها معرفتي بوليد دهمان ضوءه قوياً» .

تذكَّرتْ ما تركه لها داني من أوراق ، في ليلته الأخيرة في تل-أبيب ،

ولم تفكر من قبل في تقليب صفحاتها . الآن قررت نبشها والبحث بين ثناياها عن خفايا غيبتها السنين . عن شخص يدعى وليد دهمان قد تجده بين السطور . عن جواب للسؤال الذي شغل بالها حين لمحت وليد يستدير خارجا من المطار بعد أن انهى معاملات الدخول إلى إسرائيل ، ولم تتمكن من اللحاق به ، كما لم تجرؤ على مناداته من بعيد وطرح السؤال عليه .

عادت الى غرفة نومها ، وأحضرت الغلاف الذي قدمه لها داني قبل سنوات . حملته ومضت به إلى الشرفة . وضعته على المقعد البلاستيكي . أنزلت الشادر الظليل تفاديا للشمس التي تخلّت عن عاموديتها كثيرا . صنعت لنفسها كوبا من النسكافيه بالحليب وجلست تتأمل البحر ، تستعيذ به من أية مفاجآت .

راحت تقلّب الصفحات على غير تعيين يسكنها هاجس البحث عن وليد . أخذت تنبّش عنه بين عشرات الصفحات ، تتوقف أحيانا . تقرأ بضعة سطور ، وتمضي في إثر وليد الذي لا تعرف أين وضعه دانيال ، والذي ربما لم يأت على سيرته أصلا :

«وجدت نفسي مجندا في جيش الدفاع . استسلمت لتلك الحقيقة التي ترافق المرء هنا ثلاثة أرباع حياته . لم تكن مخاوفي تتعلق بالخدمة نفسها ، بل بالمكان الذي سأخدم فيه . سمعت الكثير وقرأت الكثير ، وأحسست به أيضا في كل خطوة مشيتها في هذه البلاد .

«أتذكر تماما كيف وقفت أرتجف في داخلي ، حتى آخر عصب في جسدي ، أمام لجنة التجنيد . . .

قلبت دانا بضع صفحات أخرى وقرأت :

«كانت الانتفاضة الفلسطينية مشتعلة في المناطق . كنت أتخيل حيرتي وارتباكي إذا ما وضعت في مواجهة مع مجموعة من الصبية ترشقني وزملائي بالحجارة . الأوامر صريحة تقضي بإطلاق الرصاص

المطاطي دون تمييز ، ويهدف القتل أحيانا . هذا ما فعله من سبقوني ، وتسببوا في جرح مئات الأطفال وفي قتل بعضهم أيضا .

ثم ماذا؟ هل يخمد ذلك رغبة الفلسطينيين في الانعتاق منا؟ . إذا كانت هذه الأرض لنا بوعد الرب ، فماذا عن ربهم هم؟ إذا كان ثمة إله في هذا الكون فهو واحد وللجميع ، عادل ومنصف وحكيم ، لا يمكن أن يأخذ أرض شعب ليعطيها لآخر . الإله لا يفعل ذلك . يتلبس نزعات مستعمر ويرسل جنوده يحتلون ويقتلون ويقمعون باسمه . الإله لا يفعل ذلك ، لأنه إن فعل ، يكون قد ترك عرشه فوق الجميع وانضم إلى البشر . .

«أتذكر الفيتناميين والكوريين الشماليين والكوبيين وغيرهم ، كلهم تخلصوا من محتليهم . وهؤلاء الناس جيراننا هنا ، سوف يطلقون انتفاضة وراء أخرى ، مثل موج لا ينتهي في بلاد كثيرة الرياح . إنهم لن يكفوا عن الحبل بالانتفاضات وإنجابها حتى يكنسونا ويتخلصوا من احتلالنا . . لا أريد أن أموت دفاعا عن احتلال غير شرعي وباهظ الثمن للطرفين أيضا» .

«كنت حائرة مثلك يا داني . مضغوطة بين التيارين اللذين يتجاذبان البلاد : اليمينيون من الأصدقاء في العمل وفي الشارع وحتى داخل الأسرة ، يعتبرونني يسارية مفرطة في يساريتها ، تبيع أمن البلاد ومستقبلها للفلسطينيين ، لأنني كنت مثلك ، أتحدث علانية بكثير من العداء لبقاء قواتنا في المناطق وعدم ترك الفلسطينيين لشأنهم . أما اليساريون ، أمثالك ، فقد ظلّوا يعتقدون بأنني لست يسارية بما فيه الكفاية : ماذا تريدني أن أفعل يا حبيبي ، أفتح النار على الجميع أم نواصل طريقنا بالحسنى . .

كثيرا ما تساءلت ، ورأسي الذي يتناهشه الندم ، يتقلب على

الوسادة قرب رأس دانا الغارقة في أحلامها : لماذا ينبغي علي أن أنهض مبكرا ، وبدلا من أن أعد فنجانا من القهوة أرتشفه في الشرفة مع نسمات الصباح ، وأغسل عينيّ بزرقة البحر ، أستعدّ لجولة جديدة من الصراع . أقارع رماة الحجارة الصغار من الفلسطينيين ، وأسأل السؤال الذي يتجاهله الآخرون من حكام هذه البلاد : لماذا نواصل الاحتلال وإلى متى ، وهل يمكن الاحتفاظ باحتلال إلى الأبد؟ . . .

كان والدي يحدثني كثيرا عن الفيتناميين ونضالهم ، وكان يحقد على الأميركيين . وكنت أسأله : لماذا يقطعون تلك المسافات الهائلة من بلادهم ليحاربوا في الشرق الأقصى وفي بلدان كثيرة غيره؟ . وكان يجيبني بكلمتين : إنهم يحاربوننا من خلال محاربة الشعوب الأخرى ورفض تحررها منهم . .

«آه يا داني ، جئتني وفي داخلك شيوعي احتفظت به صغيرا ولم يكبر مثل والدك ، ويهودي كبير غطاه زمنه وعركه البريسترويكا . ما إن انهارت حياة والديك حتى صحا اليهودي في داخلك . عدت الى نفسك صافيا من أية أوهام بالبقاء أوكرانيًا . وفي لندن كنت تبحث عن نفسك ولا تجدها . استقبلت عواطفي بحماسة شديدة ، وقبلت الهجرة إلى إسرائيل لكي تستعيد بعض ملامحك الحقيقية . لا ألومك كثيرا . أنت لم تولد هنا ، وما يزال في ذاكرتك ما كان هناك . لماذا لم تكتف بما فعلته؟ . حقا ، كان تمردك على الخدمة العسكرية شجاعة منك لا أنكرها . بل وضعت فوقها تشجيعي لك وساعدتك على اتخاذ القرار . لكنك لم تكتف بذلك . ذهبت بعيدا لعوفي ، حين تمرّدت على وجودك كله يا داني . ثم تمرّدت عليّ أيضا . أنا من حاولت أن تكسوك بملامح غربتك منها هجرتك الأولى من بلدك . احضرتك من شتاتك لكي تستريح إلى الأبد في وطن يكون لك وتكون له . قلت لك في ليلة الوداع : « اتركني يا

داني ، اهجرني إن شئت ، لكن ابق في هذه البلاد . ليس لنا غيرها يا داني . .

سمعت كثيرا بديفيد غروسمان ، الكل يتحدث عن كتابه الزمن الأصفر ، خصوصا جنود الاحتياط الذين خدموا أثناء الانتفاضة الأولى . كان بعضهم يهمس إعجابا بالكاتب وبشجاعته ، وآخرون يلعنونه ويصفونه بالخائن صديق العربين . أحضر لي يوسي ، زميلي في الوحدة ، نسخة اشتراها خلال إجازته في رامات غان . فوجئت منذ صفحات الكتاب الأولى ، بأن صورتي التي توقفت أمامها ، أحيانا ، أبشع بكثير مما كنت أظن . وبعد قراءة فصول من الكتاب ، أدركت كم غيرني جيش الدفاع ، وكم سحقتني الخدمة في مناطق الفلسطينيين ، وأفقدتني ملامحي الإنسانية . في كتاب ديفيد غروسمان تعرفت على حقيقتي . في إحدى صفحاته قرأت . .

«قرأت مثلها ، وقرأت شهادات عدد كبير من المتمردين على الخدمة في المناطق . . أين وليد يا داني؟ . .

أخذت تقلّبُ الصفحات بعصبية .

روى لي زميل لي في الوحدة خدم في منطقة طولكرم في يهودا والسامرة . . أنهم ذات بعد ظهيرة «بنت كلب» ، استقلوا سيارة جيب للقيام بدورية في المنطقة . على مشارف البلدة ، شاهد قائد الدورية صبية يتسلقون عامود كهرباء ويرفعون عليه العلـ . .

«لا وليد في هذه الحكاية . . يا دانيال . .

«حين طلب منا مدرستنا في كلية همر . . .

«نعم . . همر سميث . . كين كين . . أخيرا وصلنا . . هيا يا داني هيا لعل وليد هنا . . .

جون ميهان ، أن نعرّف أنفسنا . عرّف وليد بنفسه ، قال إنه كاتب

ويعمل صحافيا في صحيفة عربية تصدر في لندن ، لم أهتم لصحيفته بقدر اهتمامي به هو شخصيا . قال إن له رواية واحدة منشورة ، ويحاول الانتهاء من رواية جديدة ، قال إن كتابتها قد تستغرق عامين كاملين وربما أكثر . .

او لولولولولولو . لا يا بوريس لا يا ذاتي ماذا فعلت تلك بي) وليد ، وصحافي ، وكاتب ، وروايات . .

«أسجل احترامي الشديد لوليد ، الذي رفع زمالتنا الى مرتبة الصداقة الحقيقية . وقدم لي ، مشكورا ، النصيحة في حينها . واعترف أنني فشلت في نسيان نصيحته أو حتى تجاهلها . فقد ظلّت مفتوحة أمام عيني كأنها الوصايا العشر ، أعود إليها في كل خطوة أخطوها وتعود إليّ كلما مرت بي حادثة مؤسفة ، والحوادث كثيرة . وحين كنت أفعل ، يزداد احترامي لوليد . ما أوصاني به كان الحقيقة بلا زيادة أو نقصان . الحقيقة التي تعرفت على تفاصيلها في هذه البلاد ، التي رأيت فيها أكثر مما رأى وليد نفسه . . .

هذا وليد الطائرة ولا أحد غيره إذن . كيف لم أدرك ذلك؟ كم كنت غبية ، ولم أكن بحاجة حتى لهذه التفاصيل ، ولديّ ما يكفي للشك على الأقل . تذكّرت ما قاله لي عن دعوة صديقك العربي إلى مطعم الدار في لندن ، وتذكرت حين أخذتني إليه بنفسك وصفعت حلمة الأذن بلساني عند مدخله في شارع ادجوار رود . لكنني لم أطرح عليه السؤال في الطائرة . لم يكن يعنيني حظك . أخطأت حين أخبرني وليد باسمه ولم أسأله . لماذا لم أسأله إن كان قد عرف شخصا اوكرانيا يدعى بوريس ابراموفيتش؟ لماذا تجاهلت ذلك؟ ولماذا ولم أفعل ذلك في قاعة الجوازات؟ . وما فائدة معرفة ذلك الآن . . . هل سأرسل لوليد أخبره بالحقيقة . أفاجئه بأنّ من كانت إلى جانبه في الطائرة خمس ساعات متواصلة ، لم تنقص

سوى دقائق ذهبت فيها الى الحمام ، وبعض غفو قليل ، هي صديقة قديمة لزميله بوريس؟ . هل ما زال يذكرك بعد أكثر من عشر سنوات على تعارفكما؟ . سوف تفاجئه المفاجأة . وسوف تصدمه معرفته بأنك لم تستمع لنصيحته ، وبحثت عن اليهودي في داخلك ، كما صدمتني أنا هجرتك من هجرتك ، ورحيلك بعيدا عني وعن إسرائيل كلها .

حلت الذكريات لأصفي حسابا قديما ، وملابسات رحلة في الطائرة ، فوجدتني أفتح حسابا جديدا هذه المرة . لكن بوريس كان محقا . هذه البلاد لا مستقبل لها . ملف جمعت أوراقه في ظروف معينة ، وقد تتبعثر في ظروف أخرى ويغلق الى الأبد .

الفصل السابع عشر

وليد دهمان

طال انتظار الجميع، وامتد أكثر من نصف ساعة أخرى، خرجت بعدها من نقطة المراقبة خلف الحاجز مجندة لا تتجاوز العشرين من عمرها، تحمل بيدها عددا من البطاقات والتصاريح، وأخذت تنادي على أصحابها، بينما تتسلق عيناي كومة الوثائق تحاولان التعرف على جواز سفري بينها.

تجمّع من نودي عليهم بأسمائهم خلف العارضة الخشبية إلى يسار كشك المراقبة. أشارت لهم المجندة بالتوجه نحو البناء الكبير، وتركت هي المكان ومضت باتجاه مبنى الشخصيات المهمة جدا.

مضت عشر دقائق أخرى، عادت بعدها المجندة إلى كشك المراقبة. وضعت بندقيتها جانبا، ووقفت على الباب تتلو اسماء دفعة جديدة، من بينها العجوز الذاهبة إلى عبسان، التي سيحزن عليها العامود الذي استظلّت تحته كثيرا ويفتقدها. مضت مع المجموعة الجديدة، تخب قدماها في حذائي الرياضي فترقص عيناي لمنظره وتفرح قدماي. نسيت انتظاري ولهفتي إلى سماع اسمي للحظات. لقد أزال منظر العجوز قلقي، وأنا أتأملها تتحدى الاسفلت الساخن والحجارة المتناثرة عليه: «ليتني أستطيع أن أقدم لك أكثر من زوج أحذية أيتها المرأة الطيبة التي تشبه كل الأمهات في الجهة الأخرى من المعبر».

همست لنفسي ، وهمست معي دمعتان تدحرجتا من مقلتيّ ، بوداع صامت للمرأة التي شغلت مكان أمي (التي لم تزل تنتظرني) ، قبل أن تختفي داخل البناء الكبير .

كانت المجندة قد انتهت خلال ذلك من تلاوة أسماء الدفعة الجديدة من الذين سمح لهم بالمرور . وللمرة الثانية لم يكن اسمي من بينها .

تلفتّ حولي ، لم أر الخليلي صاحب سيارة الأوبل السماوية . قدّرت أن يكون دخل المبنى الكبير من دون أن أراه ، وتخلى عن استضافته لي في الخليل ، بعد أن فقدت قيمتها .

تقدمت من الجمع المتبقي حول نقطة المراقبة مجندة أخرى ، جاءت من مبنى الشخصيات المهمة جدا ، تحمل بيدها مجموعة ثالثة من الوثائق ظهر من بينها جواز سفري ، إذ لم يكن بين يديها سوى بضعة تصاريح وعدد من بطاقات الهوية .

بدأت المجندة على الفور في قراءة أسماء أصحاب البطاقات . أخذت لحظة الإفراج عنّي تقترب . انتظرت أن تعلن المجندة اسمي خلال لحظات على أبعد تقدير . لكنها حين لامست جواز سفري ، وضعته أسفل بطاقتين أخيرتين بقيتا لديها . قرأت الاسم الأول في البطاقة الأولى ، فاندفع صاحبها واجتاز الحاجز . ثم الاسم الثاني ، واستدارت إلى داخل كشك المراقبة .

لم أحتمل الموقف . وصحت بها بالإنجليزية : «من فضلك ألم يأت دوري بعد؟» .

سألتني : «شو جوازك؟» .

«البريطاني المتبقي في يدك» .

فتحت جواز السفر وألقت عليه نظرة سريعة ، سألتني بعدها : «انت وليد دهمان؟» .

اكتفيت بهز رأسي .

«انتظر» .

قالت وهي تلقي بجواز سفري على طاولة داخل كشك المراقبة . ثم همست ببضع كلمات بالعبرية لجندي يقف في الداخل ، فتناول جواز السفر ومضى باتجاه مكتب فحص وثائق الشخصيات المهمة .

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية ظهرا . لم أكن اتصور قط ، أن رحلتي التي كان مفترضا أن تنتهي في التاسعة صباحا بفطور تقليدي من الزيتون والزعتر مع أمي وبين أولاد خالي النصريين ، ستستغرق دهرا . أعلنت أسخر حتى من جنسيتي التي منحتني أهمية لا أهمية لها . أهمية سخر منها جنود ومجندات اللواء غفعاتي على مرأى من الجميع . تمنيت لو لم أحضر أصلا . فلم تلغ هويتي هنا وحسب ، بل وسحقت ملامحي وطحنت إنسانيتي كما يطحن القمح وذرّت في فضاء المعبر .

تقدم من خلفي شاب استمع إلى حواري مع المجندة ، راح يطمئنني ويقول : «ما تخافش يا أستاز ، بالعادة بياخدو جوازات الأجانب وبيفحصوها في مكتب ال VIP ، بعدين بيرجعوها وبينادو عليك وبتعبر . . طول بالك شوي . . ما ظل إلا القليل» .

«إذا هيك بسيطة من الصبح واحنا متحملين القرف كله» .

«هذا كله ولا اشي جنب اللي بيعملوه احيانا . والله . وما إلك عليّ يمين إني شفت بعيني نسوان بتولد عند حاجز حوارة في قلقيلية» .

بعد قليل ، عاد جندي من مكتب الشخصيات المهمة جدا ، يحمل بين يديه عددا من الوثائق وسلمها للمجندة ، التي التقطت جواز سفري من بينها ونادت عليّ .

«وليد دهمان» .

قفزت المسافة كلها نحوها . التقطت جواز سفري من يدها ، ولحظة

أوشكت على تخطي الحاجز الخشبي ، تذكرت أنني نسيت حقيبتي . عدتُ الى حيث كانت وسحبتها خلفي واجتزت الحاجز من بين ضحك الجندة الساخر ، ومضيت نحو مكتب الشخصيات المهمة جدا .

حين أصبحت في الداخل ، وضعت حقيبتي وسط الصالة في المكتب الذي بدا بسيطا متواضعا . اقترب مني في الحال ، شاب متوسط البنية أسمر البشرة يقوم بتنظيف المكتب ، وطلب مني بلهجة فلسطينية شبه آمرة ، أن أبقي حقيبتي في الخارج . أدركت أنه ينفذ تعليمات أمنية حتى في مكتب كهذا لا تدخله سوى شخصيات لا يمكن أن تنتحر ، أو تفكر بالقيام بعملية تهريب مستحيلة . تراجعت بهدوء ووضعت حقيبتي إلى جانب حقائب أخرى خارج المبنى وعدت .

قدّمت جواز سفري لجند شاب ، طويل القامة ذي بشرة حمراء وشعر برتقالي بلون القرع البلدي . تناول الجند الشاب الجواز بأدب ، وسألني عن وجهتي والعنوان الذي أقصده في قطاع غزة . أخبرته بكل ما يفيد الإجابة : «انا ذاهب إلى خان يونس لزيارة والدتي وأقاربي» .

ولتسهيل الأمور ، أضفت تفاصيل قليلة أسبغت عليها مسحة درامية لعلها تزيد الأمر الطبيعي تطبيعا . فقلت إن والدتي مقعدة وهي في السادسة والسبعين ، وإنني لم أرها منذ ثمانية وثلاثين عاما .

قدم لي ، من دون تعقيب ، استمارة من صفحتين ، وطلب مني أن أملأ الخانات المطلوبة فيها والتوقيع عليها ، ففعلت وأعدتها له .

«ما اسم أمك؟» سألني .

«آمنة دهمان» .

«هل تعرف رقم بطاقتها الشخصية وعنوانها؟» .

فاجأني السؤال . قلت بشيء من الاعتذار : «لا . . لم أكن أتوقع أن يطلب مني ذلك» .

«نحتاج إلى رقم بطاقة شخص ما في غزة وعنوان إقامته» .

«من أين لي ذلك ، كل ما أعرفه هو أن والدتي تقيم في مخيم خان يونس» .

«ضروري رقم بطاقة شخصية» .

بدأ أملي في الدخول إلى غزة خلال وقت قصير في التبدد . وشعرت بأن رحلة الانتظار التي استغرقت حتى الآن ، أكثر من خمس ساعات ، ستتواصل بضع ساعات أخرى ، وربما أرافق هذا الجند ، أو من سيحل مكانه ، سهرته حتى وقت متأخر من الليل .

رنّ هاتفي الجوال . رنّت في ذهني فكرة . كان المتحدث ابن خالي عبد الفتاح ، الذي كان ينتظرني مع آخرين في الجانب الفلسطيني من المعبر . أبلغته بما طلب مني وألححت عليه أن يفعل ما باستطاعته للحصول على رقم بطاقة والدتي .

وعدني عبد الفتاح بأن يهاتف جارة لأمي تدعى ماجدة ، قال إن لديها مفتاحا لبيت والدتي ، وإنها لن تتردد في البحث عن بطاقتها وتزويدنا برقمها .

أبلغت الجندي بذلك ، وقلت له إن الأمر قد يستغرق بعض الوقت ، وتمنّيت عليه أن يبحث في سجلات دائرته عن رقم بطاقة والدتي ، ورجوته قائلا إنها تنتظرني منذ الصباح» .

بدا متفهما إذ سألني عن اسم والدتي مجدداً ، فأخبرته به . طلب مني الانتظار إلى أن أسمع اسمي .

استدرت مبتعدا ، واتخذت لي مكانا على كرسي من الجلد الأسود قريبا من الباب . مددت ساقي أمامي باسترخاء حلمت به منذ وصولي إلى المعبر قبل خمس ساعات على الأقل ، وأخذت أتأمل المكتب : ثلاث صالات للانتظار صغيرة الحجم مفتوحة على بعضها في تتابع عرضي ،

مزودة بعدد من كراسي جلدية مريحة ، تقابلها بالتتابع نفسه ، مكاتب عناصر الأمن .

تنفست هواء منعشا جفف عرق النهار كله ، ومسح عن ملامحي حرقة شمس الانتظار . وتدريجيا ، استمتعت على وقع موسيقى تنبعث هادئة في أرجاء المكان ، بعض ما تبقت من حيوية منذ الصباح .

لم تمض أكثر من عشر دقائق ، حتى ناداني الجندي نفسه ، وأبلغني بأنه وجد رقم البطاقة الشخصية لوالدتي وتفاصيل إقامتها .

نهضت من مقعدي وهممت بالتوجه إليه ، معتقدا أنه سيباشر في وضع تأشيرة الدخول على جواز سفري ويعيده إليّ . استوقفني بإشارة من يده ، طالبا مني العودة بلهجة آمرة فظة ، اختالت فرحتي قبل ولادتها : «لا تتحرك من مكانك حتى أناديك ... هل فهمت» .

وألقى بجواز سفري إلى زميل يجلس على مقربة منه عند نهاية المكتب . قلبه وتأمل غلافيه . فتحه وتسلى بتقليب صفحاته بعض الوقت ، ثم ألقى به على المكتب كشيء لا لزوم له .

انطلقت فجأة من مكبر للصوت أغنية بالعبرية . انطلقت مجندة كانت تقف على مقربة من الجندي ترقص على إيقاعها . ترافعت على كتفيها بندقية ام - ١٦ الأميركية مثل بندول ساعة قديمة للحظات . ثم اختفت المجندة في بر جانبي لتظهر من الجهة الأخرى . مرت من أمامي وتركت لي نظرة ساقطة وغادرت المبنى .

توافد قادمون جدد ، أخذوا يسلّمون أوراقهم الثبوتية ويتوزعون في المكان ، فيما كان آخرون من سبقوني ، ينطقون وثائقهم وعليها تأشيراتهم ويغادرون .

مضت ساعة انتظار كاملة . قارب الوقت الثالثة بعد الظهر ، دون أن

اسمع اسمي أو يقترب مني أحد . وإذ تذكرت أنني شخصية مهمة جدا ، فقد قررت أن أختبر أهميتي . قمت وتوجهت نحو الجندي الذي يقبع جوار سفري على مكتبه وسألته : «لقد مضى على وجودي ساعة .. هل يحتاج الأمر كل تلك الوقت؟» .

تظاهر بعدم معرفتي متجاهلا أنه ألقى جواز سفري كمن يبحث بين أوراقه عن حبيبات الاكتراكس ، ثم رفع رأسه وسألني : «ما اسمك؟» .

«وليد أحمد نعمان» .

سحب ورقة من ملف أمامه وقدمها لي قائلا : «املأ هذه الاستمارة ووقعها سيد وليد» .

تناولت الاستمارة من يده . ألقيت عليها نظرة سريعة وصحت : «ولكنني سبق أن ملأت استمارة مثلها وقدمتها لزميلك؟» .

«هذه النسخة لي» .

لم أكترث لتعقيد الأمور . امتثلت للأمر مثل جندي ، ولم يقطعني سوى أداء التحية له . ملأت الاستمارة : «حسنا هذه استمارة أخرى وهذا توقيعي عليها» .

«عد إلى مكانك ولا تأت إلى هنا حتى تسمع اسمك» .

عدت ، فوجدت رجلا بدينا يحتل مكاني ، ويمازح بالعبرية مجندة تقف إلى جانبه . رمقني المنظف الأسمر الذي لا يتوقف عن الحركة وتنظيف المكان بنظرة ذات مغزى . أفسحت له في المجال فمسح الأرض أمام قدمي ، ثم انضم إلى حلقة المزاح الصغيرة .

بدأ الملل يتسرب إلى نفسي . ضاق صدري فجأة وشعرت بتوتر ، زاد من حدته مجندة ظهرت فجأة خلف المكتب وقالت كلاما لزميل لها في الداخل . ارتفع صوت أغنية ، وراحت ترقص على إيقاعها كأنها في حانة للشرب . تحداني نظراتها . تجنبت النظر إليها ، راحت تردد كلمات الأغنية

بطريقة ماجنة . وفجأة سمعتها تردد «انت . . انت هناك . . انت . وليد دهمان؟» .

التفت نحوها : «نعم أنا وليد دهمان» .

«ابق مكانك نحن نتابع معاملتك» .

«وهل يحتاج الأمر إلى إبلاغي بهذا التطور الهام؟» .

عادت إلى رقصها ثانية . تجاهلتها وأخذت أتمشى داخل المكتب من الشرق الى الغرب وبالعكس . مللت وتوقفت في الوسط . انتهت الأغنية وبدأت أخرى ، ولم تتوقف المجندة عن الرقص . أشحت بنظري بعيدا عنها ، فوقع على عائلة صغيرة تجلس في الزاوية البعيدة جهة الشمال : رجل في الثلاثينات من عمره ، يمسك بزجاجة مياه بلاستيكية فارغة يهزها بين يديه ، وإلى جانبه امرأة تصغره بقليل ، وفتاة لا تتجاوز الخامسة من عمرها وصبيّ أصغر منها سنا . وكانوا منهمكين في ملء فراغ انتظارهم بكلام ذي نكهة فلسطينية ، حين مرّ جندي بلا سلاح مثل الآخرين ، وطلب منه الرجل ، بتهذيب شديد ، أن يملأ الزجاجة البلاستيكية بالماء من أجل طفليه ، فوعد بذلك . أيقظ مطلب الرجل عطشي من غفوته النهارية فاستيقظ . شعرت بحلقي يجف ، وبلساني يتحجر في فمي . عاد الجندي بالزجاجة مملوءة بالماء ، وقدمها للفتاة التي التقطتها سريعا . رحت أتأمل الماء يتدفق إلى فم الفتاة . تراءى لي مثل نهر يصب في أرض يابسة . بلعت ريقا ناشفا . حين انتهت الفتاة من الشرب ، ووضعت الزجاجة على الطاولة أمامهم ، كنت قد فقدت القدرة على التأمل .

اقتربت من الرجل وعائلته ، وسألته : «قديش إلكم ناطرين يا جماعة؟» .

«تقريبا ساعتين» .

أجاب ، وطلب مني الانضمام إليهم فلم أتردد ، فهذا ما كنت أنتظره بالفعل .

عرفت من الرجل أنه وعائلته يقيمون في أستراليا ويحملون جنسيتها . وأنهم أمضوا يومين كاملين في السفر ، ويقضون الآن يومهم الثالث . وأن رحلتهم التي انطلقت من سيدني ، لم تكن أكثر مشقة ومللا مما هي عليه منذ وصولهم إلى المعبر قبل الظهر .

حدثتهم قليلا عن رحلتي ، فزاد ذلك من إلفتنا المؤقتة ، التي شعرت معها بأن كلاً منا وجد في الآخر العزاء الذي كان يبحث عنه . وأن تعذيب «الشخصيات المهمة جدا» يندرج ضمن قوانين التعذيب الإسرائيلي العام للفلسطينيين . بل ويتجاوزه قسوة ، قاصدا تخليص تلك الشخصيات من وهم أهميتها التي ضمنتها اتفاقات اوسلو . إلفة قربتني أيضا ، من خزان المياه الكبير الجالس على الطاولة .

استأذنت الرجل بتناول قليل من الماء فقدم لي الزجاجة بنفسه . وكان ما أفرغته في جوفي ، أول جرعات ماء يبلل ريقي منذ منتصف ليل أمس .

رنّ هاتفي الجوال . كان المتحدث ابن خالي عبد الفتاح . قال إنه هاتف ماجدة ، وإنها ستوافيه برقم بطاقة امي . وإنه أوصى جنديا في جهاز الارتباط الفلسطيني ممن ينسقون عبور المسافرين مع الجانب الإسرائيلي ، بالعمل على التعجيل بإصدار تأشيرة دخولي ، فوعده ببذل جهده . قال أيضا إن أمي قلقة وتتصل به من حين لآخر . حيرني قلقها . فقرار دخولي بيد الإسرائيليين أولا وأخيرا . طلبت من عبد الفتاح أن يحكي لأمي ما حكاه لي ، وأن يطمئنها على أن جهود الأمن الفلسطيني جارية على قدم وساق للتعجيل بدخولي . شكرت عبدالفتاح وأغلقت الهاتف .

بعد نصف ساعة أخرى ، تقدم جندي إسرائيلي منا وسلم العائلة

وثائقها . تهفو جميع أفرادها المتعبين بقوة فرحتهم . أتمنى لي الزوجان خروجا عاجلا من هذا السجن الإجباري .

لكن خروجي لم يتم إلا بعد مضي ثلاث ساعات ونصف على وصولي . ففي الخامسة والنصف تماما ، نادى عليّ الجندي الأول ، (الذي تسلم جواز سفري في البداية) ، وأبلغني بأن تأشيرة الدخول ستكون جاهزة خلال خمس دقائق .

بعد خمس دقائق بالضبط ، عاد إلي بجواز سفري ، وقدمه لي مرفقا باعتذار لم يعد له لزوم . شكرته بطريقة روتينية وخرجت .

استوقفت أحد ثلاثة عمال فلسطينيين كانوا يتجهون نحو ممر لم أتبين تفاصيله ، وسألته عن طريق الدخول إلى الجانب الفلسطيني ، فطلب مني أن أتبعهم . سحبت حقيبتي خلفي ولحقت بهم ، حيث ابتلعنا نفق عريض طويل يبدو بلا نهاية ، يعلوه سقف عال نصف دائري ، يبدو مثل سماء اسمنتية بعيدة ، يتردد فيها صوت أقدامنا كأنه وقع حوافر خيل .

«توقف : ارفع قميصك عاليا فوق صدرك» .

سوف أمتثل للصوت الطالع من مكبر مختف في السماء الحجرية البعيدة . سوف يضغطني الصوت الذي يكرر النداء بقسوة في حيز صغير من الفراغ الرهيب الذي يحيط بي ، إلى أن أصبح بحجم نملة . «استدر . . تحرك . . ادخل من الباب رقم ٢» . وسوف يحشرني بين القضبان الحديدية المتشابكة في ممر حديدي متعرج ، أخرج منه حطاما فأسارع إلى لملمة نفسي ، ولا أستعيد حجمي الطبيعي ، إلا حين أتوقف أمام سائقي السيارات ، باحثا عمن ينقلني إلى مطار تل أبيب لكي أعود إلى لندن .

بعد أكثر من ربع ساعة ، تبين أن للممر نهاية اجتزتها نحو ساحة

مفتوحة على فضاء فقد شكله .

قدمت جواز سفري لواحد من ثلاثة ضباط تابعين لجهاز الارتباط الفلسطيني ، الذي يبدو أنه نسيني تماما . دون اسمي في دفتر كبير لسجلات الداخلين إلى قطاع غزة وأعاده إليّ .

سمعت من يناديني باسم ابني الأكبر : «أبو فادي . .» . التفت نحو مصدر الصوت . استفسرت . لوح لي شاب رفيع طويل القامة يضع على عينيه نظارتين طبيتين بيده ، وكان إلى جانبه آخران يصغرانه سنا . سارع الشاب إلى تحيتي : «الحمد الله على السلامة يا بن عمتي . أنا عبد الفتاح» .

احتضنت ابن خالي بحرارة . سارع يقدم لي شقيقيه صلاح وناصر . عانقتهما تباعا ، ثم صعدنا أربعتنا إلى سيارته .

الجزء الثالث

الفصل الثامن عشر

مضت بنا السيارة، وهي من طراز فيات قديمة لا لون لها، في طريق اسفلتي كثير الحفر والتعرجات، مليء بالحجارة وقطع الحديد والخشب الصغيرة.

قال صلاح، الذي جلس خلفي مباشرة، إن الأرض الجرداء المحروقة الواقعة إلى يسارنا، كانت مزارع زيتون، اقتلعت الجرافات الإسرائيلية عشرات آلاف أشجارها من جذورها قبل عامين. وقال أيضا، إن قسما منها كان مزارع تنتج أفضل الحمضيات في قطاع غزة كله. أما المنطقة التي تقع إلى اليمين، (أدرت وجهي يمينا وكذا فعل الآخرون)، فهي بقايا المنطقة الصناعية. فالمبنى المدمر الذي لم يتبق منه سوى اسم صاحبه وقد علته طبقة من شحار أسود، هو معمل بلاط «أبو غليون». وأما تلك الركام الذي تجلس فوقه شاحنة قلبت على ظهرها، فهو بقايا شركة الفالوجي للمشروبات الغازية. وقال صلاح إن خراب المنطقة الصناعية بأكملها، كان حصيلة عدوان شنته قوات الاحتلال الإسرائيلي ما بين ١٥ مايو (أيار) عام ٢٠٠٣، و٣٠ يونيو (حزيران) من العام نفسه.

استدارت بنا السيارة يمينا، ثم صعدت ببطء هضبة ترابية قليلة الارتفاع كثيرة الحفر. وما إن اجتازتها إلى طريق اسفلتية منبسطة، حتى انبثقت بيت لاهيا أمام أنظارنا مثل جبل خرج من جوف الأرض.

كان الدمار قد أجهز على معظم البنايات والبيوت الواقعة عند مدخل

البلدة ، التي أكد عبدالفتاح أن الدبابات الإسرائيلية اجتازتها بعد أن أشبعتها قصفا ، وتوقفت على بعد خمسين مترا فقط من عمارتهم ، الواقعة على الخط الفاصل بين بلدتي بيت لاهيا وجباليا .

حين استقرت السيارة على الطريق العام ، لطمني مشهد سريالي التفاصيل . بدت بيت لاهيا وجباليا ، توأمين لبلدتين ملتحمتين ، كانتا في زمن سابق سحيق ، غيما من حجارة وأخشاب ومعادن ، أمطرته السماء فجأة في ليلة عاصفة . هوى بسرعة نيازك صغيرة ، وارتطم بالأرض بعنف ، فتهيكلت البيوت وفقا لحجم ارتطامها : لا شكل ولا لون ، ولا حدود ولا طرقات أو معالم واضحة قابلة للوصف . وسط الركام الهائل ، نبتت وحدات سكنية جميلة ، ذات طرز عربية ، وشبابيك نصف دائرية تذكر بمشربيات البيوت الدمشقية القديمة ، تبتسم للقادمين من وسط بقايا نيزك البلدتين . أدهشتني نجاتها من مذبحة السماء تلك ، وكيف هبطت في المكان بمظلة من رحمة وسع السماء نفسها . سألت ، فقيل لي إن الجميلة الباسمة وسط الخراب تلك ، هي مدينة الشيخ زايد ، التي بنيت بأموال ومساعدات من دولة الإمارات العربية المتحدة ، وتم توزيع شققها على المعاقين وبعض أهالي الشهداء والمعدمين ، ممن فقدوا بيوتهم في المعارك خلال عمليات الاجتياح الإسرائيلية المتكررة . ولم أرفع عينيّ عن المجمع السكني الذي تجاوزته سيارة عبد الفتاح ، إلا بعد أن غسلتهما بملامح أمير طيب لم ينس فقراء التوأمين .

واصلت السيارة تقدمها . استدارت يسارا ثم يمينا . انفتح المشهد عن أرض خربة شاسعة ، قال عبد الفتاح إن بيوتها جرفت بالكامل خلال اجتياح الجيش الإسرائيلي للمنطقة في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٤ .

اقتربنا من زقاق جانبي علّق قرب زاويته المقابلة لنا ملصق كبير . أوقف عبدالفتاح سيارته قبالة الملصق تماما ، وفاجأني قوله : «هذا ملصق

الشهيد فلاح ابن خالك يابو فادي» .

طفر من عيني دمع تعلق بوجه الشاب الذي احتفظت ملامحه بابتسامته الأخيرة . وبتفاصيل وجه والده نصر الدين حين كان في مثل سنه أو أصغر بقليل : بشرته السمراء الداكنة ، عيناه السوداوان الواسعتان الحادتان مثل عيني صقر ، شعره الفاحم . كان فلاح نسخة من أبيه مزقتها قسوة الاحتلال .

استدار عبد الفتاح بسيارته يمينا ودخل الزقاق الجانبي ، ثم انعطف بها يسارا وأوقفها أمام بناء من أربعة طوابق ذي باب حديدي ضخم ، أدركت على الفور أنه عمارة النصريين .

«الوالدة مستنياك فوق . . شد أعصابك يا بو فادي وتوكّل على الله» . قال عبد الفتاح .

كانت والدتي تنتظرني في الطابق الرابع ، في «شقة العزايي الأخيرة» حين وصلت . كان باب الشقة مفتوحا ينتظر خطوتي الأولى . طلب مني عبدالفتاح الدخول وحدي بينما انتظر شقيقاه خلفنا . وبرر ذلك قائلا إن والدتي أصرت على أن يتركوها وحدها معي حين أصل . بل أكد أنها قالت «أني بدي أشبع من ابني من غير ما حدا يشاركني فيه» .

اجتزت العتبة بوجل . تلفت حولي باحثا عن أمي التي ضيعها الاحتلال ثمانية وثلاثين عاما . تقدمت بضع خطوات عبر ممر عريض ينفتح على ما يبدو أنه صالة جلوس تقع إلى اليمين . فقد وقعت عيناي على طرف حصيرة من القش ، وحواقي فرش تسلل داخل الممر . أيقنت أنها صالة الجلوس فعلا ، وأن أمي تجلس في مكان ما هناك .

همس عبدالفتاح من خلفي ببضع كلمات ، خلعت على إثرها حذائي . تقدمت خطوتين أخريين ، ثم التفت يمينا ، فاستقبلتني صرخة أمي : «وليد يمة . . اهلا وسهلا يمة . . أهلا وسهلا . . الحمد الله ع السلامة

جة . . يا وليد . . هاتي من شالك يا حبيبي».

حاولت أمي التي تتكوم على نفسها فوق فراش قطني مدّ على الأرض ، أن تتغلب على عجزها وتنهض واقفة ولو على ركبتيها فلم أتركها تحاول ، إذ ألقيت بنفسي عليها متخليا عن قامتي ، دفنت وجهي في حضنها مثل طفل كنته ذات يوم . أغرقتها وأغرقتني بقبلات بعدد ما غبت من سنين ، وبكينا حتى سمع من في الخارج آخر شهقاتنا ، فدخلوا علينا تباعا صامتين مذهولين .

جلست لصق أمي ، تاركا يدي معلقة في يدها كما كنت أفعل ، حين كنت صبيا ، وكانت تجرني معها في مشاويرها وزياراتها ، وأنقضي مسكا بيدها حينا وبذيل ثوبها أحيانا .

«هاي ابو فادي يا عمتي . صاح ناصره .

«منوّر قطاع غزة كله . . هذا أسعد يوم في عمري إنّي عشت وشفت ابني بعد هالعمر الطويل . . ميت اهلا وسهلا يا وليده .

صفقت أمي ولم تزل تسح بتبديل رأسها دمعا رفض التوقف عن الهطول ، بينما لم أكف عن تأملها باحثا بين ملامحها عن أمي .

بعد قليل ، دخل ابن خالي نصر الدين ، يجر سنوات عمره كله على عكاز . ذو البشرة السمراء الغامقة التي سخر منها على مدى السنين ، وصاحب الذراعين الفولاذيتين والقامة العملاقة ، تحول إلى جسد يقوده عكاز . أحزنني منظر نصر الدين ، وما انتهى إليه حال الشاب الذي كان يحمل تبس جده الأشقر على كتفيه كمن يحمل قطة صغيرة .

حيّاني أبو العبد ورحب بي وهو يخلع حذاءه من قدميه قرب نهاية الفرشة ، وقال كمن يعتذر عما فعلت به السنين : «إخربنا يابن عمتي . . كل شي في خرب والكبُر زي ما انت شايف» .

«اللهم العنّا يا بو العبد» . علقت مازحا .

«لا عدنا ولا موتور كله خربانه» . قال .

سحبت كفي من كف أمي ، وسط ضحك الجميع ، وقفزت من مكاني نحو أبي العبد . هجمت عليه وعانقته طويلا ، وبكينا كثيرا ، ومن وسط دمع الرجال ، الذي لم يعرف شبابه الدموع ، سألني مازحا : «بتتذكر يا وليد تيس جدنا اللي رحنا نرعاه زمان في غابة بيت لاهيا وهرب منا» .

وضحك وضحكت بقدر ما سكبنا من دموع .

امتلأت صالة البيت بالمهنئين ، أقاربي الذين كبر بعضهم ولم تعد له ملامح ما في ذاكرتي ، فتعرفت عليه من جديد ، وأولئك الذين ولدوا في غيابي ، شباب زمن الاحتلال .

«شو كل هالتأخير يا ابو فادي . . كل ما نستعد للجي نسلم عليك ، يخبرونا انك بعدك ما وصلت؟» .

سأل أحد الحاضرين .

«الحقيقة اني اوصلت الساعة تسعة الصبح تقريبا ، بس الكيت العبو سكّر . قالوا في صبيّة كانت بدها تفجّر حالها وسكّروها في آخر لحظة . . .» .

«شلناها ع التلفزيونه» .

قاطعني خالد ابن خالي ، وأضاف سريعا : «أول ما دخلت البنت الجلابات ، نادوا عليها باسمها وقالوا لها : اشلحي الحزام عن وسطك يا وفاء . . . وتقدمي» . اسمها وفاء البس (القط) . التلفزيون قال إنها حاولت اتشغّل لحزام وما زبطش معها . وطبعا هجم عليها الجنود واعتقلوها» .

عقب ابن خالي عبد الحليم قائلا : «بتعرف يا بن عمتي ابو وفاء البس كانت آخر بس في قطاع غزة» .

ضحك الجميع من حولي ، وبقيت صامتا مثل أبله ، فتبرع عبد الحليم

وشرح لي النكتة قائلا : «قبل فترة شنت السلطة حملة ضد الفيران في القطاع . ونثرت السم ووزعته في كل مطرح . شفطته البسس (القطط) وماتت ، وظلت الفيران عايشة وبعدها عددها أكثر من عدد السكان . ومن يومها ما ظلش في القطاع بس» . ضحك الجميع . وعلّقت بدوري : «صدق المثل الانجليزي اللي بيقول «Curiosity killed the cat»

دخل قريب آخر على الخط : «الأسبوع الماضي اجا فلسطيني من الضفة يزور نسايبه ، فتشوه اليهود ع المعبر ولقيو معه بسّه ازغيره ، اخذوها منّه وقالوله ممنوع التهريب» .

ضحكنا مجددا ، ومن بين الضحك دخل ابن عمي ابو حاتم ، (الصبي ذو التسع سنوات الذي كان يبتاع لي سجائري الروثمانز وأرشوه بقرش أو بساندويتش فلافل) . وقف قبالتي بقامته الطويلة التي تتجاوز قامتي بكثير ، صامتا للحظات ، وعلى ثغره ابتسامة احتفظ بها لي . بينما تعلقت عيون الآخرين بالمشهد المرتقب للقاء أقرب رجلين إلى بعضهما . نهضت على الفور ، ووقفت أتأمله غير مصدق أن راتب الصغير ، هو هذا الرجل الأسمر الأنيق الذي بلغ الخمسين من عمره ولم يزل أنيقا تماما مثل أبيه . وركضنا من الاتجاهين ونحن نصيح معا : هووووووهووووو بالحضن يا ابن عم .

أفسحوا له مكانا إلى جانبي وجلسنا متجاورين . ولم يكد ينتهي من تجفيف دمعه حتى صاح : «كملو الحكي . . وين كنتو؟»

«كنا بنحكي قصة بنت البس اللي عطّلتني في المعبر» .

«يا سيدي نحمد الله إنها ما فجّرت حالها كان ما شفناك اليوم . يا الله الحمد الله ع السلامة» .

من خلف الكلام ، مدّ لي أحد اقربائي يده بورقة صغيرة ، هامسا من

خلف ظهر أبي حاتم : «هذا بيان وزعته عيلة البس حول ملابسات العملية الفاشلة» .

التقطت البيان من يده ، وقرأت ما أدهشني وأغضبني وأبكاني . كانت عائلة وفاء تلعن المنظمات التي بعثت بابنتها التي قالت إنها مريضة ومشوهة لتنتحر . وإن الاحتلال الذي رتب لها علاجا في أحد مستشفياته ، واستخدمت أوراق العلاج التي زودها بها لاجتياز معبر ايرز والدخول إلى إسرائيل ، كان أكثر رحمة من الذين استغلوها .

طويت الورقة ، واستأذنت الحاضرين ، وذهبت إلى الغرفة التي قادني إليها عبد الفتاح قبل قليل ، وقال إنها خصصت لي ، ونقل هو وإخوته اليها حقيبتيّ ، ودسست الورقة في حقيبة الكتف الصغيرة سريعا ، وعدت إلى مكاني ، وإذ بأحدهم يلقي في وجهي بحقيقة أشد مرارة مما سمعت حتى الآن : «يا سيدي ابن عمك هوّ اللي بعت وفاء البس تفجّر حالها في المعبر» .

«ابن عمي أنا؟!!» .

«أيوه ابن عمك . حسين الحاج خليل دهمان ، حسين يا سيدي هوّ اللي بينسق عمليات كتائب شهداء الأقصى مع حركة حماس . فيه ناس قالو عملية وفاء البس كانت مشتركة بين الحركتين» .

وعرفت أيضا أن عائلتنا التي لم أسمع أنها حملت السلاح في يوم من الأيام ، أو قتلت شخصا من أي عائلة ، أو حتى دخل أفرادها الجندية أيام الإدارة المصرية ، أو شاركوا في جيش التحرير الفلسطيني ، بأكثر من شخص أو اثنين ، قدمت ١٤ شهيدا في الانتفاضة الثانية ، هذه العائلة صارت مسلّحة ، وقامت بمظاهرة مسلّحة أمام المجلس التشريعي تطالب بتنفيذ حكم الإعدام بحق ضابط من عائلة أخرى قتل زميله هاني دهمان ، (شقيق حسين) ، وكانا رفيقين في الأمن الوقائي . وتظاهرت مرة

أخرى مطالبة السلطة الفلسطينية بالكشف عن قاتل الدكتور ياسر دهمان ، المدرس في الجامعة الإسلامية ، الذي اغتيل بمتفجّرة وضعت تحت كرسيه في مكتبه في الجامعة ، ومحاكمته . وأن أبا أحمد ، ابن عم أمي ، فقد ابنه البكر الذي لا يتجاوز العشر سنوات ، بعد أن دهسته دبابة إسرائيلية مع زملاء له في مثل سنه قبل ثلاث سنين .

نمت قرابة الثانية فجرا ، كأنني لم أنم ، إذ استيقظت بعد ساعة أو أكثر قليلا ، على أصوات آذان متداخلة متلاحقة متنافرة ، مثل اصوات فرقة موسيقية يحاول عازفوها ضبط آلاتهم قبل العزف . حولوت «لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وحاولت النوم ثانية . بعد نصف ساعة أخرى ، انطلق الأذان بإيقاعات أكثر صخبا وتضاربا ، كأن المؤذنين ما يزالون يتمرنون عليه . دهشت ، هل يصلون الفجر في غزة مرتين؟» .

«لا يا بن عمتي ، الناس بتصلي مرة واحدة بس» .

سوف يجيبني عن سؤالي ، ابن خالي الشيخ صبحي مساء غد . فهو إمام مسجد ضليع في الأمور الدينية . وسيقول لي بالفصحى (التي يعتقد أنها تعزز هيبته أمام الآخرين) : « ما سمعته في الأول تكبير القيام ، وليس آذانا بالمعنى الذي تعرفه . هو لإيقاظ الناس لكي يستعدوا ، ويذهب من يرغب منهم إلى الصلاة في المسجد القريب من بيته» .

«في الرابعة فجرا . ..؟!» . سألت . «ومتى يتنامون إذن؟» . ربطت السؤال بالسؤال .

«الأذان الثاني هو للصلاة فعلا» .

لكن المؤذنين على كثرتهم ، ملأوا الفترة الفاصلة بين الأذانين بتواشيح وقراءات وأدعية ولم يتركوا- للحقيقة- فراغا بينها أبدا .

كدت أغفو على حافة الفجر ، فأيقظني ديك لم أسمع صياحه سوى

في مسلسل مصري قديم قبل سنوات . فتحت عينيّ على ضحك خفيف . أعجبني صياح الديك المباشر ، غير المسجل . جميل عذب ، يشي بروح زعامة لا تقل علوّا عن روح الزعامات التاريخية للفلسطينيين . تخيّلته يشد جسده إلى أعلى فتتمدّد ساقاه قليلا ، ينتفخ بكبرياء كأن روحا عظيمة تتمدد في داخله . ينتفش ريشه متباعدا عن بعضه قليلا مضخما حجمه الطبيعي ، ويشرئب ذيله الملون الى أعلى مثل طاووس يسخر من غابة طيور . يرفع رأسه عاليا . ينتصب عرفه الأحمر مثل تاج ملكي ، قبل أن يقرر على مسمع من كل دجاجة يصل إليها صياحه ، أن وقت الصحو قد حان ، ويطلق صيحته المحذرة من استمرار النوم : أوْ . أأوْ . أووووووووو .

فرحت ، لكن فرحتي لم تدم سوى بضع ثوان ، تناثرت بعدها في عتمة غرفة نومي مع صياح مجموعات من ديوك المخيم ، راحت تردّ الجميل للديك الذي أمضى الليل ساهرا في نوبة حراسة من أجلها . أخذت تتحداه معلنة أنها كانت يقظة ساهرة على حارات مخيمها ، وأنها كانت على وشك أخذ المبادرة منه ، لولا فروق التوقيت في ساعاتها البيولوجية ، التي لا تختلف عن فروق التوقيت في ساعات مؤذني المساجد فجرا .

على السطح ، فوق رأسي تماما ، لم تلبث أن أقيمت احتفالات شعبية ، مثل مهرجان حشدت له منظمة فلسطينية مسلحة : كأكأة منفردة انطلقت من على السطح فور انطلاق مهرجان الديوك ، خافتة في البداية مثل اعلان خجول : ك كا كاك بكباكباكبككاك . تبعتها كأكأت وبكبكات جماعية أخذت تتزايد صخبا ، مثل صياح الرجال في زفة عريس ، لحظة ينزلونه عن أكتافهم أمام عتبة باب بيته . يدقّون الأرض بأقدامهم غيرة وحسدا ، وتشجيعا له أيضا ، على إنجاز مهمته التاريخية الملحّة ، بينما يتصايحون ويدفعون به إلى داخل جنته :

الدبحوني

ع باب الدار . .

انبحوني

ع باب الدار . . .

والدجاجات تصيح : بكباكياكاكاك انبحوني بكيكياكيككاااك . ع باب الدار

كاككاك . . . انبحوني . . كككاككاك . . .

وملأ صياح الدجاج المخيم بأكمله . ولابد أن يكون هناك ما يستحق هذا الكرنفال الصباحي الكبير : إنتاج بضع آلاف بيضة مثلا .

بقيت مستيقظا بعض الوقت ، أتأمل الفجر يخلع عنه بقايا الليل ويكتسي الفضي المميز . أشبعت عينيّ بطعم اليقظة فلم ألو عليها . قررت العودة إلى النوم متجاهلا كل ما يمكن أن يحدث . وغفوت مستيقظا على اصوات محركات السيارات وعربات الخضار التي تجرها الحمير ، تثير ضجيجها الخاص الذي نسيت إيقاعه منذ أربعة قرون ، وعلى شواكيش النجارين وطرقات الحدادين تعلن بداية يوم عمل جديد . وفوق هذا كله ، لم تكن الزنانة ، الطائرة الإسرائيلية التي لا يقودها طيار ، قد كفّت أصلا عن التأكيد طيلة الليل بأنها تستحق اسمها الشعبي ، ولا الرصاص المتقطع عن تقطعه . صباحي الأول أصيب بالصرع ، فلم يترك النعاس يتمس في عينيّ ، ولا جعل اليقظة تستيقظ فيهما .

الفصل التاسع عشر

سألتني أمي (بعد أن صبّحت عليها بقبلة معتقة منذ ثمانية وثلاثين عاما طبعتها على جبينها ، وردّت عليها بإعلان رضاها عني إلى يوم الدين ، وجلست إلى جانبها) ، إن كنت قد نمت جيدا ليلة البارحة .

أجبتها أنني بالكاد أغمضت عيني ساعتين على الأكثر . وفصّلت لها الوقائع مازحا ، شارحا لها كيف لاحقني نباح الكلاب الفلسطينية ، ساخرا هازئا من الكلاب الانكليزية التي تمتثل للقانون البريطاني . وكيف أفهمني صياح الديوك أن الفجر ملك لها وحدها ، حتى لو شاركتها فيه المآذن التي لا تعرف توقيتا للأذان . ولعلعة الرصاص التي تستمد حيويتها من الصراع . أما الدجاج . . آه يه آه من الدجاج . إنها الكائنات الوحيدة التي تحرص على إنتاج غذائكم وتعمل على توفيره قبل طلوع النهار . أما نهيق الحمير ، فمنذ سنوات لم أنصت لصوت حنون مثله . اشتقت لنهيق حميركم يه . .حميرنا الوطنية .

صمت لحظة ، بينما كانت أمي تقلب شفتيها دهشة واستغرابا ، ثم تابعت : «أتعرفين يا أمي ، نحن لا حمير عندنا أبدا . ولو أتوا بحمار إلى لندن ، فإنهم يأخذونه إلى حديقة الحيوانات ، أو إلى ساحة عامة . وتتراكض حوله وسائل الاعلام . ويلتقط الزوار بكاميرات هواتفهم الجوالة صورا له . ويطلب بعضهم من آخر التقاط صورة تذكارية له مع الحمار الضيف الذي يزور البلاد . نعم يقوم بزيارة للبلاد ، وقد دخلها بهوية رسمية

تعرّف بأصله وحسبه ونسبه . وأخضع لفحص طبي حفاظًا على سلامته ، حتى إنني شخصيا ، فكّرت في التقاط صورة لي مع أول حمار بلدي أصادفه هنا . .

«أما العربات والسيارات التي تستيقظ من طيز الليل ، لا تؤاخذيني على هذا التعبير ، فأنت تعرفينها . والأذان . . يا الله على الأذان في هذه البلاد ، خمسمائة ميكروفون تفرغ أصواتها في أذني التعبتين من صراخ جنود معبر إيريز منذ أمس . هل قامت القيامة عندكم من دون بقية خلق الله؟ هل يخشى الناس على أماكنهم في الجنة؟ ولماذا لا ينتظمون في طابور إلى أن تتم مراجعة حساباتهم؟ المصيبة أن كل مؤذن لا يثق إلا في ساعته ثقة المنظمات الفلسطينية ببرامجها وإنكارها لبرامج الآخرين غير الدقيقة . قلت لنفسي ، وقد بدأت أمي جولة ضحك لم تشأ الاعلان عنه صراحة : «أربعون عاما يا أمي لم يوحد الفلسطينيون منظماتهم ، ولا أعتقد أنهم سينجحون في توحيد الأذان خلال زيارتي هذه» .

مسحت أمي عن شفتيها ابتسامة خفيفة من بقايا ضحكها غير المعلن ، وقالت بصوت مطمئن حنون : «بيهمّش يه . . هذا بس عشان أول ليلة الك في لبلاد . . بكره بتتعوّد . . احنا بيني وبينك بطّلنا من زمان نحس أبتشي . والله كنا اننام والقصف شغال . . طب طاخ دف بف ، دب وب ، طخ طخ شلاخ . . ولا معنا خبر . . اتعودنا ، عيشتنا كلها خربطة في خربطة . والله يمّه لما يكون الجو هادي والدنيا ساكتة وما في صوت بيصيبني القلق وما بعرف انام . . . قوم يه الله يرظى عليك . . قوم احلق ذقنك وخوذ لك دش ساخن بتصحى وبتنعنش ، خلّينا نفطر ع البدري ، هلقيت بتيجي أمال وبتحضر النا لفطور . . حضّر حالك ، بنت خالك مريم تلفنت من شويّه وقالت إنها جاية ، نفسها تشوفك ، بتموت عليك مريم . . قوم يه قوم» .

وقفت أم عادل وسط الصالة ، فوق السجادة الحمراء التي مدت تحت الفراش . فردت قامة تطاول النخلة ولا تنحني لسنوات عمرها التي تجاوزت الثمانين ، وفتحت ذراعيها ترحب بعادل الذي هبط على صباحها مثل خير مفرح ، ومشى نحوها واندس بين ذراعيها المفتوحتين .

احتضنته مرحبة : «يسعدلي هالقمر اللي ما طلّ علينا من ستين . . منوّر صباحي وعمري كله يا عدولة . . تعا جنبي يه وخللي الالمان يقعدوع العتمة» .

«يسعد صباحك يه ويعطيك طولة العمر» .

«نمت منيح ليلة امبارح يا عدولتي يه؟» .

«آه نمت . . الحمد لله . . في أحلى من إنّه ينام الواحد في بيت اهله وبين اعز حبايبو؟» . وتثاءب ساحبا الصبح كله إلى صدره .

« والله يه بابنّك ما نمت . . أني عارفة . . لساتو بالك مشغول!» .

«بصراحة يه . . ما رح يهدالي بال الا تَ لاقي ليلى» .

« وين بدّك تلاقيها بعد كل هالستين يُمّه . الناس تلخبطت والدنيا تغيّرت ، وما حدن ظلّ مطرحو . إحنا لو سكنّا في المخيم وما بنيناش دارنا ، كان تشحططنا مثل التانيين . البركة في اخواتك اللي في الامارات ، الله يخليهم ويسعدهم ويوفّقهم ف شغلهم . اسمع مني يه وانسى ليلى . . . طيب وإذا لقيتها ، رح ترجع تتجوزّ بعد ما قرّب عمرك ع الستين؟ طب وهيّ . رح تقبل تتجوزك والّلا حتى تتجوزّ غيرك بعد هالعمر . وحّد الله يا بنيّ وقوم الحمم واحلق ذقنك وخوذ دش خلليني اروح انا وانت اورّيك مشتل الزهور اللي فتحو ابن عمك» .

جلست على الفراش وسارع عادل يسند ظهرها بوسادتين ، ويجلس إلى جوارها .

دخلت الشقة المرأتان الأخيرة، امرأتان تمتوان في بدايات العقد السادس. اجتازتا الممر القصير وتوقفتا على مقربة من الفراش الممدد على الأرض. خلعتا حذاءيهما وألقتا بالتحية على أمي وأخذتا تنظران إليّ من أربع أعين يملؤهما فضول.

نهضتُ واستقبلتهما بكثير من الترحاب والفضول أيضا. مددت كفي وسلّمت عليهما تباعا. تحلّقنا جميعا حول أمي المكومة فوق نفسها كالعادة، والتي لم تتوقف عن الترحيب بالزائرتين.

نظرت إليّ الأولى، وكانت داكنة البشرة، وقالت تخاطبني عبر ابتسامة أليفة: «أكيد ما عرفتني يا أبو فادي.. أني بنت خالتك مريم؟»

«أم زاهر». أضافت أمي صفة أخرى إلى التعريف.

«مريم!!»

قمت مجددا، وقامت المرأة وتعانقنا وملأنا أعيننا بالدموع

كانت مريم (ابنة خالتي شقيقة نصر الدين)، تصغرني ببضع سنوات. وعلى خلاف شقيقها (الذي كان يسخر من سمرته الباذنجانية ويلعنها)، كانت مريم تعشق سمرتها مثلما عشقها الآخرون من أفراد العائلة. كان لها جمال نفرتيتي، الملكة الفرعونية التي أحبها صديق طفولتي محمد خديجة، ورسم لها ذات يوم، صورة بدهان من هواه، وتلمّس سحرها بأصابعه خلف عينين مغمضتين. كانت أمي تتمنى أن تزوجني بابنة أختها، ولم تكن تتوقف، كلما أتت على ذكرها، عن الإفصاح عن رغبتها تلك. «يا وليد يمه مريم صحيح سمرا ونحيفة، بس والله بشرتها زي البرقوق البلدي.. دمها خفيف ووجهها بينقط عسل، وبتحبك وبتحب إمك. والله قالت لي بعظمة لسانها، وين ألاقي أحسن من ابن عمتي؟!».

وكنت أرد عليها: «مريم حلوة ومؤدبة وكل شباب العيلة بيتمنوها..

بس مش وقته يمه. قدامي دراسة ومستقبل والطريق لساته طويل. لما يجي وقت الزواج يفرجها الله وكل واحد بياخذ نصيبه».

أنستني مريم النفرتيتية المرأة الأخرى، التي جاءت بها معها ولم تقدمها إليّ. التقطت مريم نظراتي الفاحصة إلى المرأة، فسارعت تصلح غلطتها، بينما الأخرى تتفحص عليّ بخجل: «هاي ليلى جارتي يا أبو فادي.. ليلى قريبتك بنت الحاج حسن درويش، اللي كانوا ساكنين في مخيم جباليا الغربي زمان. من يوم ما اتجوّزت نقلت ع بيت أهل جوزها، وسكنت جنبي في خان يونس»..

شيء ما انتفض في داخلي، ولا أدري إن كنت سقطت في حلم لم أفق منه. انتعشت ليلى حواسي الخمس وخبطتها. ليلى الرواية التي أكتبها. ليلى التي عشقها عادل البشيتي قبل عشرات السنين، وجاء يبحث عنها وها أنا ذا أبحث عنها لي وله.. أتكون هذه الليلى ليلانا، خرجت من النص وجاءت تهنئني بالسلامة وتتعرف عليّ؟!

استدارت المرأتان مودعتين. خرجت مريم وصحبتها ليلى حقيقية.

الفصل العشرون

مجتمع يشبه ثرثراته المتداخلة ، المتقطعة ، المتناقضة مثل شعاراتها التي ترفعها إلى مصاف الحقيقة ، ويصدّق أصحابها أنهم يناقشون جوهر قضاياهم ، أحاط بي بعد ظهر اليوم الثاني للزيارة ، ولم يعتقني حتى نهايات المساء . صورة نهارية من فوضى ليلة أمس . تجمّع آخر من الأقارب جاء يهنّئني بالسلامة ، أو يتعرف عليّ ، وقد سمع الكثير عن «صحافي الدهامنة» ، و«الكاتب الروائي» الوحيد الذي أنجبته العائلة ، وأعجبت برواياته الثلاث . شاهدوه مرارا على شاشات التلفزة ، يناقش ويلوّح بيديه عابثا بمهارة بالأدب والسياسة بكلام كبير يلتقطون بعضه ولا يلتقطون ، فيكتفون بتبادل نظرات الفخر وكلمات الإعجاب : «هذا قريبنا وليد» . وربما جاء بعضهم (وهذا احتمال ينبغي التعامل معه بجدّيّة كاملة) ، إرضاء لأمي ، وخوفا من نشراتها الإذاعية التي لا تتوقف عن البث على مدار الساعة ، باستثناء فترات نومها المتأخر . ومن يدري فقد تواصل خلال نومها ، بثا خاصا يشبه أحلامها . فهي لن تتردد في مَرْمَطة سمعة كل من تأخّر عن تهنئتها بعودة ابنها بعد غياب لم يغبه أحد . وهي قالت أمامي منذ بدأ أقاربي يتوافدون على «شقة العازب الأخيرة» ، (التي احتللنا صالونها المربع بالكامل بفرشاته القطنية الممدة على حصائر ، ومسانده المريحة) ، وعادت تكرر ما قالته : «شايف يا وليد . . ابن صفية عمة ابوك ما جاش . .عملها حِجّة وعذر وقال بدو يجوّز ابنه . طيب يجوزه مين

زعلان؟ الله يسعدو هوّ وعروسته ، والف مبروك عليه وانشالله بيخلقو طابور صبيان وبنات . طيب تعال سلّم على ابن خال ابوك وهنّي امه بسلامته ويعدين بتجوز ابنك . . العروس ما رح تطير ، ولا تنشق الارض وتبلعها . مجاش ، وانت يه ما تروحش ع العرس ، بكره عرس ابنه . ماجاش ، احنا ما بنروحش . اللي ما اجاش يسلم عليك ما تروحلوش لو جوّز كل اولاده . . ها . . فاهم» .

قاطعها ابن خالي أبو العبد : «مش هيك يا عمتي ، أني عارف الأفراح ووجع الراس اللي بتجيبو وانتِ عارفه . اني جوّزت خمسة من اولادي . . والله يا عمي الواحد ما بيفضى يحك راسه» .

لم تقتنع أمي ، وراحت تشكو غياب آخرين تعددهم بأسمائهم ، وترمي يميناً وراء الآخر مثل أيمان الطلاق ، إنها ستقاطعهم جميعا .

حاول عماد تغيير الحديث ، وذكّرنا بطرفة ، قال إنني لم أسمع بها حتما ، عن شريحة اليكترونية صنعت في كوريا ، تم تركيبها تحت لسان العمة (والدتي) ، في مستشفى الشفاء بغزة ، للتحكم في بثّها للتواصل . وقال بأسف كبير إن الشريحة لم تعد تعمل بصورة جيدة . وإنه يضغط زر التوقيف على الريموت كونترول مرات عدة خلال الجلوس مع عمته ، فلا تعمل بشكل جيد كما توقّع .

ضحكتُ . وضحكت أمي ، وسارعت تستغل الفرصة لإثبات عدم صلاحية الشريحة الاليكترونية . وقالت انها لم تجلس معي ولم تستمتع بحوار مع ابنها منذ أربعين عاما . وإنها ستفرغ كل كلام لديها للمته وخبأته في صدرها عبر السنين ، و«اللي بيحب يسمع يسمع واللي ما بيحبش يسكّر دينيه . . بلا شريحة بلا بطيخ اصفر» .

هكذا قالت . وردّ أكثر من شخص من بين الجالسين بصوت واحد : «لهْ يا حاجة . . كلامك ع العين والراس» .

ارتاحت أمي لسيطرتها على الموقف ، كما تسيطر الطائرات الإسرائيلية على مجال قطاع غزة الجوي ، واستغلّت الفرصة لمزيد من الحكايات .

تدخّل أبو أحمد ابن عم أمي ، (الحمساوي جدا) ، مخاطبا أبي خليل (الفتحاوي المتعصب من فتحاويته) ، وكان يجلس إلى جانبه : «شباب حماس كانو بينصبو لغم للدبابات وشفتهم بعيني . وانفجر بعدين» .

«بتحكي عن جد . . لغم حقيقي؟» . سأل أبو خليل ساخرا .

«آه لغم ، ليش مستغرب يا بو خليل . . واضح طبعا إنه لغم . اني شفت التراب اللي طلع منه لما انفجر تحت الدبابة ، والغبره اللي وصلت للسما . ايش يعني بدّك الشباب يزرعو لغم للدبابات الإسرائيلية ويرفعو عليه يافطة : انتبه خطر . . يوجد هنا لغم نصبته حماس؟» .

«ولك يا بو احمد يا حبيبي ، هذا اللي شفتو انفجر لا لغم ولا ما يلغمون . هذا صوت سيارة شحن خبطت في الحيط وطلّعت غبره . . . اذا مش مصدّق قل لي . . وين راحت الدبابة اللي انفجر فيها اللغم؟» .

«جرّوها اليهود دوغري» .

«الله يجركم من السانانكم انتو لاثنين» .

تدخّلت أمي كما تتدخل قوة دولية في منطقة اشتباك ، قاطعة حوارهما من وسطه .

بلع أبو أحمد وأبو خليل لسانيهما فورا .

تابعت أمي موجهة كلامها إلي ، والثقة من أن أحدا لن يقاطعها ما دامت تتحدث إلى ابنها الضيف القادم من أعماق السنين : «ابو فادي . . ايش بدّك في خراريف ابو احمد وابو خليل ، هاذول لثنين كل ما بيتلاقو يتشاكلوا بالحكي ، واحد في صف حماس والثاني بدافع عن فتح مرة ويسب عليها خمسين . . اسمع لإمّك ودَشْرَك من كلامهم الفارغ . قعَد

«الأم ستة معايا .. فلّيتني محيباه عند انسام بنت المرحومة اختك».
مسحت دمعتين طارئتين بطرف منديلها وتابعت : «صرفت ميتين دولار ، من اللي اعطتني اياهن اختك رجاء الله يرحمها».
ومسحت دمعتين آخريين ، ومسحت أنا من عينيّ اثنتين .
«وناديت ع جارتي ماجدة ، بتعرفها اللي تلفن الها ابن خالك وانت في الغير عشان تجيب لك رقم هويتي من الدار في خان يونس . اعطيتها خمسميت دولار ، وقلت الها روحي يا رجاء يا حبيبتي اشتري لي فيهم ذهب . الذهب احسن من الدولارات ... وبعدين اني ما عنديش حساب في البنك مثل البشر احط المصاري فيه».
التفتُّ إلى عماد وصحت به ضاحكا مستنجدا : «عماد .. الحقني يا ابن خال بالربوت كونترول».
غرق الجالسون في الضحك ، فاستغل أبو أحمد الفرصة وعاد إلى مناكفته السابقة مع غريمه السياسي أبي خليل : «بتعرف يا بو خليل ، انو شحادة جاركم كان بدّو يصير وزير .. وكانو بدهم يسلموه وزارة الصحة؟».
«طز طزين ثلاثه .. وأنعم وأكرم .. إيش بيفهم شحادة في الصحة يا خوي؟ .. شحادة جارنا وبعرفو اكثر منك .. إذا راسه وجعو بيرقد اسبوع في الفراش وما بيروح ع الشغل وبياخد اجازة مرضية».
«يعني اللي صاروا وزرا احسن منه؟».
«يا سيدي يسلموه وزارة المجاري بكون بنجح».
تدخل أبو العبد وقد انفجر ضاحكا مثل آخرين ، قائلا : «هي المجاري صار إلها وزارة .. طيب ليش ريحتها طالعة لليوم؟».
رد أبو خليل بحماسة بالغة : «يا شيخ اليهود قالو للسلطة ، بدنا نشتري مية المجاري تاعتكم . قالت الهم السلطة لا . رجعوا اليهود بترجّوهم ويقولولهم ، ولكم يا عمّي بالعربي الفصيح مش بالعبراني ، بدنا

نشتري خراكم .. رفضو .. بدهمش يبيعوه ، قال بدهم يكرّروه ويزودوه ، يحلّوه ذهب .. يا سيدي حلّوه ذهب . اليهود قالوا بدنا اياه ناخذو ..».
قاطعه أبو أحمد بانفعال من يحرص على ثروة وطنية تعرّضت للمساومة : «يعني ياخذوه بتراب المصاري يا ابن عم؟!».
«سلم لي ثُمّنك اللي مربّيها ع كُبر .. وانت بتحلم اسرائيل تشتري خراك بمصاري .. عمر السلطة الفلسطينية ما حلمت ابدا بدولة تشتري خرا مواطنيها بمصاري ولا حتى من دول الاتحاد الأوروبي اللي بتصرف عليها . إسرائيل عرضت عليهم تشتريه .. بمصاري شيكلات بالعربي الفصيح ، وحتى عرضو يشتروه بالدولار .. عاجبك؟».
رد أبو أحمد متحديا : «لا مش عاجبني .. مشروع المجاري أصله مشروع الماني ، والمهندس اللي بدو يشرف عليه الماني ، قال انهم رح يروّوا كل اراضي المنطقة القريبة في بيت لاهيا .. زلمة الماني من الاتحاد الأوروبي غصب عنّك ، يعني ما تفكر إنه من جماعة حماس .. والا الالمان كمان صوت نتحشروهم حماس؟».
«طيب .. والعمل المشروع الألماني يا فصيح؟».
«شو بدك بتعمّل المشروع في يوم وليلة .. يا عمي مدينة الشيخ زايد في جباليا ، ظلّت واقفة سنين طويلة من غير ما يكملوها ، لحتى اجا محمود عباس».
«ولك يا فصيح محمود عباس كانا وقتها في مصر .. السلطة ما رضيتش تبيع ميّة المجاري ، رفضت وقالت علنا بدهاش تبيع الخرا لليهود .. بدها هي اللي تكرره زي ما بتعمل الدول الكبرى .. قالت هذا خرا وطني وما بتفرّط فيه .. خرا أهل جباليا وبيت لاهيا وما بيصير نفرّط فيه .. السلطة اعتبرته من الثوابت الوطنية اللي مش ممكن تتنازل عنها إلا في استفتاء عام . قالت بتكرّر المجاري وتستعملها من أول وجديد . ما كان

ناقصها غير تسيّر تظاهرات في مخيم جباليا وبيت لاهيا تهتف :

يا خرانا يا خرانا
احنا امامك وانت ورانا . .
يا خرانا يا خرانا
انت معاهم واللا معانا . .

تدخلتُ لوضع حد لنقاش خراني بالفعل ، وسألت : «وايش صار في الأخرا؟» .

«ههْ . . في الأخـر ، راحت السلطة وظل الخـرا . . مـلأ المنطقـة روايح . . . وين ما تروح بتشم . . والمجاري طفّت . . وما تنسوش مجاري غزة اللي بتصب في البحر . . ووادي غزة كمان ، صار واد مجاري يجر ويرمي في البحر خرا وطين . والمية تلوثت . . صرنا نشتري المية في قناني من اليهود» . أجابني أبو خليل .

جاءت آمال زوجة عبد الفتاح ، وقدمت فناجين من القهوة ، اتبعتها بأخرى من الشاي . وأخذ الجالسون يتناولون ما يرغبون به ، ويقلبون سيقانهم التي اهترأت من الجلوس على الأرض رغم تعوّدهم عليه .

تواصل مجيء المهنئين وخروج من هنأوا ، ولم يتوقف الحوار ولا بث أمي الذي لا توقفه شرائح الدنيا حتى لو كانت ماركة صوني العالمية . لا أحد يستمع لأحد . أبو أحمد في اشتباك يواصل معركته الخاصة مع أبو خليل ، وأمي تروي لي . ويفترض بي أن أستمع للإذاعات التي لا عدد لها وأتابع نشراتها ، وأستوعب كل ما يبث وأعلق عليه ، بوصفي الصحافي المحايد ، والمحاور التلفزيوني الذي جاء من خارج مناطق الاشتباك .

كان نهارا آخر من استقبال عجيب غريب مضحك ومبك بالفعل . تركتهم يقولون ما يشاؤون . أتدخل أحيانا بكلمة أو اثنتين بغرض تأكيد

الاستماع . لكن ذلك لم يكن يرضي أمي التي كانت تجرني خلف لسانها فأجبرُ : «اني فش حدا من تعون حماس لما يفوت من قدام داري الا بدير وجهي ع الجهة الثانية . لمّا كان واحد يموت او يستشهد ، كانو يجرو يجرو ويبرطمو ويركضو الليل والنهار ويدفعو مصاري لأهل الميّت ليلمو الناس حواليهم . بالعربي الفصيح يشتروهم بالمصاري» .

«مزبوط والا مش مزبوط كلامي؟» .

«كلامك مزبوط يا عمتي» . قال صلاح .

«انا بحكي سياسة احسن منكم» .

قالت ، وسكتت للمرة الأولى .

الفصل الحادي والعشرون

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل ، حين غادر الهتلون بعودتي سالما «شقة المرّابي الأخير» ، وانتهينا أمي وأنا وحيدين كما بدأنا في الصباح .

سألتني إن كنت أشعر بالنعاس أو راغبا في النوم . قلت لها إنني متعب فعلا وبحاجة إلى عشرين ساعة نوم على الأقل ، ومع ذلك لن أذهب إلى السرير الآن .

اقتربت منها حتى لامس كتفي كتفها ، فاستبقتني إلى السؤال :

«أكيد فيه إشي شاغل بالك يه . . أني إمك ما تخبّيش عليّ يا وليد؟» .

«ابتعرفي ليلى دهمان من زمان يه؟» .

«ليلى دهمان؟ ايش جابها ع بالك في هالليل» .

«بسأل . .» .

«والله بعرفها يه من حد وهيّ ازغيرة . . ليلى أصغر منّك بكم سنة بس ، وبعدين قريبتنا الدُّزم ، مش ابعيده عن فرع عيلتنا كثير . . ايش إجا ع بالك تسأل؟» .

«شغله بتخصني . . هيّ متجوزة والّلا عانس لليوم؟» .

«لا يَهْ ايش يعنِّسها . . أعوذ بالله . . وَحْدَه زيها زي القمر بتظل من غـيـر جـواز . . البنات اللي زي الصـراصـيـر بتـجـوّزن . . ايش اللي بتقوله . . ؟!» .

أشاحت أمي بنظرها بعيدا عني ، كأنها تخفي انفعالات لا تريدني أن ألمحها . كانت أمي مثلي تماما ، من النوع الذي تفضحه ملامحه ولا تكتم اسرار انفعالاته .

عدّلت في جلستها ووضعت مرفق يدها اليمنى القريبة منّي على ركبتها وقبضتها تحت ذقنها ، وغرقت في صمت ليس من طبيعتها .

أقلقني صمتها فلحقت به إلى أعماقه : «طب ليش ما اجّتش ليلى مع جوزها . . ما هو قريبنا والواجب ييجي يسلّم ويتعرّف عليّ؟» .

غيرّت وضعها مجددا ، ووضعت يدها اليسرى على ركبتها البعيدة عنّي وصار وجهها مكشوفا لي ، فبدا لي مكفهرا حزينا . ترددت لحظة قبل أن تتخلّى عن صمتها وتقول : «ليلى اتجوّزت ابن عمها وضّاح . كان شاب ما فِشْ منه ومثل القمر ، خان يونس كلها كانت تحلف بحياته . . موتُه ما كانْ ع البال ولا ع الخاطر . . كان طالع الصبح ع شغله . يدوب سكّر باب الدار وراه ومشي ، اجته رصاصة طايشة في راسه ووقع من طوله . . وما حدش عِرِف . . هيّ طلقة من اليهود ولا من رصاص هالمسلحين اللي بيطربعو ليل نهار في الشوارع» .

ثم التفتت إليّ وسألتني بحدة : «طب وانت ايش إجا ع بالك . . شايفاك مهتم بليلى . . انشا الله بدّك تطلّق مرتك جالا وحاطط عينك ع ليلى؟» .

«جولي يه اسمها جولي . . .

«مش مهم ، جالا والّلا جولو إتغيرش الموضوع» .

مددت ساقيّ اللتين تيبّستا من الجلوس على الأرض أمامي ، وقلت اطمئنها : «اللي طلّق مرته يه واحد تاني . واحد فلسطيني كان يعرف ليلى وهي ازغيرة ، لمّا كان في الثانوية العامة . شاب من عيلة البشيتي من المجدل عسقلان عايش في ألمانيا ، ومتجنس اسمه عادل . اتّصل إبي مرة ،

وكان بدّو ييجي ع غزة يسأل عليها بس خايف ، ما بدّوش حدّن يحكي عليها كِلمة لا هيك والّلا هيك ، انت عارفة الناس وكلامهم مع إنها قصة قديمة» .

«ليلى باقية زمان تحب واحد من المجدل؟! . . يخرب شرّك يا ليلى والله ما انت قليلة . . طول عمرها مبيّنه ساهية وعاقله اليسّه بتاكل عشاها» .

«في بلادنا يه كل الشباب بيحبوع السكيت» .

«طب وانت مين بقيت تحب . . ها؟» .

«انت ايش بدّك فيّ . . خلينا في ليلى» .

«طيش شباب . . طب وايش اللي فكّر صاحبك في ليلى فجأة؟» .

«كان مجوزّ ألمانية وطلّوا مع بعض عشر سنين ، وجوازه ما نِفعش . طلّقها برضاها ومن غير مشاكل ، عنده منها بنت وحيدة ما فيش غيرها ، اتجوزت أميركاني وهاجرت معه على نيويورك . صار يسأل على ليلى بالتلفونات من ابعيد لبعيد . ولمّا سمع انه جوزها توفى فكّر يرجع لقديمه . حابب يقضي بقية عمره مع مرة فلسطينية عمرها قريب من عمره . وليلى حبّته وحبها في الزمانات» .

تنبّهت أمي فجأة كأنها صحت من حلم : «اسمع اسمع . ليكون قصد صاحبك ليلى الثانية اللي كانت ساكنة برضو في المخيم الغربي في جباليا . . هذي ماتت يه؟» .

«مين اللي ماتت يه؟»

«ليلى الشيخ خليل دهمان . . ما هي المسخّمة جوزها مات كمان ، بس في اشتباك بين فتح وحماس قبل سنتين ، ولا كان مع هاذول ولا مع هاذولاك . . ولِحقته المسكينة بعد شهرين . الناس قالو طلّع عندها سرطان في المعدة من تلوّث الجو من الرصاص والقنابل الاسرائيلية . ايش بيدرّيني ، السرطان إمّللي قطاع غزة . .ناس كثير والله يه مُرضى

بالسرطان ، إشي بتعالج في مستشفى هداسا في القدس ، وإشي بروح ع رام الله ، وناس مرميين ومش لاقيين علاج . . إفْهَم الله . . وانت ايش . . » .

«طلتي جوزها مات في اشتباك مسلح مش برصاصة طايشة مزبوط يه؟»

«آه يه . . وفي ناس حطّو الحق عـ » .

قاطعت عبارة أمي ولم أدعها تكملها ونهضت : «أني قايم أنام يّه . . تصبحي على خير» .

«إذن ليلى التي جاءت مع ابنة خالي هي من يبحث عنها عادل» .

«ايش بتمتم وبتقول لحالك؟» .

«ولا إشي يّه . . بعدين بحكي لك . . تصبحي على خير» .

«وانت من أهله يا حبيبي . . سكّر ذينيك ونام امنيح يا وليد» .

توجّهتُ إلى غرفة النوم وتركت أمي تحكي ما تبقى لديها من حكايات لنفسها .

ألقيت بجسدي على السرير متعبا من يوم آخر من الاستقبالات والحكايات الغريبة والمفجعة ، التي سبقتني إلى السرير وانتظرتني هناك لتعيد تفاصيلها عليّ ، فلا أقوى على النوم .

نهضت بعد وقت قصير ، وأطفأت النور وعدت إلى السرير ثانية وأغلقت عينيّ . حاولت النوم مجددا فلم أستطع . شغلتني قصة عادل التي تخيّلتها في الرواية ، وكيف أخذت تتشكل وقائعها أمامي في حكايات أمي . رأيت في عتمة لا تفاصيل لها ، ليلى تغادر النص في «ظلان لبيت واحد» وتجلس على أطراف الحقيقة . ندمت إذ اعتقدت ، ذات يوم ، أن حكاية ليلى ، لم تزد على مزحة أطلقها شاب معجب

بمقالاتي ، لم أهتم بها في حينها .

قبل عام تقريبا ، وصلتني رسالة على بريدي الإليكتروني يقول صاحبها :

عزيزي الأستاذ وليد دهمان .

تحية طيبة .

اسمح لي أولا أن أعرفك بنفسي . أنا يا سيدي فلسطيني مثلك . أكلت الغربة نصف عمره مثلما أكلت نصف عمرك وأكثر . تعرّفت في سنوات الشباب بفتاة جميلة من عائلتكم اسمها ليلى دهمان . أنا متأكد أنها قريبتك . كنا نلتقي سرا في مخيم جباليا نتبادل الهمس في عتمة الحارة ، ونكتفي في ضوء النهار بتبادل النظرات والابتسامات عن بعد أثناء عودتنا من المدرسة الثانوية . أحببت ليلى كما لم أحب فتاة في حياتي ، بل إنني لم أحب فتاة أخرى فعلا غيرها ، وتعاهدنا على الزواج . تركت البلاد للدراسة في ألمانيا على أمل أن أعود بعد التخرج ، ولكني لم أعد . ضاعت منّي ليلى مع ما ضاع من العمر . عرفت قبل سنوات أن ليلى تزوجت . وعرفت منذ فترة قصيرة فقط ، أن زوجها توفي . لكنني لا أعرف أين هي ولا أين تقيم . وفشلت كل محاولاتي للاتصال بها . وأنا ألجأ إليك اليوم ، لكونك كاتبا وصحافيا معروفا ، وحتما لك شبكة علاقات واسعة وصلاتك بعائلتكم قوية بالتأكيد . أتمنى عليك أن تساعدني في العثور على ليلى؟ فإن عثرت عليها ، أو على من يدلنا على مكانها ، فسأذهب إلى قطاع غزة وأطلب يدها ، رغم أنني قاربت الستين . وإن رفضت الزواج بي ، ولم يحصل نصيب ، فسوف أحترم رغبتها .

وترك لي رقم هاتفه الجوال وبيتين من الشعر :

عشقت ليلى عشق الروح والحب فتّان

يا غريبة القلب اسألي أبناء دهمان
محسوبك قيس ابن الملوّح
عادل البشتي

فاجأني صاحب الرسالة بجرأته في طلب الوساطة في أمر شخصي يتعلق بامرأة لا أعرفها. ولم أخذ الحكاية على محمل الجد في حينها، فهي إلى جانب طرافتها وغرابتها، لم تخل من عبث وجنون. فالسؤال عن امرأة تركت، أو حتى عن مجرد امرأة ما تقيم في قطاع غزة، يثير الشكوك، فكيف بالكشف عن علاقة قديمة لامرأة يعتبر أهلها العشق جريمة لا يجوز التساهل معها. وتساءلت عما سيكون عليه موقف أهل زوجها المتوفى إن عرفوا الحكاية؟. ولماذا لم يذهب عادل بنفسه إلى غزة والسؤال عنها؟. هل كان يخشى أن يشبعوه ضربا، إن لم تصل الأمور إلى ما هو أسوأ، فآثر السلامة باللجوء إليّ لكي أقوم له عنها؟ أم إن الأمر كله مجرد مزحة عابرة من شاب قرأ مقالا لي وودّ مماكستي؟.

اعتذرت لعادل، أظهرت له عدم رغبتي في القيام بدور خاطبة تبحث له عن عروس في الظل، كما يبحث طفل عن قطعة معدنية أضاعها وسط الرمال. واقترحت عليه أن يسافر إلى غزة ويحاول العثور بنفسه على حبيبته القديمة، إن كانت هناك حبيبة بالفعل.

لكنني لم أتردد في الاستفادة، لاحقا، من تلك الرسالة في روايتي الرابعة. كانت فكرة الرواية تدور حول فلسطيني يعود إلى قطاع غزة عن طريق إسرائيل، بعد غياب طويل ومفارقات عودته.

لم أكن قد شرعت في وضع التفاصيل آنذاك، وحين فعلت، جعلت من عادل بطلا للرواية، ينفذ ما اقترحته عليه في الحقيقة. يسافر إلى غزة ويبحث بنفسه عن ليلى. وفي مرحلة لاحقة، أخذت باقتراح زوجتي، وقررت القيام بنفسي بزيارة إلى غزة، أحقق من خلالها هدفين. الأول،

زيارة أمي وأهلي التي آن أوانها بالفعل. والثاني، تتبع مسار روايتي في الواقع، والوقوف على التفاصيل التي يمرّ بها عادل في رحلته واختبارها.

وهكذا وجدتني أتتبع خطى عادل وأبحث إلى جانبه عن ليلى، في الواقع والرواية، في الحقيقة والظل.

ارتحت لذلك كثيرا، وعوّضني ارتياحي عن النوم الذي فقدت كل رغبة فيه. أشعلت النور ثانية. قمت ووصلت كمبيوتري المحمول بخط الهاتف في غرفتي. فتحت بريدي الالكتروني فوجدت أربع رسائل. واحدة دعاية لتطويل القضيب ألغيتها بسرعة بينما أتحسّسُ سرا: هنا يبدو لا طويل ولا قصير. والثانية لحساب بطاقة ائتمان تجاهلتها. والثالثة من صديقتي اليهودية البريطانية، ليا بورغان، تقول إنها عادت من ألمانيا، وإن جولتها الثقافية كانت ناجحة وممتعة. والرابعة كانت مفاجأة اليوم الثانية بعد مفاجأة ليلى.

كانت الرسالة من دانا الإسرائيلية رفيقة السفر. سارعت إلى قراءتها غير مصدّق أن دانا فعلتها ووفت بوعدها بالسؤال عني والاطمئنان عليّ:

«مرحبا وليد... كانت جيرتنا في الطائرة مسلية وممتعة. أشكرك على ذلك كثيرا. أتمنى أن تكون وصلت بالسلامة والتقيت والدتك، كنت أتمنى لو أعرف كيف كان اللقاء. قلقت كثيرا بعد وصولي إلى البيت حين عرفت من أبي أن انتحارية كانت ستفجر نفسها داخل معبر إيرز... الحمد لله أنها لم تتمكن من ذلك. احتفلت أمس بعيد ميلادي. كانت سهرة ممتعة امتدت حتى منتصف الليل، حسمت خلالها مواقف كثيرة تقلقت في حياتي لم أخبرك عنها في الطائرة، ولا أستطيع أن أخبرك بها. معذرة، كل ما أستطيع قوله الآن، هو إنني سأبدأ حياة جديدة، سوف تكشف منها بعض التفاصيل التي استمعت إليها مني، بعضها يتعلق بصديقي إيهود، والبعض الآخر

بطبيعة عملي . وقد يأتي يوم يصبح فيه البوح ممكنا ، وتتعرف على التفاصيل . المهم ، متى ستحتفل بعيد ميلادك كي أبعث إليك بتهنئة؟ أتمنى أن نبقى على اتصال .

ليله طوف (ليلة سعيدة) وليد .»

بعثت برد إلى دانا ، تجاهلت فيه قراراتها الخاصة التي لا أعرف عنها شيئا على أية حال . قد تكون قد قررت الزواج بإيهود ، وقد تكون على العكس من ذلك تماما ، قررت التخلي عن صداقته . لم يشغلني الأمر كثيرا ، فلديّ ما هو أهم منه بكثير . أما عملها فهو يخصها مثل إيهود . كل ما فكّرت به وأنا أكتب ردي ، هو ألا تغيّر مواقفها التي عبّرت عنها تجاه السلام ومستقبل العلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وموقفها مني إن كان لها موقف سيتواصل مع الأيام . شكرتها على اهتمامها ، وهنأتها بعيد ميلادها ، وتمنّيت لها سنوات مفتوحة على السعادة . وقلت لها إن لقائي بأمي وأقاربي كان مثيرا مشحونا بالانفعالات متوترا وجميلا . كان بحيرة كبيرة وعميقة من الدفء والحميمية . لقد كنت ولم أزل مأخوذا بالتفاصيل . وفي الختام ، تمنيت لها ليلة سعيدة . وبعثت بردي .

أغلقت الكمبيوتر ، وأطفأت النور في الغرفة ، وألقيت بجسدي ثانية على السرير . . ولا أدري متى غفوت .

الفصل الثاني والعشرون

«اليوم بعد الظهر جاي ابن عمك أبو حاتم زي ما وعدك ، عشان ياخذك ع خان يونس . . مع إنّي ما الحقتش اتهنى ابك يا وليد . . ما تروحش ع خان يونس وتلزّق هناك ، اقعد يومين وارجع . . سامع» .

قالت أمي مفتتحة صباحا ثالثا بعد أن انتهينا من تناول فطور أعددته بنفسي .

فأجبتها مطمئنا ، بينما أجمع الأطباق لأعيدها إلى المطبخ : «معنا وقت طويل يمه ،لسه بدري كثير» .

انتهيت من وضع الأطباق في المطبخ وعدت إلى أمي ، وأخبرتها أنني سأصعد الى السطح أستنشق بعض الهواء وأشوف الدنيا من فوق .

كان السطح فسيحا ، تحتل جانبا منه أقفاص الدجاج والحمام الذي استقبلني مرحبا بي بصياح وهديل ناعمين . اقتربت من سور السطح الواطئ جهة الجنوب . كان ثمة علم فلسطيني معلق وقد التفّ على عامود خشبي رفع عليه ، كأن زوبعة صغيرة دارت حوله وخنقته . فردته وأمسكت به بأصابعي من زاويته السفلى ثم تركته يرفرف ويتنفس من جديد .

جلت بعينيّ أتأمل المشهد البانورامي لبلدتي جباليا وبيت لاهيا . كانت ثمة ساحة كبيرة تفصل عمارة النصريين عن أقرب البنايات إليها من جهة الغرب . من بعيد بدت أعلام خضر وصفر وسود ، ترفرف فوق أسطح العمارات ، تعرّف عن ولاءات سكانها او بعضهم على الأقل .

أحسست بالكآبة إذ لم أجد بينها العلم الذي علمني الأناشيد .

في الجهة الشمالية تراءت لي بيوت بعيدة تحيط بها أشجار قليلة متفرقة ، تفصلها عن بيت لاهيا منطقة جرداء . رحت أحدق في البعيد ، وبصعوبة تعرّفت على ما يشبه ظهر سارية عالية ، قدّرت أن تكون عامود اتصالات لاسلكية . لابد أنها مستوطنة دوغيت اليهودية التي يتحدثون عنها . هكذا قدّرت أيضا .

تنشقت قليلا من نسمات صباحية منعشة . أخرجت هاتفي النقال الذي جلبته معي . أسندت مؤخرتي إلى حافة السور ، وطلبت عادل البشيتي على رقم هاتفه الجوال الذي تركه لي في رسالته التي تلقيتها منه قبل أكثر من عام .

«هالو . . . الأستاذ عادل البشيتي؟»

«ايوة انا عادل . . مين حضرتك يا خوي؟»

«مرحبا عادل . . أنا وليد دهمان يا عادل وليد . . متذكرني؟»

«الأستاذ وليد . . الصحافي اللي في لندن؟ ماين غوت (يا إلهي) . . وينك يا زلمة . . انت طنّشتني كل هالفترة يا ابن الحلال؟» .

«غوتن مورغن عادل» .

«ميت غوتن مورغن . . هياك بتعرف ألماني؟»

«الكلمتين اللي سمعتهم»

«ماين غّت . . أكيد عندك أخبار خلّتك تغيّر رأيك وتتلفن لي؟»

«فيك تيجي ع غزة خلال اسبوع بلكتير؟» .

«أوّل شي من وين بتحكي انت؟» .

«من جباليا» .

« ماين غت . . بتحكي عن جد . . وأنا في غزة كمان» .

«مش معقول . . شو هالمفاجأة . .

قاطعني بحماسة شديدة : «إجيت من ثلاث تيام . تيّست واجيت من طريق القاهرة . . واعلِقت يا أستاز خمسة ايام في معبر رفح . . الله لا يوريك . . شوب وبعوض ووسخ وصراخ وزحمة . . أنا متأكد إنه معبر جهنّم ارحم» .

«طيب بتحكي بالتفاصيل بعدين . . اسمع ، شو رأيك ناخذ فنجانين قهوة واللا شاي ع البحر؟» .

«فوت» . . أنا جاهز في أي وقت . . محسوبك لا شغلة ولا عمله» .

«نتلاقى ع باب فندق الاندلس الساعة التعش امنيح؟»

« بالتأكيد . . أشوفك بعدين» .

«استنى استنى . . كيف رح نتعرف ع بعض؟» .

«من حسن الصدف اني جبت معي نسخة من روايتك الأخيرة (حارة الياسمين) . . قريت ثلاث أرباعها في الطيارة وخلال أيام السعادة التي لا تنسى في معبر رفح ، او حبس رفح المؤقت إذا بدّك . . رح تلاقي شاب باقي فيه ثلث عمره ، طويل عريض ، حامل روايتك في ايده . . بعدين انت ناسي انه صورتك على الغلاف الأخير للرواية!»

«فعلا معك حق . . . See you then» .

أغلقت الهاتف غير مصدّق انني سألتقي عادل الحقيقي الذي لم أره في حياتي ، والذي قد يحل مكان عادل في الرواية .

اعتدلت وركضت نحو السلالم وهبطت عائدا إلى الشقة .

دخلنا إلى الفندق معا ، واخترنا طاولة صغيرة في الكافيتيريا قرب شباك يطل على البحر ، وجلسنا متقابلين وجهاً لوجه للمرة الأولى .

وجدت عادل مختلفا تماما عن الآخر بطل روايتي كما رسمته . كان طويلا عريضا ، كما وصف نفسه على الهاتف فعلا ، ذا شاربين مندمجين

في لحية قصيرة حسب موضة هذه الأيام .

كانت ملامحه المتناسقة غارقة في همّ بدا أزليا . وكان باستطاعتي أن أزيل همومه بكلمتين سريعتين ، لكني فضلت أن أتركه قليلا يفرد مشاعره على الطاولة بيننا ، فتعمدت سؤاله عن آخر أخباره ، وأين وصل به مشوار البحث عن ليلى .

ارتشف عادل بعض قهوته التي أحضرها النادل مع كوب لي من الشاي بالنعناع . نظر عبر الشباك إلى البحر كمن يستعين به ، ثم عاد إليّ ليقول : «للأسف . . كل مشواري راح ع الفاضي . . لو ساعدتني من قبل لوّفرت عليّ التعب كله» .

«خير . . إيش صار؟» .

«إيش صار . . ايش صار معك انت الأول . . خبرتني عالجوال إنه عندك اخبار طيبة . . هات لشوف» .

«مش قبل ما أسمع منّك» .

«دُخت وأني اسأل ع ليلي ، بتعرف حراجة الموضوع . . واحد غريب جاي من أوروبا وبيسأل ع مرة أرملة عمرها قرّب ع الخمسين . . اللهم ، باختصار يا سيدي ، في ناس قالولي ليلى ماتت بالسرطان من زمان ومش عارفين وين دفنوها . وناس قالولي بعدها عايشة ومش عارفين وين عايشة . وأنا دخت وأعصابي تلفت . علّقوني من قلبي بين الأمل والقبر . اللي قالو ماتت ما دلونيش ع قبرها . . قالو مقبرة جباليا القديمة امتلت وسكروها قبل ثلاث سنين ، والناس صارو يدفنو اللي بيموت في المقبرة لجديدة . واللي قالو ليلى عايشة ما بيعرفوش وين ساكنة . قلت لحالي ، ضعت يا عادل بين عناوين ضايعين اصلا ، لا عارف الاقي حبي مدفون تحت الارض ولا ماشي فوقها . وهياني بعدي بدوّر» .

ضحكت .

«ابتتمسخر علي يا أستاز وليد ، معك حق . . كاتب زيّك لازم يضحك على حكايتي» .

«أبدا يا أستاز عادل . .

«خلّينا من الأستزات وخبّرني ايش اللي عندك قبل ما أفقع وتطلع روحي وارميها في البحر» .

«اللي قالولك ليلى ماتت معهم حق ، واللي قالولك عايشة كمان معهم حق» .

«حزورة والا فيلم مصري . . أنا ناقص غموض يا أستاز وليد؟» .

«Look (شوف) . . أنا فعلا سألت امي عن ليلى ، وكمان بالصدفة بنت خال إلي اسمها مريم ، بينادوها إم زاهر ع اسم ابنها الكبير ، وعرفت من التنتين إنه ليلى جارة ام زاهر» .

«يعني ليلى دهمان ما ماتتش؟» .

«في المخيم الغربي في جباليا ، كان فيه واحدة قريبتنا اسمها ليلى دهمان ، ماتت بالسرطان زي ما قالو لك فعلا . وفي خان يونس كمان في قريبه إلنا اسمها برضو ليلى دهمان ، اللي هيّ جارة بنت خالي . بعدها عايشة وصحتها زي الحصان» .

«زي لعبة الفنّة ، عشرة ولا ملك» .

«أنا اتعرّفت ع ليلى . . اجت مع أم زاهر تسلم عليّ . وعرفت من أمي انه اللي ماتت بالسرطان اسمها ليلى الشيخ خليل دهمان ، وجوزها مات في اشتباك بين فتح وحماس . . واللي بعدها عايشة هي ليلى الحاج دوريش دهمان ، وهذي جوزها مات برصاصة طايشة زي ما قالت أمي» .

«هاي هيّ ليلايَ يا عم وليد . . بنت الحاج . . مزبوط كانو ينادو أبوها الحاج دوريش مش الشيخ . . اقولك فيك توصف لي اباها» .

بدا عادل مضطربا وأكثر قلقا مما كان عليه حين تقابلنا ، كأنما يخشى

أن تهرب حقيقة وجود ليلى من بين يديه وقد أمسك بأطرافها . أخذت شفتاه ترتعشان ، وأصابعه تنقر سطح الطاولة أمامه بعصبية بالغة حتى كاد يدلق ما تبقى من قهوة في فنجانه ، بينما أصف له ليلى التي قابلتها . قلت له إنه من رأيتها كانت حنطية بملامح ناعمة ، احتفظ بقدر من جمال أخفت سنوات عمرها بعض معالمه . كانت طويلة ممتلئة قليلاً . لم تتبادل الحديث كثيراً ، فقد بدت خجولة الى حد ما . ولفت نظري في حديثها مع أم زاهر ووالدتي هو تكرارها كلمة برضو كأنها لازمة كلام أو فاصلة : آه برضو ، مهي برضو ، وعشان برضو .. كل كلمتين بتحط بينهم برضو ..

انتفض عادل في كرسيه . دفع ذراعيه في الهواء بقبضتين مضمومتين على اللحظة كي لا تفلت منهما ، وراح يردد : «وما تنساش يا عادل برضو ..» ، ويهزّ قبضتيه في الهواء . «وح تتجوز يا عادل برضو ... ولك يسعد دينك برضو .. ليلى عايشة وستتياتي غصب عن الكون كله برضو .. ليلى عايشة يا وليـــــــد .....» .

قفز عادل من مكانه وهو يصيح وسط المقهى الذي لم يكن فيه ، لحسن الحظ ، غيرنا والنادل الذي وقف بعيداً قرب الباب يكتم ضحكاً قد يحرجه : «ليلى عايشة يا عادل .. انت وين يا ليلاي وعمري كله؟» . ثم استدار وهجم عليّ فنهضت وعانقته ، فأوقعنا فنجان القهوة وكوب الشاي ، واندلق ما تبقى فيهما على شرشف الطاولة القماشي . أسرع النادل نحونا ورفع الفنجان والكوب وصحنيهما المنسكبين ، وسحب الشرشف وقد غطت ملامحه سحابة من نكد .

التفت إليه عادل وقال له بقليل من الحرج : «سامحني يا خوي عشان فرحة اليوم بتسوى كل الدنيا .. هات إلنا شرشف جديد ، وانا بكل اني بدفع لك حق الشرشف والطاولة .. ولك عليّ الطلاق لاشتري لك المطعم كله ، بس اقرأ لي هالوجه كله بيضحك» .

«ولا يهمك يا أستاذ .. إحنا في خدمة الزباين»

علق النادل معتذراً .

مدّ عادل يده في جيبه فخرجت فرحة ترقص أصابعها حول خمسين دولاراً خضراء ، قدمها للنادل الذي فتح فمه يحجم مبداه غزة القريب منا ، وقال له : «اللها الك والله ما برجع منها اشي» .

شكره النادل ، ومضى وفي جيبه ما يزيد على دخله أسبوعاً على الأقل ، واقترح علينا أن نجلس إلى طاولة أخرى نظيفة ، ووعد بأن يزودنا بفنجان قهوة وكوب شاي ساخنين على حساب المقهى ، فعلنا .

قلت لعادل الذي همد على كرسيه يلهث ببقايا فرحته الأولى ، إنني سأرتب له لقاء مع والد ليلى الحاج درويش ، إذ كان لم يزل على قيد الحياة ، أو أحد كبار العائلة المقربين من ليلى ، من يؤخذ برأيه في الأمور التي تخصها ، خصوصاً في مسألة زواجها الذي يصرّ عليه عادل ، وجاء من أجله وهي في هذا السن المتقدم نسبيا . وأكدت عليه أن ما تبقى من المشوار هو الحلقة الأخيرة في مسلسل بحثه الطويل . وأن عليه أن يضع بنفسه نهايتها . وتمنيت أن تكون مثل نهايات الأفلام المصرية القديمة : تقف ليلى على قمة إحدى التلال الرملية وتصرخ وهي تهبط حافية القدمين : عاااااديــــــــــــــــــــل . ويرد عليها عادل هابطاً تلة أخرى مقابلة : ليلـــــــــــــــــــــى

ويتعانقان !

ضحك عادل الذي بدا عليه ارتياح كبير ، وأخذ يمشط لحيته الصغيرة بأصابعه ، وقد تهللت عيناه بفرح عريس في يوم زفافه .

ثم التفت إليّ قائلاً : «بتتذكّر يا وليد بيتين الشعر اللي كتبت لك إياهم في رسالتي؟»

ولم ينتظر إجابتي ، بل راح ينشدهما كأنه ابن الملوّح في زمانه :

عشقت ليلى عشق الروح والحب فتّان
يا غربة القلب اسألي أبناء دهمان
محسوبك قيس ابن الملوّع .
وضحكنا معا مثل صديقين قديمين .

الفصل الثالث والعشرون

بعد ظهيرة نهار ثالث يشبه نهاريه السابقين ، بادر ابن خالي أبو العبد ، داعيا الجميع إلى صلاة العصر . اتكأ على الأرض بكفه اليمنى ، ونهض مستعينا بعكازه باليسرى ، وقال وهو يمشي باتجاه الممر العريض الفاصل بين الصالة وغرفة النوم المقابلة ، حيث مدّت حصر كثيرة : «مين إمامنا اليوم يا جماعة . . يالله يا بو مشعل . . وين ابو مشعل . . تفضل» .

نهض أبو مشعل ، ليؤم الجميع ، ونهض الآخرون تباعا واستقاموا خلفه .

أبو مشعل . اسمه الكامل ، سميح إسماعيل دهمان ، ابن عمة أبي الذي يؤم الأقارب الذين يؤدون الصلاة الآن . قيادي متوسط في حماس . قيل لي حين جاء قبيل الظهر للسلام والتهنئة بعودتي ، إنه يستعد لترشيح نفسه للمجلس التشريعي على قائمة حماس . حاصل على دكتوراه في الاقتصاد من جامعة في بريطانيا . عرّفني على نفسه ، حين كان في المراحل الأخيرة من إعداد رسالته للدكتوراه ، في رسالة تلقيتها على بريدي الاليكتروني ذات يوم . رحّبت كثيرا بقريبي الذي ولد في غربتي ولم أره . وسعدت لوجود أحد أبناء عائلتي الدهامنة في بريطانيا . فهو يحمل إليّ حميمية القرابة ورائحة البلاد أيضا . أرسلت له روايتي الثالثة بناء على طلبه ، قرأها رغم انشغاله بدراسته وأبدى إعجابا كبيرا بها . طلب منّي أن أرسل له صورة تضمني وأفراد عائلتي ففعلت . طلبت

منه التعرف على زوجته وولديه فلم يبخل . أرسل إليّ صورة في اليوم نفسه . رأيته للمرة الأولى : شاب في الثلاثينات من عمره أو أقل بقليل ، قمحي اللون ، ذو لحية سوداء كثة ، وصلعة مبكرة لم تزل في بدايات زحفها ، وكان يتوسط ابنه وابنته الصغيرين . فاجأني ذلك . وأغاظني كثيرا النظر إلى نصف عائلة بعد أن غُيِّبت «أم العيال» ، ربة البيت التي تصفها عباراتنا الشعبية بالعيلة ، ويقول الناس فلان «راح هو وعيلته» ، وعلاّن «أخذ عيلته معاه» . ولم أكن بحاجة إلى تفسير . أسقط أبو مشعل نصفه الآخر ، التزامنا بالثقافة الجديدة التي دخلت على المجتمع أولا ، وفرضت نفسها على أبناء العائلة ثانيا ، ولحقت بي أنا من خلاله أيضا . أنا ابن خال أبيه ، الذي كانت شقيقاته ، سعاد وسميرة وابتسام (عمّات سميح) الصبايا الجميلات ، الرقيقات مثل زهر ثمر الحنّة ، يحتضنني بصدورهن كلما زرت أشقائهن ، (أعمامه) ، الذين كانوا في مثل سني أو يقاربونها ، في مخيم الشاطئ في غزة ، حاسرات الرأس عاريات الأذرع والسيقان إلى ما فوق ركبهن أحيانا . كان لحمهن لحمي ، ودمهن دمي . ولم أشعر بغير ما في قلوبهن من محبّة لي ، وما أبثه في صدورهن من دفء القرابة باحترامها الزائد عن اللزوم لشرف العائلة وبناتها . كنّ شقيقات لي وكنت شقيقهن ، وأنا في عز مراهقتي المضبوطة بشروط العائلة وقرابة الدم . خبّأ أبو مشعل زوجته عن عينيّ وأنا في الخامسة والخمسين من عمري ، بريطاني شبع من كل اصناف النساء . قصّر سميح الصورة وجعلها على مقاسه ومقاس ابنه وابنته الصغيرين وأطال لحيته .

هو الآن يؤم الجميع .

فاجأني مرة أخرى حين دخل علينا قبل الظهر بقليل ، حليق الذقن والشاربين ، مهللا مرحبا . مازحته ساخرا ، وقلت أمام الجميع إنني عرفت «أبو مشعل» في بريطانيا ، ملتحيا بين قوم لا يلتحون . كان الآخر ،

العربي ، المسلم ، المختلف . وفي غزة صار بلا لحية أو شاربين . رسم لنفسه صورة أخرى ، صورة المسلم الآخر العصري المودرن .

ضحك وعلق متسائلا : «إنت ورايا ورايا يا ابن خال؟» .

أجبته : «نعم يا ابن عمتي . . ورَح أظل وراك وراك» .

منذ تلقيت رسالته الأولى ، لم أجامل «أبو مشعل» أو أخدعه . أخذ يبعث إليّ التاريخ القديم من قبره . يدعوني إلى الدولة الإسلامية ويعدّد لي مزاياها التي قال ، (كما يقول غيره) ، إننا تخلّينا عنها وصرنا في مؤخرة الأمم . كأنني لم أعرف الدولة الإسلامية أو أسمع عنها . كأن التاريخ ولد معه هو وأمثاله من جديد . كأنها لم تقم من قبل ولم نجرّبها عبر التاريخ . أو أنها لم تنهض مرّات وتسقط وتنهار مرّات أخرى مثل كل الإمبراطوريات وأنظمة الحكم الأخرى في التاريخ القديم والحديث . لاحقته حتى أدخلته في تاريخه الذي يرسمه بزمن مضى ، وأفكاره التي جرّبت عشرات المرات . لاحقته حتى اختفى من بريدي الاليكتروني ، ولم أتردد في إلغاء صورته من البريد كله .

وحدي بقيتُ خلف الرجال الذين يصلّون ، منبوذا مثل نبتة شيطانية زرعت في أرض غير أرضها . شعرت بحرج من نوع غريب . ورغم ذلك رفضت أن أخدع نفسي أو أخادعها أو أخدع الآخرين أيضا . رفضت أن أضع صورة لي غير صورتي ، وشخصية يرسمونها لي كما رسم ابو مشعل لحيته وفقا لمتطلبات الزمان والمكان والأهداف المعلنة والخفية أيضا .

أخذت أتأمل الجمع وفي داخلي يتمدد مشهد بانورامي عريض لغزة التي أزورها : هواء تحجب روائح المجاري . بحر محجب بالمستوطنات فلا يراه بعض سكانها . نساء محجبات بالسواد يعلنّ حدادا أبديا على من رحلوا ومن لم يرحلوا بعد . عملة محجبة بالشيقل الإسرائيلي . دين

محجب بأطروحات شيوخ المساجد الذين لا عدد لهم . وشمس تشرق من خلف كل الأحجبة باحثة عن وجه يطل عليها لتصبّح عليه فتنكسر خجولة مما صار عليه الحال ، وتحتجب متعبة من طول بحثها .

انتهوا من أداء صلاة العصر . تمنيت لهم صلاة مقبولة . غادر بعضهم مودعا ، وعاد الآخرون إلى مجالسهم التي انقلبت فجأة إلى مجلس من زمن السلف الأقدمين ، حديثا وجدلا وحكايات ، اختلط فيها محمود عباس بالمأمون والرشيد ، وعرفات بأبي ذر الغفاري ، وأبو جعفر المنصور بمحمد دحلان ، ومحمود الزهار بعمر بن الخطاب بأحمد عبد الرحمن ، وإسماعيل هنية بياسر عبد ربه ، حتى شعرت بي في زمن يصارع بعضه ، رافضا أن يعترف بما جرى في التاريخ من أحداث ، ويندفع بجنون نحو زمن يعاند مجراه ويعاكسه .

الفصل الرابع والعشرون

في الطريق إلى خان يونس ، لفت أبو حاتم نظري إلى أننا وصلنا منطقة القرارة . أوقف سيارته الأوبل الحمراء القديمة إلى جانب الطريق ، بينما رحت أتأمل المنطقة فلم أجد القرارة . اختفى مزلقان السكة الحديد الذي كانت تقطعه السيارات في مسافة في الوسط تقريبا بين خان يونس ومدينة دير البلح .

«وين المزلقان يا أبو حاتم . . القرارة من غير مزلقان مش قرارة» . سألته .

«سلامة ذاكرتك . . المزلقان صار ابعيد ميت متر هناك» .

رد عليّ وهو يشير بيده بعيدا نحو الشرق ، ويضيف : «صار تحت البنايات اللي هناك» .

«والجميزات السبعة وين اختفن؟» . سألت .

«هو هو . . صارن ورا البنايات العالية اللي هناك» .

ردّ صديقه مجدي ، الذي رافقنا ، وقد جلس في المقعد الخلفي للسيارة ، وهو يشير بيده إلى عدد من البنايات العالية القائمة لجهة الغرب .

كانت الجميزات السبع السبيل ، هي أول ما يستقبل القادم من دير البلح بعد اجتياز مزلقان القرارة ، وآخر ما يودعه الخارج من خان يونس . سبع جميزات ضخمة زرعت قبل عشرات السنين ، (البعض قال مئات) ، لتكون غذاء حلالا للمارة ، بجميزهن البلمي الصغير المشهور بلونه الزهري الفاتح .

تذكّرت الخلاق سعيد . هنا كانت تنتهي رحلة تسكعنا حين كنا في الثانية عشرة ، نلتهم من حبات الجميز ما يكفي لأن يجعلنا نتلوى حول بطوننا من شدة المغص . ثلاثة أيام نقضيها عند أمي في جباليا ، دفنت سعيدا في فرحها وصخبها ونقاشاتها الجدية والمضحكة ، والآن توقظه في الذاكرة الجميزات السبع وتعيده إليّ .

«بتعرفو يا شباب بشو ذكرتني الجميزات السبعة؟» .

«بشو يا بو فادي» .

نظف كلاهما ، فأضفتُ متأملاً المطلقة التي لمحتهن : «بصاحبي ورفيق طفولتي وشبابي . . سعيد هممانه» .

صمتا معا ولم ينطق أي منهما . أقلقني صمتهما فقطعته : «يعني ما بتعرفوش؟» .

«ابو وحيد . . الله يرحمو يا ابن عم . . .» .

«سعيد مات؟» .

«توفّي من ثلاث سنين يا ابن عم . . حسّبتك عارف» .

انتابني حزن خانق ، دمعت عيناي . أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى ، ومسحت دمعي بكفيّ . لقد دخلت خان يونس من بوابة الموت . خان يونس ، مسقط رأسي الثاني بعد أسدود التي استقبلتني مولودا ، وحلمت برؤيتها وقد كبرت بأصدقاء الطفولة والشباب ثمانية وثلاثين عاما ، تستقبلني من دون سعيد .

«وحّد الله يا بوفادي» .

قال الرجلان بصوت واحد . وأمسك مجدي بي من الخلف ، وأخذ يربت على كتفيّ كمن يهدئ طفلا . بينما راح أبو حاتم يروي الحكاية ، وأستمع اليها من بين الدموع : «زي ما بيقولو . . موته ما كانت ع البال ولا ع الخاطر . . سعيد أخذ جمال ، ابن وحيد ابنه الكبير ، اللي عمره ست

سنين وراح يوصّله على المدرسة ، وبوصّل مرت ابنه ع السوق . كانو ماشيين والصبي في وسطهم ماسك في إيديهم ينط ومبسوط ، وما في الشي ابدا والدنيا رواق . لمّا وصلوا مدرسة عز الدين القسام ، بتتذكّرها يا بو فادي ، اللي كانت المدرسة الثانوية أيامكم ، وإلا رصاصة قايلة في صدر ابو وحيد ، انطلقت من برج المراقبة اللي فوق حي الأمل مطرح ما احنا ساكنين . وقع الزلمة ، وصارت المرة تصرّخ والصبي الله اعلم بحاله ، ولد زغير وشاف جده بتفعفل قدامه مثل الذبيحة ، الله يساعده ويساعد إمه ع هذيك اللحظة وهيك منظر . وركضو الناس ، وطلبو سيارة الإسعاف . بلا طول سيرة ، لمّا وصلت السيارة كان الله أعطاك عمره . . رحمة الله عليه . . كل المعاهنة وتصّ البلد مشي في جنازته . . كان الله يرحمو محبوب من الجميع . . ضحكاته وحكاياته اللي الناس ما بتملّش منها أبدا» .

كانت صدمتي بموت سعيد كبيرة ، وخسارتي له لا تعوّض . فقد كان جزءا عزيزا من ماض جئت ألتمه على عجل . احترقت قطعة من طفولتي وصباي على أبواب خان يونس .

حين بلغنا شارع جلال ، أول شوارع المدينة من مدخلها الشمالي ، كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة ، وبدأت نسمات المساء تهب علينا من نوافذ السيارة ، وأبو حاتم يذكّرني بالشوارع التي نمر بها ، فلا أتذكر سوى أسماء قديمة لشوارع لا ملامح لها . نفايات مكدسة على الجانبين ، وبشر من كل الأعمار يتدفقون زاحفين فيها على غير هدى .

وصلنا حي الأمل حيث يقيم ابن عمي . كتلة من بيوت صار أبنية سقطت هي الأخرى من السماء ، كما سقطت في جباليا وبيت لاهيا وصارتا بلدتين .

كان حي الأمل جزءا من شريط كثبان رملية صفراء ناعمة ، تمتد بموازاة الشريط الزراعي ، من غرب مدينة رفح جنوبا حتى مداخل مدينة

دير البلح شمالا ، في منتصف المسافة بين خان يونس وغزة ، تعزل المناطق الزراعية عن البحر ، باستثناء شريط زراعي صغير محاذ له تماما غرب خان يونس عرف بالمواصي ، يعتمد الري فيه على المياه الارتوازية . وقد تمّ تشجير المناطق الرملية الواقعة خلف المخيم مباشرة بأشجار الأكاسيا الظليلة ، لكي تمنع زحف الرمال على مخيم خان يونس ومدينتها .

اليوم زحف على المدينة من جهة الغرب ، شريط مستوطنات قطيف ، وصادر أراضيها واستولى على بحرها الذي كانت زرقته تلوّن أعيننا بالفرح ، حين كنا صغارا نصعد إلى ذرى الروابي ونمارس ألعابنا . حقا لو كانت غادة السمان هنا لغيرت عنوان روايتها الشهيرة ، وصرخنا معا : «لا بحر في خان يونس» وأعادت كتابتها بتفاصيل أخرى .

قبيل ظهر اليوم التالي ، لم يسألني أبو حاتم إن كنت نمت جيدا ليلة أمس . فقد سألني في الصباح قبل توجهه الى معمل الحياكة الذي يملكه ويديره بنفسه ، في الطابق الأرضي من العمارة الصغيرة ذات الطوابق الثلاثة التي بناها بعرق السنين ، بل سألني عما فعلته منذ الصباح . قلت له إنني ذهبت إلى المدينة أصبّح عليها وأتعرف على ملامحها الجديدة ، وإنني لم أجد خان يونس التي عرفتها . عبثا حاولت استخراج خان يونس من خانيونسيتها القديمة فلم أستطع . كانت ركاما دفن تحت المدينة الحالية . أحسست خلال تجوالي في شوارعها الرئيسية أنني أعرفها ، لكنني لم أكن قادرا على الإمساك بدليل واحد يؤكد تلك المعرفة . لا أثر لعمود كهرباء سهرت تحت ضوئه . ولا دكان باعتني سجائر ذات يوم ، أو مقهى لعبت فيه الورق مع أصدقاء ، ولا حتى مساحة من تراب وطأته قدماي ذات يوم . بالكاد راحت تتناثر أمام عينيّ ملامح مدفونة تحت ملامح المكان ، مثل صور قديمة بالأبيض والأسود ، مسحت السنين تفاصيلها .

وقفت تحملني ساقان ترتعشان بالغربة فوق ما كان بيتنا ، فلم أجد طفولتي . ولم أر ظلي يركض خلفي حينا وألحق به أحيانا ، فلا أطاوله ولا يطاولني حتى لا يتوقف اللعب ونفقد صداقتنا . لم أعثر على بصمة واحدة لقدمي . خنقت ذاكرتي الأرض الأسمنتية أسفلهما ، مثلما خنقت أنفاسي القديمة التي ما زالت أصواتها تبحث عني .

تجولت في شوارع اكتظت ببشر يزاحمون السيارات والعربات التي تجرها الحمير وسيارات الميليشيات المسلحة ، تقل مقنعين يراقبون المارة من ثقوب صغيرة في أقنعة رؤوسهم السود . شعرت بي وحيدا لا أعني أحدا ولا يعنيني أحد . وصلت إلى ما كان يعرف بمقهى منصور ، أكبر مقاهي المدينة وأجملها وسط الميدان العام ، فوجدت محلات تجارية تعج بالمتسوقين . تراءى لي أبي جالسا هناك على كرسي من الخيزران ، قرب طاولة ذات سطح رخامي ، عليها كوب من الشاي تطلّ من حوافه ورقات نباتية خضراء ، يتصاعد منه بخار له رائحة النعناع . سمعت أصوات طرق حجارة الدومينو على الطاولات الأخرى المجاورة ، وأعجبني رنينها . هنا قبل أكثر من خمسة وأربعين عاما ، في مكان ما كان يجلس أبي حين أسقطته عن كرسيه ، إشاعة سوداء انتهت بضربة قلب علنيّة مفاجئة لم تمهله حتى لشرب كأس الشاي الذي طلبه ومات» .

غيّرتني ذكرى أبي المفاجئة مثل رحيله كما غيرتني السنون . قررت أن أزور قبره . أنا الذي كره زيارة القبور العمر كله ، شعرت برغبة جارفة في القيام بذلك . حين كنت هنا ، لم أزره سوى مرتين : الأولى لتفقد شاهد قبره والاطمئنان إلى أنه لم يسقط ولم يزل في مكانه . والثانية تلبية لرغبة أمي صبيحة آخر يوم لي في المدينة قبل السفر .

اجتزت بوابة المقبرة التي لم يغلق عليها باب أصلا . وتابعت تقدمي باتجاه ما كان قبر أبي ، فلم أجد سوى بقايا حجارة فقدت أشكالها ، وحطام

شواهد تناثرت في المكان . قلبت بعضها بحثا عن اسم أبي فلم أعثر على حرف من حروفه .

غسلتني خيبة مرة . وشعرت للحظات أنني أضعت بقايا أبي ، الذي اعتقدت أن روحه لم تزل تطوف بالمكان . تلفت إلى يساري ، فوقع نظري على جذع شجرة قصير جاف ، ربما كان جذع شجرة الأكاسيا التي ظللت قبر أبي لسنوات ، ورفرفت عليها مناديل حريرية صغيرة مطرزة بالورد ، مناديل عشق غامض ذابت وتلاشت من دون أن تبيح بأسرارها لأحد .

أيقظ الجذع القصير في ذاكرتي السؤال القديم : هل كانت أمي تعلّق منديلا صغيرا على احد فروع الشجرة كلما زارت قبر أبي ، أم إن سوسن الغندور ، التي دارت شائعات حول عشقها لأبي ، هي من كان يعلقها؟ سألت نفسي وأنا أغادر المقبرة من دون وقفة قصيرة إلى جوار من كان أبي ، ومن دون إجابة للسؤال الذي توقف الجميع عن طرحه قبل عشرات السنين .

سألني أبو حاتم : «أين ذهبت بعد ذلك» . أخبرته أنني سلكت طريق سوق الحبوب القديم ، فوجدته على حاله . غمرني فرح محا ما تركته المقبرة في من مشاعر حزينة غامضة . وازداد فرحي عندما عرجت على سوق الحدادين المجاور . ووجدت دكاكينة التي أقيمت في العصر التركي على حالها ، لكنها كانت مغلقة بعوارضها الحديدية وأقفالها القديمة التي تراكم عليها الصدأ . صدقت هذه المرة أنني فعلا في خان يونس .

تابعت طريقي على هدى خارطة قديمة في الذاكرة . فوجدت نفسي بعد دقائق قليلة ، قبالة سينما الحرية الصيفية . على يميني يقف سعيد دهمان ، وعلى يساري فوزي عاشور نحملق ثلاثتنا مشدوهين ، في ملصق ضخم للراقصة المصرية نوال الصغيرة ، وقد احتل واجهة السينما فوق المدخل مباشرة . نبحث عن أسرار الراقصة في مفاتن

جسدها المعلنة . ونحلم أن تهب ريح عاتية تعفي الشريط الحريري الرفيع المتدل بين ساقيها من حراسة كنزها .

استوقفنا أحد الحراس ، وراح يصرخ ويدفع بنا وبآخرين إلى الخلف : «اللي معوش تذكرة ما رح يفوت . .اللي معوش تذكرة يرجع وراء» .

أخذنا نتدافع بين الشبان الذين احتشدوا على باب السينما يتصايحون ، بينما سد حارسان آخران الباب بجسدين بلدوزريين .

تراجعنا تدريجيا حتى هبطنا الدرجات القليلة التي تسبق البناء ، نزولا عند نهايتها مطرودين إلى رصيف الشارع العام . انتظرنا قرابة نصف ساعة إلى أن أنتهى دخول كل من ابتاع تذكرة .

تقدم سعيد ، الذي كان أشجعنا وأكثرنا جرأة ، من الحارس الذي بقي وحده بعدما ابتعد زميلاه عن الباب واختفيا في الداخل ، وقال له مازحا : «يعني بيهون عليك هالشباب الزغار مستقبل الأمة ما يتفرجوش ع الحفلة عشان مفلسين؟» .

ابتسم الشاب وأجاب : «انتو ازغار . . انتو الزناديق الثلاثة . بس رح ادخلكم . . واحد واحد ع السكيت وما تخلّو المدير اللي واقف لجوّة ينتبه» . وأشار بيده إلى جسد مكور مدور مثل بطيخ المواصي يقف غير بعيد عن المدخل . ثم عاد يقول : «خلّيكم جاهزين . . بعد ما تنتهي الوصلة الأولى» .

حين سمح الرجل لنا بالدخول ، تسللنا تباعا ، ومن حسن حظنا أن المدير ، الذي اطمأن إلى أن جيبه امتلأت بأثمان ما بيع من تذاكر ، لم يعد هناك .

تجمعنا إلى يمين الصالة لصق الحائط متجاورين . كانت نوال الصغيرة تهز ردفيها وتتمايل بدلال امرأة تسيطر على حشد من الرجال

يخضعون لسلطة جسدها طواعية ، بل واشتروا خضوعهم بثمن ، وفريد الأطرش يساندها بأغنيته «ما قال لي وقلت له . . ولا جاني ورحت له . . يا عوازل فلفلوا» . ويتفلفل الحاضرون وسط حلقة من الصراخ والتأوهات والتصفيق وصفير الإعجاب الطالع من حناجر أجساد رجال أذاب مشاعرهم كبت وراثي . رجال لم يروا اللحم معروضا على خشبة مسرح في حياتهم ، وربما لم يروه إلا في منامهم ، مع أن زوجات بعضهم تنام إلى جانبهم كل ليلة .

واصلت نوال أداءها المثير . هرب الشريط الحريري النازل من وسطها مرارا وتخلى عن حراسته ، فحرسنا كنزها بنظرات ست عيون مفجوعة . ولم يكف فوزي المولع بفريد الأطرش عن الصراخ : «آ يا فريد . . آه يا وحيد عصرك . . طز في عبد الحليم» ويصمت ، حتى ضربه سعيد على قفاه : «انت ما لك ومال عبد الحليم يا بجم»» . «طيب خلينا نتفرج» . وعاد يصرخ من جديد بلا اعتداء لفظي على حليم ، إلى أن لكزه شاب أكبر منا بكثير ، كان يقف إلى جوارنا في ظهره فصار بلا حنجرة .

صعد شاب أسمر خمري طويلا إلى المسرح . أخذ يهز جسده وقد أحاط كتفي الراقصة بذراعه . ضجت الصالة التي تمنى جميع من فيها أن يقتله ويأخذ مكانه . وجن جنون ثلاثتنا ونحن نرى أول سيقان عارية في حياتنا .

تلك الليلة لم أنم وأنا أمشي وسط «غابة من السيقان» . وكنت متأكدا أن سعيد وفوزي تجولا الليل كله في الغابة نفسها ، ولم يناما حتى بللا ثيابهما الداخلية مثلي .

وقفت قبالة الرجوة الغريبة أتأمل المبنى . قرأت بأعلى يافطة مستطيلة سوداء مثبتة على الجدار : «جمعية المرأة الفاضلة» . يجمعنا في هذه البلاد

ثمة زمن احتل زمنا . . وعصر محا ما سبقه وأحلّ عليه اللعنة» .

«هاي اللي شفته في خان يونس يا أبو حاتم .

ختمت بكلماتي المحبطة تلك إجابتي على أسئلة ابن عمي . لكنه عاد يفتحها بسؤال قال إنه الأخير : «واتذكرت اشي من خان يونس يا بو فادي؟»

«خان يونس اللي إجيت ادوّر عليها ما لقيتهاش يا ابن عم» .

صحوت يوم الجمعة على فجر فضي سلم نفسه سريعا لشمس دافئة تمهد لنهار جميل . أعدّ أبو حاتم كل ما يلزم للوليمة التي أصرّ عليها في آخر مكالمة لي معه وأنا في لندن قبل سفري بيومين ، وعاد وجددها في لقائنا الأول في «شقة العازب الأخير» في جباليا .

بعد صلاة الجمعة مباشرة ، بدأ شبان العائلة ورجالها بالتوافد . مدّت صينيات الرز واللحم ، وبدا مشهد آخر محمولا على إلفة لم آلفها من قبل . حشد يضم أكثر من مئة رجل من أعمار مختلفة ، أخذوا يلتهمون طعامهم ويتباطئون معي بضع كلمات تهنئة وتساؤلات وتعارف بعضه جديد ، وبعضه جددناه تحت الخيمة التي نصبت على السطح .

فجأة ، تذكّرت محمد سمورة ، ثالث الفاميد من أصدقائي القدامى : «هل يسعد محمد بلقائي فعلا . هل يتذكر العقيد محمد صورة الخياط التي كانت له ، وصورة الطالب الذي كان صديقه ذات يوم؟ . وما الذي أعنيه بالنسبة له بعد ثمانية وثلاثين عاما؟ بل ما الذي يعنيه هو بالنسبة لي الآن؟ وما الذي سيضيفه لقاؤه بعد كل ما رأيت ومن قابلت من البشر حتى الآن؟ ساعة ساعتان من نقاش عدمي يتجاذبه الدين تارة والسياسة تارة أخرى ، وقد تفوح منه روائح مناقشة أبو محمد وأبو خليل . محمد ضابط شرطة الآن . الخياط الذي لم يضبط في حياته

الهنية مؤخرة بنطال على مؤخرة صاحبه ، صار عقيدا في الشرطة يضبط الوضع العام . والشرطة أعليها لتحاوي ، ولا بد أنه تفتوح . سوف تسأله بحماسة عن الفساد ، وهو أحد حراسه الكثيرين ، سيهز رأسه ويقول لك إن هذا من اختصاص الأمن . وماذا عن اللصوص يا محمد؟ سيجيبك بأن شرطة السلطة تطاردهم وتعتقلهم منذ عام ١٩٩٣ ، (مع أنها جاءت بهم معها حين دخلت إلى الأراضي الفلسطينية .. ومن يومها والمطاردة مستمرة) .

لكني أحببت محمدا وعليّ أن أقابله . ثمانية وثلاثون عاما مضت ولم ير أحدنا الآخر . لن يصدق عندما نلتقي وسيهتف : معقول .. وليييييه رح ألقي القبض عليك وأحجزك ضيف عندي» . أضحك ، ونتعانق . ونعصر السنين التي مضت بين أحضاننا ونذيب مسافات الزمن بسخونة مشاعرنا .

انتحيت بأبي حاتم جانبا ، فسارع مجدي وانضم إلينا .

«وين العقيد محمد يا بو حاتم؟» .

سألني بدل أن يرد على سؤالي : «مين؟ انشا الله قصدك محمد سمورة؟» .

«نفسي اشوف ولو واحد من أصحابي القدامى» .

صمت ، وبدت عليه حيرة تشبه تلك التي هاجمته في السيارة عند مرتفعات القرارة حين سألته عن سعيد . هز رأسه في الاتجاهين بعد لحظات فأدخل الرعب الى قلبي .

ألححت عليه : «خير .. ابش فيه يا ابو حاتم مالك ساكت .. بدي اشوف محمد .. انت ما عزمتوش ع الغدا؟» .

«غدا مين يا بن عم . انت لا مؤاخذه عايش ابعيد في لندنا ، ومش عارف اشي وما دريان لا بحالنا ولا بحوالنا ... بيننا وبين عيلة سمورة

دم ... دم يا ابن عم .. واحد من عيلتهم قتل شاب من عيلتنا»

وتدخل مجدي شارحا ومفسرا : «العقيد إلو ابن عم ضابط في الأمن الوطني تلاسن مع زميله الضابط فؤاد دعمسان ، مع أنهم كانوا صحاب وزملا في العمل ، وتطورت الملاسنة بينهم .. سحب ابن سمورة مسدسه وأطلق النار على زميله وقتلو .. والعيلة مش راضية تاخذ العطوة وتصالح وتنسى الموضوع .. هذا دم يا بن عم مش ميّة» .

«عائلتنا تقتل ويُقتل منها .. أي عائلة حتى أتفقدها بعد هذه السنين» .

«وتك اياني يا ابو فادي أجيب محمد صاحبك وارميه وسط عيلة دعمسان عشان ياكلوه . أصلا هوّ نفسه ما برضاش يجي» .

أدركت في تلك اللحظة أننا من عالمين مختلفين ، وأن قرية كبرت خمسين عاما إلى الوراء ، وأن لا فائدة من تقليب الدفاتر القديمة .

وافقت ابا حاتم على طي الموضوع ، وابتلعت في أقل من أسبوع واحد ، صدمتي الكبيرة الثانية بعد صدمتي بقتل سعيد برصاصة طائشة .

الفصل الخامس والعشرون

مساء اليوم الثالث لزيارتي الثانية لخان يونس ، حل صدام حسين علينا . من دعاه أو استدعاه ، لا أدري . ربما كان أبو فاروق ، الذي قدمه لي أبو حاتم قبل وليمة الخاروف وامتلاء البطون ، بأنه صديقه الصيدلي . وربما كان شخص آخر لم أتبينه لحظتها ، بين أكثر من ثلاثين شخصاً ما بين أقارب وأصدقاء للعائلة ، جاؤوا لتمضية السهرة معنا ، فقد سمعت فعلاً من أتى على سيرة صدام حسين ، بل وقال إنه «زينة رجال العرب» ، من دون أن يستشير أحداً في وصفه ذاك .

همست لي ، وأنا أشغل المسجل الديجيتال الصغير الذي أخفيته في جيبي ، ولم يظهر منه سوى مشبك ذهبي أقرب إلى مشبك قلم حبر غالي الثمن ، «ولعت ورح تحلوّ» . ولم أكد أنتهي من همسي حتى أشعلها رد انطلق من صدر الصالة حيث أجلس ، قال صاحبه : «والله ما خرب بيتنا إلا أبو عدي بتاعك يا أبو فاروق» .

«الصيدلي إذن» . همست ، والتفت إلى حيث كان يجلس أنتظر ردّه على هذا الاتهام .

من بين كركرة الأراغيل ونحنحة الرجال وهمساتهم ، قال أبو فاروق : «غصباً عنّك زلة ولا كل الزلام . . خيرة رجال العرب . . والله شو شايف يا أبو فادي . . انت صحافي وبتعرف أكثر منا» . والتفت إليّ فاذفاً الجمرة لتيمة في ملعبي .

صعد في الهواء دخان كركرة نفثه ، وأجبته بحياد أكثر لؤما مغلفا ملعبي بمهارة : «انا جاي اسمع منكم يا ابو فاروق» .

وتركت لمسجل الصوت الصغير ، الذي لا صوت له ، مهمة تسجيل حديث أمسية لا يختلف عن حديث أمسياتي الأولى في جباليا ، حين تناوب أبو أحمد وأبو خليل على إدارة حوار غرائبي تحدّى بث أمي واخترقه عشرات المرات .

«على إيش يا خوي يا بو فاروق . .على أكمّن صاروخ رماهن ع إسرائيل ، ورمانا ورمى العراق والمنطقة كلها في داهية؟» .

«ومين ساعدكم في بداية الانتفاضة يا أستاذ شاكر؟»

«قصدك مين اشترى الناس ليحملو صوره ويسودو سمعتنا في العالم كله . . اللي بيتصاوب بطلقة رصاص مطاطي خمسين دولار . اللي اتصاوب برصاص حي ميّة . اللي بيستشهد بيدفعو لأهله بين الفين وأربع آلاف دولار . . المهم الناس تموت تتصاوب مش مهم . . المصاري جاهزة . . وايش استفدنا من الموت والجروح والعجزة اللي إمليين القطاع؟ صرفو المصاري وظلت العاهات والعطالة . . والا إيش يا بو حاتم انت زلمة ع الحياد» .

«دشرونا من صدام وسيرته . . بلا صدام بلا سخام . اسمعو لحكيلكم شو صار معي لمّا ارجعت مرة بعد نص الليل من تل ابيب . .»

«ما تغيّرش الموضوع يا بو حاتم» .

«اسمع يا مجدي يا حبيبي . . ما إحنا كل يوم بنحكي بصدام ولطام . . اسمع بس . . هذا حصل معي في الانتفاضة الأولى يا ابو فادي يا ابن عم . اوصلت معبر بيت حانون تقريبا الساعة واحدة بعد نص الليل . طلع حظي مع مجندة يهودية هندية ، مثل اللي في فيلم سنغام بتاع زمان لما كان فيه سينمات في غزة . . الله يرحم هاذيك ليّام ، لما كنا نشرد م

المدرسة ونروح ع السينمات في غزة . المهم ، حطّت المجندة بطاقتي لَفتطة في الكمبيوتر ، صارت الشاشة سودا . . قلت خلص رح ابات ليلتي في المعبر . . باينّو الكمبيوتر المركزي سكّر وظلّ يعطي معلومات . وبعدين سألتني معاك تصريح؟ . قلت الها آه شرفي هاي التصريح . ما فهمتش عليّ . . قلت الها نادي الزابط بتاعك . . الا هو جاي بيألتف وبينفنف : أنففففففففف . . فن فن فن . . وين يا حبيبي كاين؟ . قلت له كنت في تل ابيب ، سهران في فرح صديق وحاجة زي كده . قال لي استنى شوية . ضرب ع الكمبيوتر شاف حاجة عرف منها إنّي انا نظيف ، خليته بيبعبش في الكمبيوتر واتصلت بالخواجة شاؤول اللي كنت في بيته . في الأول فزع ، بعدين سألني كأنه نص نايم : ايفو انا ابو حاتم . . وين انت . ايش بتعمل في هالوقت؟ . قلت له في المعبر ومش راضيين يدخلوني . قال اعطيني الضابط . اعطيت التليفون للضابط وحكى معو ، وظلو يضحكو اللاعين أكثر من خمس دقايق . بعدين قال الضابط للهندية : خليه يعبر . . يا جماعة انا عشت مع الخواجة شاؤول زي لصحاب وأكثر ، وتعاملنا مع بعض ستين كثيرة ١٥ سنة يمكن . . آه اشتغلت انا وياه . . عشنا سوا الانتفاضة الأولى ، وأول ما تأسست السلطة ، وبعدين انعرضنا للبهدلة انا وياه ، ومرة انحبسنا . . حجز يعني . . مش سجن عن جد . . آه الجيش حجزنا . . عشان الضرايب وما الضرايب ، او يعني بيني وبينكم البهدلنا مع بعض كثير واربحنا كثير . اشتغلنا وكان يجيني ع رفح ، لما كان معمل الخياطة هناك ، وكان يجيني ع خان يونس وعلى معبر بيت حانون لما يصير عليّ خطورة يعني . ومرّة اولاد الحارة طبّشو عليه حجار في الانتفاضة الاولى . . يعني في علاقة يعني . .كبر الزلمة هالقيت وصار اختيار بس هو . . (هات نارة يا ابو النون) . . هالقيت يمكن عمره سبعين سنة» .

أحضر نبيل ، ابن ابي حاتم البالغ من العمر تسع سنوات ، والذي يناديه بأبي النون لشبهه بنبيل كلينتون ، مصفاة الفحم ، وأخذ يوزع فحما على الاراغيل .

التقط الشاب حسن دهمان ، الذي يعمل حائكا في معمل في المستوطنة القريبة من خان يونس ، الخيط وراح يغزل على نول العلاقات الثنائية : «يا عمي كانو اليهود في الانتفاضة الأولى ، ييجو هانه لعنّا ويحضرو أفراحنا هم واولادهم ، ويباركوا لأهل العريس والعروس . . آه ويحضرُو العرس ويرقصو معانا عادي كأنه ما في اشي بينا وبينهم» .

«ولله ما خربها إلا الانتفاضة الثانية . . موت وطخ وحزامات ناسفة نسفت عيشتنا كلها يا حسن» .

«عارف . . هوّلو ما صارتش الانتفاضة الاولى ، وظلينا ع شعار زمان دولة علمانية ديمقراطية يمكن كانو اندمجو الشعبين مع بعض لأنو كتير فلسطينية اتجوزو يهوديات من عرب اسرائيل وأخدو الهوية والجنسية» .

«والله انك بتحلم يا ابو حاتم . . التجارة وشاؤول أخذو عقلك وشقلبوه» .

«بالعكس الانتفاضة الاولى انعشت اليسار الإسرائيلي يا ابو جلال» .

«الانتفاضة الأولى هي اللي سرعت في الحل؟! . طيب ما هي عشان هيك خربت ديارنا جابت النا اوسلو اللي جابت إلنا السلطة . . روح شوف البلد السلطة عبّتها فساد وتشبيح ، وبعدين خربت وخلّت لنا الاحتلال» .

«هذيك لانتفاضة يا سعيد كانت جماهيرية ، حتى الكلاب فهمت واجباتها وشاركت فيها . . مين فيكم بتذكّر كلب ابو خالد في الانتفاضة الاولى؟» .

سأل أحدهم . ولما لم يتلق إلا الصمت ، تابع يقول : «أكيد مش

سامعين عنه . اني اسمعت قصته من ناس في مخيم لبريج . . اسمعو . .

«هات لنشوف يا جمعة» .

قاطعته أصوات عدة مرحبة بالحكاية ، فانطلق يروي : «في يوم كان الحاكم العسكري في مخيم البريج بيتجول بسيارته الجيب العسكرية . وقّفها فجأة ونزل منها . لقه كلب أبو خالد الجرجاوي اللي كان مسمّيه بوبي ، وعوّا عليه . صاروا ولاد الحارة يشجعوه ويسقفو ويصّرخو : عضّه يا بوبي ، ولك كله . . إعِيشه يا بوبي وانهش لحمه . . الحمّس الكلب وصار اعوّي اكثر . وبعدين ما شافو بوبي الا راكض مثل الريح ناحية الحاكم وناطط عليه مثل النمر وهَبشه من ايده . الحاكم اللي تفاجأ بالكلب سحب مسدسه وطخ على بوبي ، الا هو قاعد المسكين يتفعفل في دمه . ركب الحاكم السيارة وطارت فيه . ركضو لولاد وسحبوا بوبي ، والله يا جماعة الخير سحبوه كأنهم ساحبين شهيد من أرض المعركة . طبعا مش قاوم اليهود . حتى لولاد قالو هذا شهيد سقط وهوّ بيقاوم ويدافع عن ارض المخيم .

سحبوه وتراجعو وهمّ بيهتفوا ويصرخو ودموعهم في عينيهم . . بالروح بالدم . . نفديك يا بوبي . . بالروح بالدم . . . كانو يحبوه للكلب ويلاعبوه ويطعموه دائما . بلا طول سيرة . .حفرو للكلب قبر في الحارة ودفنوه . . كان أول كلب يستشهد» .

«أني القصة اسمعتها يا جمعة بس بدّيش افسّد عليك . بصراحة كان كلب ولا كل لكلاب ، شهم وأحسن من ميت زلة . . بيكفّي انو عرف اليهودي وعرف انو غريب مش م المخيم وهجم عليه وعضه . . آه والله ظليت شهر زعلان عليه» .

«يا سيدي الله يرحمو ويحسن لكل كلاب المخيم . . فكرك بتنسحب إسرائيل من غزة يا بو فادي؟» .

«نعم يا بو فاروق . . بدها تنسحب . . شارون تعبان من غزة زي اللي سبقوه . بدّو يخلص منها مش لسواد عيون أهلها ، بس ليرميها محاصرة في وجوه الجميع ، ويخلّي المفاتيح في جيبه . . مفتاح معبر ايريز يا بو فاروق . .بيفتح وقت ما بدّو وبيسكر وقت ما بدو» .

«الله أكبر . . يعني لا احتلال نافع ولا انسحاب نافع . ايش هالمصيبة» .

وإذ تذكرت سليم أبو شنب ، الصحافي الذي تعرفت إليه ذات يوم في زيارة لي لتونس ، أخذت أستعيد ما رواه لي حين زرته في مكتبه بوزارة الإعلام حيث يعمل ، قبل ثلاثة أيام . يومها تحدثنا كثيرا وتناقشنا في الوضع الراهن وحلّلناه حتى أذبناه بين ألسنتنا . سألته وقتها ، عن عودة الروح العشائرية إلى قطاع غزة بعد سنوات طويلة من الغياب ، حتى وصلت إلى عقول المثقفين وأغرقتهم فيها . قال لي بعد أن اعتدل في كرسيه ومج نفسا عميقا من سيجارته : «يا سيدي المسألة قاعدتها بسيطة ، إذا ما إلك ظهر وسند بياكلوك وبتضيع . شوف اني قديش بكتب في الصحف وبطلع ع التلفزيونات . شخصيا اختلفت مع السلطة ومع حماس وما حدن قرب صوبي ، لأن كل طرف قبل ما يفكّر بتذيك بيحسب انت مين وإبن مين ، ومين واقف وراك : عيلتك والّلا السلطة ، والّلا الك حدن في الامن صاحب أو من عشيرتك . . الى آخره . اسمع أحكي لك هالحكاية اللي بتلخّص لك كل إشي : كان فيه إمام جامع من حماس بيسمّوه ابو السبحات من كتُر ما بيغير سبح ، متسلّط عليّ . نعم متسلّط عليّ أنا . كل جمعة ما إلو شغلة ولا عملة الا محسوبك . ما فيه صلاة جمعة بيخطب فيها ، إلا بيسب على الكافر الزنديق الصحافي أبو مهنّد ، يعني أنا . يوم م الأيام كان ابن عمي بسّام ، زلمه جدع وهمشري يعجبك ، بيصلي الجمعة وراء الشيخ أبو السبحات وسمعو كالعادة بيهاجمني وصوته

واصل لآخر مخيم رفح . استنّاه بسّام بعد الصلاة وراح لعنده دوغري . قالّو يعطيك العافية يا شيخ . رد الشيخ بوقاره المعتاد : الله يعافيك . . مرحبا بك يا أخي العزيز . فكّرو جاي يهنيه ويشكره ع الخطبة العظيمة . ابن عمي قال له : «ابتعرف مين هذا الزنديق سليم ابو شنب؟» .

جاوبه أبو السبحات وهوّ بيمشّط ذقنه بالطول من فوق لتحت : «لا . . لا تجيب لي سيرة هذا الكافر لعنة الله عليه» .

«اسمع يا شيخنا يا بركه» . ورفع ابن عمي راسه وصرّخ فيه بصوت طلّع الشرر من عينه : «هذا الكافر المارق الزنديق زي ما بتقول ، بيقى ابن عمي . ابن بيت ابو شنب . عرفت مين يا شيخ والّلا أعيد عليك اسمه؟ . . بيت أبو شنب . . احفظ الاسم منيح . . إذا ثاني مرة بتجيب سيرتو على لسانك أو بتسب عليه رح أنتف لحيتك ، وأمزع رقبتك انشا الله في نص الجامع ولو كان وراك عشرين شيخ وميت تنظيم مسلّح» .

«سليم ابو شنب بيكون ابن عمك؟» . سأله الشيخ اللي تفاجأ وصار زي صرصور وقع في اللبّه . طبعا ، ما توقّعش حدن يحكي معه بهاللهجة . بنى أخينا مجده وبطولته على حساب سمعتي . لبس ثوب الواعظ والخليفة ، وبنى ملكاً لنفسه في مسجد لمّ حواليه أتباع وازلام . صاروا كل جمعة ، يستمتعو برجم إبليس الصحافة زي ما كان يسميني . . شيطان العلمانيين الكفرة . هلقيت ، أجاه مين يحاسبه ويربّيه . صار صاحبنا يرجف ، ولحيته تهفهف زي الكنسه الناعمة ، ويدوّر عن مبررات : «ايش قلت يا شيخ؟» . رجع ابن عمي يذكّره بعواقب فعلته إن استمر فيها . ورد عليه الشيخ ولسانه بيرجف وبيتأتئ وهوّ بيحلف أغلظ الأيمان : «تالله ثم تالله ثم والله ، لو كنت أعرف ان سليم ابن عمك للعنته في قلبي واكتفيت بأضعف الإيمان» .

«لا في قلبك ولا على لسانك . . اسمعت يا شيخ والّلا ادفنك في

الرمل أهب رجليك؟»،.

ومن بعدها يا سيدي، صار الشيخ كل ما شاف ابن عمي يسلم يسأله: «وكيف حال أستاذنا سليم، عفوا... أبا مهنّد... أرجوك أن تنقل له سلاماتي وتقديري له؟».

وأطلقت ضحكا عفويا سمعه أبو حاتم وسألني: «خير يا أبو فادي.. شايفك بتضحك.. كأنه ما عجبك النقاش؟»

قلت: «.. كل واحد حر في رأيه يا ابن عمي».

وأغلقنا السهرة قرابة العاشرة مساء، وأطلقت مسجلي على أحاديث تكفي لملء عشرات الصفحات.

الفصل السادس والعشرون

اصطحبني أبو حاتم في جولة داخل غزة، كي ألتقي صديقي القديم محمد خديجة. في الطريق حكيت له حكاية عادل الشيتي مجددا. كنت أظن أنني انتهيت منها وسلمت جميع مفاتيحها لأصحابها، لكنني كنت مخطئا، إذ وجدتني أعيد طرح أسئلة لم أحصل على إجابات لها. هل فتحت ليلى لعادل قلبا صدئت مفاتيحه مع السنين؟، أم أبقته بعيدا ولم تحاول حتى الاقتراب منه راقصة عودة محفوفة بالمغامرة والتحدي التقاليد؟. أم تراجع هو عن مشروع الكشف عينيه وهو الذي حمله سنوات طويلة أعقبت طلاقه من زوجته الألمانية؟. لعله فعل ما فعله حين بعث لي برسالته الالكترونية، أن يستخدمني كوسيط عابر، ما أن أوصله إلى غايته حتى تنتهي وساطتي وتأخذني معها.

بدا لي عادل لئيما، وقد استغلني في تلك اللقاء. فقدمت له كل المفاتيح إلى إقفال غرفة قديمة في قلبه، وهيأت له سبل استراحة يقضي فيها بقية العمر. تسببني عادل حتى الآن على الأقل. لابد أنه التقى ليلى بطريقة ما... لو لم يكن ذلك حصل فعلا، لما توقف هاتفي الجوال عن الرنين، ولطلب مني استئناف البحث عن ليلى. كما تستأنف المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية التي تتعثر وتسقط على ركبتيها، وما إن تستأنف سيرها حتى تسقط ثانية، ونفرح معتقدين بأنها لم تزل على قيد الحياة.

لكن لم أزعج نفسي بعادل وليلى؟ . يقولون عندنا «من لقي احبابه نسي اصحابه» . ونحن لسنا صاحبين على أية حال . بل تعارفنا من أجل البحث عن ليلى ، وابتعدنا حين تعارفنا .

أحببت عادل البشيتي في الرواية أكثر منه في الحقيقة . البطل الذي كان اكثر صدقا من الحقيقة . لكن أي فائدة ترجى من مصداقيته وقد خرج من النص أصلا ، وتماهى مع عادله الواقعي ، منذ جلسنا ثلاثتنا في مقهى فندق الأتلس ، نتبادل المعلومات عن ليلى ونرسم خطة الوصول إليها ، وصول عادل بمفرديه ، وبنسختيه اللتين صارتا نسخة واحدة تمردتا عليّ .

أحزنني أن ينتهي دور بطلي بهذه الطريقة . افتقدت عادل البشيتي الذي قادتني خطاه عبر الحقيقة وعبر الظلال ، في الواقع كما في الخيال ، وتتبعتها إلى هنا .

أوقف أبو حاتم السيارة إلى جانب الرصيف وترجل منها . وتبعته على عجل وبيدي اثال نفره تيتي الذي احتفظت به ثمانية وثلاثين عاما .

أشار أبو حاتم إلى رجل يجلس القرفصاء على الأرض فوق قطعة من حصير بالية ، وقد تكوّر حول نفسه ، تحت سور ما كان مستشفى تل الزهور ، وإلى جانبه تمددت عصا طويلة .

تقدمت نحو الرجل بخطوات مترددة ، وقلب يرتجف بصمت . وحين أصبحت أمامه مباشرة ، أخذت أتأمل بقايا من كان أعز أصدقائي في يوم من الأيام ، وصار هذا الشحاذ الذي يبقي يداه لساعات طويلة معلقة في الهواء تتلقط ما يسقط من أكفّ المارة . «جئتك بنفره تيتي يا محمد .. أتذكُر لوحتك الشهيرة التي رسمتها بدهان من هواء وظلت في صالة عرض أبدية مفتوحة في الذاكرة لا تمحوها السنين؟ . من

حولك إلى شحاذ يلم الشيقلات بكف كانت لفنان عظيم؟ من جعلك رغبة مفتوحة على الذلّ وعبارات الاسترحام وطلب الصدقة من غريب؟» .

فكّرت في الانسحاب . أغمضت عينيّ لبرهة . لا أقوى على مواصلة النظر إلى محمد في صورته الجديدة . هذه نسخة مشوّهة لصديق أثار بقلبه طريق صداقتنا أيام الصبا . يا إلهي ماذا أفعل؟ . ظل أبو حاتم ينتظرني صامتا على بعد خطوات ، وقد أدرت له ظهري وعيناي منشغلتان بدمع ساخن لا يراه ، تتأملان الرجل الذي كان أجمل مقطوعة للصداقة عزفناها معا حين كنا صبيين .

وبدلا من أن أستدير وأمضي ، وجدتني ألقي بالتحية على محمد ، الذي ردّ عليّ بأحسن منها . مددت يدي في جيبي وأخرجت ورقتين فئة المئة دولار ، وضعتهما في كفّه اليمنى ولمت أصابعه حولهما وجعلته يقبض عليهما ، ودفعت يده إلى صدره قائلا من بين الدموع : «هاتول ميتين دولار يا أخي الكريم ، وانشا الله بيصلك مني خمسين دولار كل شهر هذا تعـ . . .»

قاطعني الرجل قائلا : «ياخوي أنا زلة كبير وعيب تتمسخر عليّ ، روح الله يسهّل لك» .

«أنا يا خوي ما بمزح . . هذول فعلا ميتين دولار ، إمسك ايدك عليهن منيح» .

رفع رأسه الى أعلى ، أماله جهة اليمين ثم جهة اليسار ، تماما كما كان يفعل من زمان ، حين يرغب في التأكد من شخص محدثه الذي لا يراه ، وضحك معقبا : «منك لله يا زلة ، في واحد بيعطي واحد ميتين دولار هالايام ، حتى لو كان أبوه والا أخوه ابن امه وأبوه؟» ، طب بلاش ميتين . . يا سيدي مية بتكفّي ، والله أقول لك مية شاقل أرخص وأقل . . خذ

ورقتينك والله يسهل طريقك يا ابن الحلال» .

مدّ يده نحوي بينما كانت أصابعه تتحسس الورقتين .

«حسنة لله ، الهلعاجز الغلبان بينوبك أجر عند الله» .

«يا محمد أنا بضحككش عليك . والله العظيم اللي في ايدك ميتين دولار» .

«وعارف اسمي كمان؟» .

« طبعا يا محمد ريان» .

تحسس الأرض إلى يساره بعصبية بحثا عن عصاه ، بينما لم تزل الورقتان معلّقتين بين أصابع يده الأخرى ، وحاول النهوض متكئا عليها وقد بدا عليه توتر عميق . أمسكت به من كتفيه وطلبت منه البقاء جالسا . عاد إلى وضعه الأول وهو يقول : «مين في غزة بيعرف محمد ريان؟ محمد ريان راح من زمان . اللي قدامك الشحاذ أبو صابر . . أشهر شحاد في قطاع غزة ، اسأل عني من معبر بيت حانون لمعبر رفح ، كلهم رح يدلوك عليّ ، والله لو سألت الحواجز الإسرائيلية لتدلك عليّ . وقالولك روح بتلاقيه قاعد تحت بلدية غزة . تقصف اسرائيل غزة ، فتح تشتبك مع بعضها ، واللا مع حماس . . تهجم عيلة غزاوية على عيلة ثانية ، أخوك أبو صابر ما بيتزحزح من مطرحه من تحت تلة البلدية إلا لمّا يقرر يسكّر دكان الرزق المفتوح على باب الله» .

«بلدية غزة كانت مستشفى تل الزهور يا محمد . . يا محمد خديجة» .

«انت مين يا ابن الحلال . . انت مش من هان ، اللي بيعرفو اسمي بتاع زمان راحو . . انت مين . .؟» .

وددت لو أضع التمثال بين يديه ، وأترك أصابعه تتلمسه وتتعرف عليّ في تفاصيله ، تذكّره بلوحته القديمة . خفت من نفره تبني عليه . أن

تهمس الملكة الفرعونية ، (التي لاتعرف سرّنا) ، في أذنيه بكلمات تزق دواخله : «وليد عرف كل شيء يا محمد» .

تراجعت سريعا ، وقررت ترك محمد لشكوكه الغائمة ، فهي أفضل من الحقيقة أحيانا ، تترك لنا خيارا يتقلب على جانبيه ، سرعان ما نملّ منه ونعود إلى طبيعتنا .

شددت على يديه الاثنتين واستدرت مودعا : «مع السلامة يا محمد يا صاحبي ، أول الشهر بيصلك خمسين دولار ، بس الله يخليك ، تنسى محمد الشحاد ، وترجع زي ما كنت محمد خديجة بتاع زمان . وأول ما ترجع رح يجيك مين يخبرك أنا مين» .

وابتعدت وما زال التمثال معلقا في يدي . وقبل أن أفتح باب السيارة وأتخذ مقعدي إلى جوار أبو حاتم الذي سبقني وجلس خلف مقودها ، التفتُّ خلفي فرأيت محمد واقفا على قدمية مستندا على عصاه .

أدار أبو حاتم محرك السيارة . أدرك محمد من الصوت أنني أوشك على الرحيل . أخذ يلوّح بعصاه في الهواء ويصرخ بصوت يقطع نياط القلب ، بينما السيارة تمضي بعيدا عنه : «إنت مين يا غريب ومش غريب . . انت مين يا ابن الحلاااااااااااال . . .»

مددت ذراعي عبر نافذة السيارة ، وطوّحت بها في الهواء ، وقذفت بالتمثال بعيدا من فوق هضبة تل الزهور ، باتجاه سوق فراس النائم تحت بطنها ، ولا بد أنه تدحرج في مكان ما عند أقدامها .

سألني ابو حاتم : «ليش ما عرّفت ابو صابر ع حالك يا ابن عم . . كسرت قلبه وقلبي معاه؟» .

«ما اقدرتش يا أبو حاتم . . وأحسن إلو ما يعرف اني شفته في الوضع اللي شفته فيه» .

التفت إليّ ابو حاتم ، وقال كمن يتخلّص من عتب ثقيل : «باقي من

أصحابك واحد يا وليد . . محمد المصرية . قبل ما تسألني عنّه رح أقول لك الصراحة . أني من عشرين سنة لا شفته ولا سمعت عنه خبر . . يا بن عم ، الدنيا تبعثرت والناس تغيّرت وكل واحد صار يدوّر ع راسه» .

ومضت بنا السيارة تقطع الطريق باتجاه جباليا .

الفصل السابع والعشرون

غادر أبو حاتم وولداه ناصر وسليم وزوجته آمنة الشقة ، وكانوا آخر المودعين . أخذوا حزنهم معهم وبعض دمع فراقنا وهبطوا درجات سلم العمارة . وبقيت أنا لدقائق ، أتابعهم بنظراتي ، اتأمل قبضاتهم تزحف هابطة على درابزين السلام ، ووقع أقدامهم يبتعد عن أذني حتى اختفى تماما ، بينما صوت إغلاق الباب الخارجي يعلن انتهاء لحظة الوداع ، وينغلق على مرحلة كاملة عشتها بينهم ، ينتظر الصباح كي يفتح لي ثانية من أجل الرحيل .

استدرت عائدا إلى الشقة ، أحمل في عيني دمعا علنيًا في لحظة فراق لا أحد يحبس فيها الدموع .

بقينا في الشقة أمي وأنا وآمال وعماد وابنته نسرين وشقيقها الأصغر نصر ، وشفيق ، العازب الأخير الذي بشّرني بقراره عزمه على طلاق عزوبيته قريبا ، وكاد لسان أمي ينفلت لحظتها بزغرودة مثل البشارة ، لو لم تستدرك وتغلق فمها عليها بأسى ما زال يفرض شروطه على أي فرح منذ استشهاد شقيقه فلاح .

تمنّيت لشفيق زواجا سعيدا ، وقلت له إن الشقة ستفتقد اسمها القديم ، أما هو فسيربح لقب «العريس الجديد» إلى أن يرزق بمولود ويصبح «أبو فلان» ، فضحك .

قامت آمال التي ظلت طيلة الأيام التي قضيتها في جباليا ، الساهرة

الشطة على وجبات طعامنا كأنها أمنا الصغيرة ، وجلست قبالتي وأطلت تتأملني بعمق ، كأنها تجمع عن ملامحي اليوم صور حبًّا لي في ليلة الوداع . أما حماد فقد ظل صامتا ، ينقل نظراته بيني وبين أمي ، التي شلّ لسانها ولم يعد بحاجة إلى جهاز حماد للتحكم به من بعد ، وصارت هي بحاجة لمن يواسيها في آخر ليلة تقضيها مع ابنها الذي سيعود لإكمال غربته بعيدا عنها .

أخلت آمال نسرين الصغيرة ، صاحبة اللسان الذي يتفوق على ضيوف برنامج «الاتجاه المعاكس» ، ودهشت لانحباس لسانها الذي يحتاج إلى شريحة وجهاز تحكم أكثر من حاجة أمي إليهما .

كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلا ، ولم يزل كل ما يحدق في صمته ، يسأله عن كلام يمكن أن يقال فلا يجد ما يقول . وانشغلت أنا بأبي حاتم ومن معه ، قدّرت أن يكونوا قد قطعوا حتى الآن ، مسافة لا بأس بها في طريق عودتهم إلى خان يونس . أقلقتني حقيقة اضطرارهم للمرور عبر حاجز محفوظة (المطاحن) الإسرائيلي ، الذي يقطع قطاع غزة من الوسط ، والليل الذي يتوتر من تلقاء نفسه فيزداد معه قلقي أنا بالسفر ومتاعبه .

هذه هي ليلتي الأخيرة في قطاع غزة ، نهاية رحلة استمرت واحدا وعشرين يوما ، ألملم فيها المشاعر والحكايات التي صارت مثل ظلال جمعتها في ألبوم خاص ، تاركا عادل الشيتي يتابع بطريقه مصيره وليلى دهدلاة ، بعد أن زودته بأحزمة أمان كافية من أقارب بساعدونه ومعلومات لا تخطئ ليلاه قط .

سأترك أبطالي الآخرين يرسمون نهاياتهم بأنفسهم ، سأدعهم جميعا يتمردون عليّ كل بطريقته ، يرسم كل منهم شكلا لأيامه المقبلة بعيدا عن سلطتي كراو ، ويتحمل بنفسه مسؤولية ما يرسمه أمام القارئ .

توقفت ليلة أمس ، أمام حدثين أخيرين في علاقتي بتلك الشخصيات ، وبالذات الثلاثي دانا وأرنة وعادل الشيتي . فقد بعثت أرنة لعادل الشيتي برسالة إلكترونية تخبره فيها بأنها تفكر في السفر إلى فرانكفورت في وقت قريب ، وأنها سوف تخبره بذلك في حينه ، وتركت له رقم هاتف جوال ، تمنت عليه الاتصال به هناك بعد وصولها .

ومن مسافة غير بعيدة عن نص الرواية ، قريبة من رسالة أرنة ، تلقيت على بريدي الإلكتروني ، رسالة من دانا ، تقول فيها إنها اضطرت للسفر إلى لندن بصورة مفاجئة ، وإنها تحمل لي أخبارا ومعلومات مثيرة ، وهي تفكر في نشرها في صحيفة عربية . وفي حال قررت ذلك ، فستقدم لي كل ما لديها من معلومات وتفوضني نشرها . وفي ختام رسالتها ، طلبت مني الاتصال بها في لندن حال عودتي .

قدّرت أن تكون دانا مقدمة على خطوة كبيرة فعلا . ما هي طبيعتها؟ . لماذا تخبرني أنا بالذات بذلك؟ . وما علاقة ذلك كله بيكائها المفاجئ في الطائرة؟ . هل كانت تخفي سرا كبيرا لا يمكن البوح به لغريب جلس إلى جانبها وحان موعد إطلاقه على الملأ من خلالي ، أنشره في أكبر صحيفة عربية ، مكافئة لي على تعاطفي معها في حزن لا أعرف أسبابه أو مسببه؟ .

كتبت لدانا :

«حسنا سأهاتفك ونلتقي . . إذا كان ما ستخبرينني به سبقا صحافيا وخبطة إعلامية كبرى حقًّا ، فأرجو أن تحتفظي به لي وحدي . سأعتبر تلك وعدا منك . غدا أصل إلى لندن ، وأهاتفك من هناك . . إلى اللقاء» .

دوّى صوت انفجار ضخم مفاجئ في المنطقة ، اهتزت له الأرض تحت مؤخراتنا . تبعته أصوات تحليق طائرات مروحية بعيدة وطلقات رصاص متقطعة . قفزت من مكاني ووقفت بالشباك أبحث عن مشهد لما يجري .

صرخت أمي بي حتى أعادني صوتها إلى مكاني إلى جانبها كأنني لم أقفز قبل لحظات : «اقعد يه الله يرظى عليك لتصيبك رصاصة طايشة . بكره سفرك خليك ترجع لعيلتك بالسلامة» .

جلست القرفصاء التي تعوّدت عليها من كثرة الجلوس مرتبكا . اشتاقت مؤخرتي للمسة كرسي ولو كان بلاستيكيا بلا وسادة تطرّي صلابته ، كتلك التي جلسنا عليها في بيت أبي حاتم يوم الوليمة . أمي خافت عليّ من رصاصة طائشة . معها حق ، زرعت الأيام العشرون الماضية في قلبي الرعب من رصاصة طائشة . موت مجاني يأتيني بلا موعد . فقدت سعيد دهمان ، أعز أصدقاء طفولتي وصباي وشبابي الأول برصاصة طائشة . مات زوج ليلى دهمان الأولى برصاصة طائشة . مات زوج ليلى دهمان الثانية برصاصة مماثلة . كأن الحياة في قطاع غزة مرحلة طائشة ، يضع نهايتها موت متجوّل يختار ضحاياه بالصدفة . وموت مخطط له يذهب اليه الراغبون فيه بإرادتهم . وموت عشوائي تقرره العلاقات بين الميليشيات المسلحة . وموت طبيعي لا يعرف ضحاياه موعده القدري بالضرورة . وموت مجاني يقرره العبث أحيانا . مليون ونصف المليون فلسطيني يتزاحمون على العيش الطارئ في حياة طارئة . يعيشون من أجل الموت الذي مضى والموت الذي سيأتي . فهمت لماذا تحجب كل شيء في هذه البقعة من العالم ، ولم أسمع من يتحدث عن السعادة أو عن حياة مستقبلية ، سوى العازب الأخير الذي يخطط للزواج وسط هذه المقبرة الجماعية ، لكي ينجب أطفالا كثيرين ينتظرون مستقبلا غامضا .

وقع انفجار آخر . دخل عبد الفتاح على عجل ممسكا بيده راديو ترانزستور صغيرا يثرثر بلا توقف ، وأعلن أمامنا أنه يستمع لإذاعة «صوت الحرية» . انضممنا إليه مستمعين مثله إلى الصوت خاشعين : « . . ها بصاروخي قسام . . وينضم إلينا الآن مراسلنا في مدينة غزة ليوافينا

بتفاصيل جديدة في ما يتعلق بهذا الموضوع .

أخي أيمن السلام عليكم . أيمن ماذا تحمل لنا في جعبتك من أخبار حول التطورات الميدانية في قطاع غزة» .

«أخي ثامق . . . . . .»

يختفي الصوت ولا يبقى في آذاننا سوى أخي ثامق . ثم يعود متقطعا « . . . صفت قوات الاحتلال الصهيـ . . (نسرين تتشاجر مع شقيقها نصر) . . هناك دبابـ . . للاحتلـ . . .

« . . ولك اسكت انت وياه خ نسمع» . يصرخ عماد في ابنه وابنته ويضيف بغضب : «قومو نامو قومو قرد يحملكم» .

ثم يلتفت إلى زوجته آمال ويطلب منها الصعود إلى شقتهم وإحضار راديو آخر «جيبي الراديو اللي فوق يا آمال راديو عبدالفتاح بيخزي مش نافع . . .» .

تنهض آمال وتخرج على عجل ، ويحاول عبدالفتاح عبثاً ضبط الاستقبال .

«وذلك بعيد سقوط صاروخين من طراز قسام على المستوطنة . . وهناك حركة أيضا نشطة في داخل المستوطنة وتحركات جديدة غير طبيعية للقوات الاحتلالية في . .

استأنفت طائرات الاحتلال . . . في بيت حانون وتحديدا تجاه مستشفى . .

سأغادر البلاد غدا . هل سيتوقف القصف؟ هل يخلقون العبير . أي مصيبة هذه جاءت بها صواريخ إعلانية . لم أجد لي أي مصلحة في العملية الغبية التي وقعت مساء اليوم .

«بعد قليل استأنفت طائرات . .قصف هدف لم يتم تحديده»

عادت آمال بالراديو الآخر وتلقفه عماد . . أخذ يقلب المحطات ، بينما اغلق عبدالفتاح الراديو الآخر .

«يبدو أننا فقدنا الاتصال بأيمن . .

«وحشاني عينيك . . . آه . . وخايفه عليك . . آه

«مـا افظى بال هالراديو . . هذا وقت عـيني وعـينيك . . قـرد اللي يحملكم ويقلع عينيكم» .

تعلق أمي مغتاظة .

«اني رح أسمع المنار» . يقول عبدالفتاح . . «اني بدي اسمعها ع الموبايل مبرمجة عندي» . يضيف .

«في بيت حانون عند مستشفى وتحديدا يا ثامق . .

تفضل أخي أيمن . . تابع رجاء . .

نعم ثامق . . . القصف في بيت لاهية شمال قطاع غزة . . ست . .»

عماد يقلب المحطات ويتقلب معها ، فيعود الكلام الذي يغيظ أمي :

يا وايور الساعة اتناعشر يا اللي . .

«وتحيات إلى أهل الشهيد . .» .

هذي محطة العمال . يقول عبدالفتاح .

شالوم شال . . .

«بتعرف عبري يا عبد الفتاح» . أسأله .

«ما يحكي عبراني مية في المية» .

هايوم خميشا . . .

استهدفت مكتبا لحركة الجهاد الإسلامي في جباليا . . .

انقطع التيار الكهربائي فجأة ، غرقنا في بحر أسود . صرخت نسرين الصغيرة «حبيبيبي . . ولعولنا شمع بدي أشوف عمتو» .

صاحت أمي : «اقعدي واسكتي يا أم لسانين . .هذول اليهود قطعو الكهربا عشان ما يخلّو عمتو تشوف خالك وليد . . مستكثرين علينا ساعتين الوداع اللي باقيات . . الله يقطع المَيّة في زورهم قادر يا كريم» .

«شايف يا ابو فادي . . إسرائيل متآمره عليك وعلى عمتي شخصيا» . علّق عبد الفتاح . وسمعنا ضحكا في العتمة لا نكهة له ولا لون . تسللت آمال وسط العتمة إلى المطبخ ، وعادت بشمعتين كبيرتين ، وضعت إحداهما على الأرض قبالتي في الزاوية اليمنى من الصالة ، ووضعت الأخرى في الجهة المقابلة .

«أخي ثامق . .تتعرض مدينة دير البلح الآن لقصف من مروحيات أباتشي الإسرائ. . . .

«ابو حاتم . . . الله اعلم وين صار هالقيت» . صحت . وتناولت هاتفي النقال وطلبته : «الهاتف الذي تحاول الاتصال به مغلق الآ . . . .»

«ما بيردّش يه» .

«تلفن لبنت عمّك سعاد اسألها ، مهي طلعت معه في السيارة عشان يوصلها في طريقه لحي الشيخ رضوان» . اقترحت أمي .

«الو . . أم أيمن . .طمنيني وين صار أبو حاتم والجماعة؟» .

«علقان يا ابن عم عند حاجز محفوظة في نص الطريق . . والحاجز مسكّر ، والسيارات مكومة فوق بعضها في الاتجاهين زي ما قال لي ، والقصف شغال» .

عادت الكهرباء فجأة . أخذنا جميعا نفرك العتمة في عيوننا ونغسلها بالضوء الذي أربكها .

عند الواحدة ليلا ، خلت شقة العازب الأخير إلا مني ومن أمي . ودّعني عبد الفتاح وعماد عناقا ، وودعتني آمال بكلمات قليلة تبادلناها

عن بعد ، وحملت صغيرها تصر وتبعت زوجها . احتضنت الصغيرة نسرين وقبلتها . ولحقت بوالديها وهي تقول : «إيتن بدك ترجع يا خالو؟» .

«السنة الجاية انشا الله يا عمتو . . ورح يجي هوّ وعيلته كمان . . مش هيك يا بو فادي؟» . ردت إمي بالنيابة عني وتركت لي سؤالا لم إجد ردا عليه سوى القول «انشا الله» . أما شقيق (العازب الإخير) ، فقد كان قد سبق الجميع إلى الوداع ، قائلا إنه سيصحو باكرا للذهاب إلى عمله ، وذهب لينام .

بقينا وحدنا ، أمي وأنا . انتهزت الفرصة لأسألها عن حكاية قديمة شغلت بالي على مر السنين : «بتتذكري يمّة آخر يوم قبل ما أسافر ، لما طلبتي مني أزور قبر أبويه؟» .

«وطلّعت روحي وبعدين رحت وزرته» .

«اللهم يه . . بدي أسألك وما تخبيش علي» .

«أسال يه اني ما عنديش اشي أخبيه يا بني» .

«بتتذكري شجرة الأكاسيا اللي كانت فوق قبر ابويه؟» .

«آه يمّة . . ما كان في أحن منها عليه» .

«ع الشجرة يه كان في مناديل حريمي حرير مطرزة معلقة . مين كان يعلقها يه؟» .

«آه . المناديل . انت شفتهن؟ . لحكيلك قصتها كلها . . أجاني أبوك مرة بعد ما رجع من الشغل . ما شفته إلا مطلّع من جيبته منديل حريمي مطرّز ، أعطاني إياه وقالي ، هذا أعطتني اياه مرة من يافا يا أم وليد . . وأني ما حبيتش أخبي عليكِ . والمرة متجوزة . أخذته من ايدها وما حبيتش أحرجها ، بس طلبت منها ما تعيدهاش . . وراحت المرة ومن يومها وما عادتهاش . ظل المنديل في جيبتي أسبوعين ، وفي الآخر قلت انتِ أولى بيه» .

«ما غرتيش منها يه؟»

«طبعا غرت ، بس اني طول عمري واثقة بأبوك . بعد ما توفى الله يرحمه ، صرت كل ما أزوره اعلق له منديل ع الشجرة ، بدل المنديل اللي أعطاني اياه» .

«واعرفتي مين المره؟» .

«الله يستر عليها يه ، كل شي راح لطريقه» .

ولم أشأ أن أخبرها بما قاله جدي عن سوسن الغندور بعد هذه السنين ، حتى لا أحيي لديها شكوكا دفنتها في بطن جبل من ثقتها بأبي .

انطلقنا قرابة العاشرة صباحا عبد الفتاح وأنا بسيارته الصغيرة نحو معبر بيت حانون . اجتزنا شوارع جباليا وبيت لاهيا التي بدت خالية كأن موت ليلة أمس لم يزل يسكنها . كنا جميعا ، (ولابد أن أهالي البلدتين كانوا مثلنا) ، قد توقعنا هجوما صباحيا يكمل ما بدأته الطائرات ليلة أمس . يبدأ بزحف بري تتقدم خلاله الدبابات نحو مداخل البلدتين اللتين يصعب التعرف على الحدود الفاصلة بينهما .

حين وصلنا بيت حانون ، لم نر دبابات إسرائيلية أو جنودا ، لكننا وجدنا المعبر خاليا تماما باستثناء شرطيي أمن فلسطينيين يثرثران ويدخنان خلف مكتبيهما عند مداخله من الجانب الفلسطيني .

ودّعت عبد الفتاح عناقا ، ومشيت نحو أحد الشرطيين . سلمته جواز سفري . دوّن بعض المعلومات . استخدم هاتفا من نوع ووكي توكي للاتصال بالجانب الإسرائيلي ، وقال بضع كلمات بالعبرية ، فهمت منها أنه يبلغ الجانب الآخر عن وجود مسافر يحمل الجنسية البريطانية . بعد دقائق معدودات ، أشار لي الشاب بالمرور ، ومضيت أقطع الممر الطويل

السقوف إلى الجهة الأخرى وحيدا .

وصلت إلى مطار بن - غوريون قرابة الحادية عشرة والنصف . أمضيت أكثر من ساعتين متنقلا متجولا داخل صالة الانتظار الواسعة المكتظة بالمسافرين . قرابة الثانية والنصف هاتفت ابن عمي أبو حاتم . أخبرني أنه أمضى وعائلته الليل كله عند حاجز محفوظة مع مئات من المحتجزين الآخرين ، وأنه سمح لهم بالمرور عند الواحدة ظهر اليوم فقط . وفهمت منه أنه وصل إلى بيته للتو . تأسفت كثيرا لحاله ، واعتذرت له عن وداع تركهم يتامون في سيارة عند حاجز جهنمي . ضحك وقال لي فاللهم توصل انت بالسلامة يا ابن عم .. إحنا تعودنا ع الحواجز والقصف والموت . خبرنا عن حالك وسلم لي ع أعيالك .

الفصل الثامن والعشرون

وليد دهمان

وصلت إلى لندن قرابة العاشرة ليلا ، منهكا متعبا من طول السفر ، ومن الإجراءات الأمنية التي لا مثيل لها في مطار بن غوريون في تل أبيب ، والتي ضاعف من قسوتها مجيئي من قطاع غزة . عوملت خلالها كمن يهرب انتحاريين في حقائبه . استقبلتني في طابور تفتيش المسافرين فتاة أمن في العشرينات من عمرها ، استجوبتني لمدة عشر دقائق على الأقل ، ركزت أسئلتها على ما كنت أفعله في غزة ، ومن التقيت هناك . كان أكثر ما أدهشني وأغاظني أيضا ، سؤالها عن مكان ولادتي في السدود ، ولماذا هو مدوّن في جواز سفري . لجاهلت غباءها المتعمد وأجبتها بما يقلق عمرها كله . قلت لها إنني ولدت قبل قيام دولة اسرائيل ، وإنني أكبر منها عمراً ، مستعيرا كلمات قالها غسان كنفاني ، الذي اغتالته إسرائيل في بيروت عام ١٩٧٢ . تركتني الشرطية غاضبة وركضت نحو زميل نادى عليها . تسلمتني فتاة أمن ثانية أعادت تكرار الأسئلة نفسها تقريبا كأنها درستها في أكاديمية لتعذيب المسافرين . حين انتهت من أسئلتها وانتهيت من إجاباتي عنها ، سحبت حقيبتي ودفعت برفقها إلى حزام جهاز الكشف بالأشعة ، فاعترضت طريقي شرطية أمن ثالثة ، أكدت لي أنها وزميلاتها نسخ متطابقة من كراهية تزرعها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على الفلسطينيين بشكل عام .

اجتزت فحص الحقائب بالأشعة إلى فحص آخر ، قام به شاب وسيم

أنيق طلب مني بأدب مبالغ فيه ، أن ابقى بعيدا عن الحقيبة ، وقال إنه سيعيد بنفسه ترتيب كل شيء حالما ينتهي . قام الشاب بعملية مسح لكل قطعة مما حوته الحقيبة ، ومرّر جهازه على جواز السفر أيضا ، ربما بحثا عن حبيبات الانتراكس بين أوراقه .

استغرق ذلك كله أكثر من ساعتين ، أضيفت إليهما ، فيما بعد ، ساعة ثالثة أمام شباك منح تأشيرة الخروج .

في الطائرة ، جلست وحيدا ، لا أترقب جارا تقلقني جيرته . ولا تحاصرني أسئلة كالتي حملتها معي في رحلتي إلى تل - ابيب من مطار هيثرو . وحيدا أمضيت الساعات الخمس بلا دانا اموفا وبعيدا عن حكاياتها ودهشتها وانفعالاتها ، وبكائها الغامض الذي لم أحلّ ألغازه .

وهكذا أمضيت معظم الوقت في قراءة ما تبقى من رواية يان كيفيليك ، «العرس الوحشي» ، أتتبع سنوات لودو الصغير الذي كبر وصار شابا داخل مصح عقلي ، يشبه كثيرا ، الدولة المصح التي غادرتها قبل حين ، عائدا الى لندن بعقل حمدت الله أنه لم يزل سليما .

حين وصلت إلى البيت ، عانقت زوجتي جولي ، التي فتحت لي الباب بذراعين تتسعان لاشتياق بحجم ثلاثة أسابيع من الغياب . نقلت لها تحيات أمي وقبلاتها وتحيات الآخرين من أقربائي ، ووعدتها بحديث لاحق حول تفاصيل رحلتي إلى غزة ، بما فيها ما تركته من تأثير على روايتي ، ولقائي للفاجئ بعادل البشيتي هناك .

في الثامنة صباحا ، صعدت إلى قطار الأنفاق المتجه نحو مركز المدينة ، وجلست على مقعد قرب الباب مباشرة ، في مواجهة سيدة متوسطة العمر تجلس في العربة وحيدة ، تقلب صفحات جريدة «ترين» اليومية المجانية .

فكّرت في دانا أموفا . لابد أن تكون قد وصلت إلى لندن قبل يومين

حسب رسالتها الاليكترونية لي . قررت الاتصال بها لترتيب لقاء بعد انتهائي من العمل ، أو في وقت قريب ، والاطلاع منها على ما وعدت به .

أخرجت من حقيبتي مفكرتي الاليكترونية الصغيرة وطلبت رقمها . «لو صحّ ما وعدتني به ، فسوف أفاجئ زملائي في اجتماع التحرير الصباحي الذي يعقد غدا في العاشرة تماما ، بخبطة صحافية تهزّ العالم كله وليس منطقة الشرق الأوسط وحدها» . «الرقم الذي تطلبه غير متاح الآن . . يمكنك المحاولة مرة أخرى لاحقا» .

خيّبني الصوت الآلي خيبة «مش ع البال» . أعدت طلب الرقم مرّة أخرى ، فتضاعفت خيبتي . كررت المحاولة مرّة ثالثة ورابعة و . . . حتى صار لدي دستة خيبات .

قلقت : هل كذبت علي دانا؟ هل كانت تسخر مني حين بعثت برسالة تحمل إليّ رقما تبيّن أن لا وجود له ، أم إن هاتفها مشغول فعلا بحوار ما استغرق كل هذا الوقت؟ .

توقف القطار في محطة «أكتون تاون» . نهضت السيدة الجالسة قبالتي من مقعدها وغادرت ، تاركة خلفها ، جريدة «ترين» ملقاة على مقعدها ، مقلوبة على غلافها الأخير المخصص لأفضل لقطات آخر مباريات كرة القدم في بريطانيا .

اختطفت الجريدة قبل أن تسبقني اليها يد أي من الركاب الذين ملؤوا نصف مقاعد عربة القطار منذ صعودي .

أعدت الهاتف ومفكرتي الاليكترونية الى حقيبتي ، وأسندت ظهري إلى الخلف .

قلبت الجريدة على صفحتها الأولى . قفزت إلى عيني صورة لدانا أموفا تغطي ثلاثة أرباع الصفحة أسفل عنوان عريض صعقني : «مقتل إسرائيلية في لندن في ظروف غامضة» .

الراوي

فور مغادرته مطار لندن ، كان وليد قد هاتف دانا . أبلغها بوصوله واتفقا على أن يلتقيا في السادسة والنصف مساء اليوم التالي في منطقة «ساوث بانك» ، عند مدخل قاعة المعارض الفنية . تبادلا سريعا بعض العبارات التي تبرر لهفتهما اللاحقة على اللقاء . اعترفت له دانا بأنها على علاقة بابن مسؤول عربي كبير . ووعدته بأن تحكي له وحده ، تفاصيل قالت إنها ستذهله . وإنها ستفاجئه أيضا ، بكلام كثير عن شخص كان صديقا لكل منهما ذات يوم .

ألحّ وليد على معرفة المزيد . رفضت دانا الاستجابة لإلحاحه ، مفضلة ترك التفاصيل للقاء .

قبل أن ينهي مكالمته الهاتفية ، استوقفته دانا . سألته عن أرنة كتساف وعادل البشيتي ، وما إذا كانا قد التقيا ، أو تراسلا على الأقل . أخبرها وليد بأن أرنة بعثت إلى عادل البشيتي ، برسالة تعتذر فيها عن زيارتها التي كانت مقررة لفرانكفورت . وقالت إنها قد تلتقيه في مكان آخر وفي مناسبة أخرى . أما عادل ، فقد قرر تجاهلها نهائيا ، خصوصا بعد أن التقى ليلى دهمان ، واتفقا على الزواج في أغسطس المقبل ، وعلى الاستقرار في قطاع غزة ، بعد أن حصل عادل على عرض من بنك باركليز للعمل في أحد فروعه في القطاع .

عرض وليد على دانا ، أن تفكر في وضع نهاية لدورها في روايته التي

وضعت بنفسها عنوانها «ظلال ليست واحدة»، كما فعل كل من أرنة وعادل الشيخي. وأن تخبره بتلك النهاية حين يلتقيان، حتى لا يضطر هو إلى القيام بذلك. أجابته ساخرة: «وهل ستفضحك عليّ مرة ثانية يا وليد؟ ضع في روايتك النهاية التي تريدها. فقد اخترت لحياتي الواقعية النهاية التي تمليها. وسأخبرك بها حين نلتقي.. شلوم».

وأغلق وليد هاتفه على دهشته.

وليد دهمان

أعدت تأمل الصورة وأدقق في ملامح صاحبتها: «إنها هي... دانا رفيقة رحلتي، بابتسامتها التي ملأت المسافة بيني وبينها طيلة ساعات، بشعرها البني المسترسل على كتفيها، وبعض صدرها الخارج على التحفظات. دانا التي أعارتني عنوان روايتي «ظلال ليست واحدة». لا أصدق أنها رحلت هكذا مثل ظل التهمته العتمة. رحت أفكر فيما إذا كان ما حدث انتحارا خطّطت له دانا بهذه الطريقة الفجعة، ليكشف، لاحقا، عن تفاصيل تهز الشرق الأوسط كله كما قالت؟ انتحار أكمل ما بعض تفاصيل حكايته تتفق مع ما عرفته منها في الطائرة؟. أو ما إذا كانت دانا قد وقعت ضحية ملابسات مجهولة انتهت بقتلها؟ من قتلها إذن؟ ومن هو صاحب المصلحة في التخلص منها بهذه الطريقة البشعة؟ ثم ما الذي كانت تملكه حتى استحقت هذه النهاية المأساوية؟».

كانت عليّ هواجسي وأسئلتي العالقة بين عينيّ الصورة وتفاصيلها، لتركتها إلى تفاصيل الخبر الذي هزّ كياني كله في صباح كان عاديا ولم يعد كذلك: «عثر مارة عند منتصف ليلة أمس، على جثة امرأة أسفل عمارة في حي سويس كوتيج في لندن، وقد حضرت شرطة المنطقة إلى مكان الحادث وباشرت التحقيق فورا. وبيّنت التحقيقات الأولية، أن الجثة سقطت من الطابق السادس في العمارة، ولم يتحدد سبب الوفاة بانتظار ما سيكشف عنه الفحص الجنائي لاحقا. وتواصل الشرطة اليوم، تحريات مكثفة للوقوف على أسباب الحادث الذي ترجح، حتى الآن، أن يكون

انتحارا . وقد جرى ليلة أمس ، استجواب بعض سكان العمارة . وكشفت مصادر في الشرطة أن الجثة لشابة في الثانية والثلاثين ، تدعى دانا بورلان ، وهي من حملة الجنسية الإسرائيلية ، وقد دخلت إلى البلاد عبر مطار هيثرو يوم الأربعاء الماضي ، أي قبل ثلاثة أيام من وقوع الحادث .

وقال بعض سكان العمارة إنهم شاهدوا امرأة شقراء تبدو في الثلاثينات من عمرها تدخل إلى العمارة قرابة التاسعة من مساء أول من أمس . وقال قاطنون في الشقة المقابلة للشقة التي شهدت الحادث ، إنهم لم يشاهدوا أحدا من سكانها من قبل ، ويميلون إلى الاعتقاد بأنها كانت خالية . لكن شاهد عيان من سكان العمارة ، أكّد للشرطة أن شابا في الثلاثينات ، شرق اوسطي الملامح ، كان يتردد على الشقة في فترات زمنية متباعدة . وأكد أنه شاهده يدخل إلى العمارة ثلاث مرات ، على الأقل ، في الشهور الخمسة الأخيرة . واستبعدت أوساط صحافية إعلان نتائج التحقيق في فترة قريبة ، وتوقعت مصادر أخرى ، طي ملف الحادث واعتباره انتحارا .

فكّرت ، ولم تزل جريدة «ترين» بين يدي ، بينما أعيد قراءة تفاصيل الصورة للمرة العاشرة : هل كانت دانا على علاقة بالشاب ذي الملامح الشرق أوسطية الذي تحدث عنه الشاهد؟ هل كان شخصية مهمة خشي السياسيون في بلاده تطور علاقته بممثلة إسرائيلية ، فسارعوا يضعون حدا لها؟ أم إن أجهزة «الموساد» هي من فعل ذلك لحسابات إسرائيلية بحتة؟

طرحت أسئلة كثيرة ، وقلّبت احتمالات عديدة ممكنة وغير ممكنة ، من بينها أن تكون دانا نفسها عميلة للموساد أوقعت ذلك العربي في شباكها . أو «الجاسوسة التي أحبته» ودفعت ثمن عشقها . أو أن يكون كلاهما ضحية مغامرة غير محسوبة في منطقة تتقاطع فيها الحسابات .

الرواي

حين لا يجد فيها ما يستحق القراءة ، يطوي وليد جريدة «ترين» ويلقي بها على المقعد المجاور . يتابع القطار رحلته . بعد دقائق يهبط منه وليد . يغادر المحطة ويتجه مباشرة إلى عمله .

في المساء ، يلتقي دانا أعوفا في منطقة «ساوث بانك» حسب موعدهما . سوف تسأله عن النهاية التي وضعها لروايته «ظلان لبيت واحد» ، وسوف يسألها عن النهاية التي اختارتها هي لحياتها خارج النص .

أنهى وليد عمله قرابة السادسة وغادر مقر الجريدة . «لديّ ما يكفي من الوقت . . سأستقل القطار من المحطة التالية» . همس لنفسه . تجاوز محطة «غرين بارك» وتابع سيره متمهلا باتجاه محطة بيكاديللي سيركوس . راح يتفرج على النساء مأخوذا بروعته كأنه يراه للمرة الأولى . تقلّبت أمام عينيه وجوه العديد من المارة . «يا إلهي . .لقد تغيرت كثيرا» . هتف ولم يكن قد رآها من قبل . وصل إلى مدخل المحطة . استدار نحو درجها الاسمنتي . سمع وقع أقدام يتلاحق خلفه ومن يناديه باسمه . ارتعشت قدماه فوق الدرجة الرخامية الأولى . التفت إلى الوراء بحدة . رأى فتاتين تجران حقيبتي سفر كبيرتين مزودتين بدواليب صغيرة . أربكته مشاعره . أسرع يهبط الدرجات نحو الرصيف . قفز إلى داخل القطار الذي توقف .

أقلقه الباب المفتوح ، جال بعينين خائفتين على وجوه الركاب من حوله يلتمس بعض الطمأنينة ، ابتسم له طفل تعلّق بصدر أمه . أغلق القطار أبوابه وانطلق ، وخلال ثوان ابتلعه النفق .

انتهى

استدراك
وليد دهمان ودانا أهوفا لم يلتقيا تلك المساء

المؤلف

ربحي الله هونا صحافي وكاتب ، مواليد المجدل عسقلان - فلسطين ، عام ١٩٤٥ ، يحمل الجنسية البريطانية ويقيم في لندن . من مؤلفاته : أيله خان يونس ، (مجموعة قصصية) ، الانتفاضة الفلسطينية ـ الهيكل التنظيمي وأساليب العمل ، (بحث أكاديمي) ، وطعم الفراق ، (سيرة ذاتية) .